جامعة الدول العربية

معهد الدراسات العربية العالية

الشعر الحديث

فى الاقليم السورى

محاضرات

ألقاها

الدكتور

سامى الدهان

[على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية]

١٩٦٠

١٩٦٠

الشعر الحديث

في الإقليم السوري

جامعة الدول العربية
معهد الدراسات العربية العالية

الشعر الحديث
في الإقليم السوري

محاضرات

ألقاها

الدكتور
سامي الدهان

[على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية]

١٩٦٠

١٩٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تفضل الصديق الكريم الدكتور اسحق موسى الحسيني فاقترح علىّ أن يكون موضوع المحاضرات فى معهد الدراسات العربية العالية ، لهذا العام « الشعر الحديث فى الاقليم السورى » فتقبلت شاكراً دعوة المعهد ، وقمت باعداد هذه المحاضرات على معرفتى بوعورة السبيل وحراجة البحث ، فليس من اليسير أن يوفى الدارس على جمع الشعر الذى قيل فى النصف الأول من هذا القرن لأن شعراءنا لم يُعنوا بطبع دواوينهم أو جمعها ، فقد قضى من قضى منهم — رحمهم الله — قبل أن ينصرفوا إلى شعرهم أو ينسقوه وينظموه ، أو يبوبوه ، أو يكتبوا مقدمة بين يديه ، تعين على فهم حياتهم ودراسة شعرهم وأدبهم . وأكثر الأحياء منهم — أمد الله فى أعمارهم — لم ينصرفوا حتى الساعة إلى طباعة دواوينهم ورسم الخطوط الكبرى لحياتهم .

لذلك كان من العسير دراسة هذا الشعر وجمع شتاته المتفرق والرجوع إلى مخطوطات الدواوين ، والإلمام بالمعلومات الهامة الأساسية مما يفيد فى دراسة الظروف والأجواء ومناسبات القصائد .

ولكن هذا كله لم يصرفنا عن السعى والبحث والتنقيب ، فعملنا على تسقط الشعر من خلال الصحف والمجلات ، وأيدى الصحب والأصدقاء والرجوع إلى مظان مخطوطة أو كتب متفرقة ، واستطعنا أن نظفر بقدر غير يسير منه يعين على تفهم الألوان الشعرية التى عالجها الشاعر أو الحوادث التى مرت به فى حياته ، فكان من وراء ذلك معلومات أعانتنا على الحديث فيه ، وقد أحزننا أشد الحزن أن تاريخ الأدب العربى المعاصر فى سورية لم يكتب بعد بصورة علمية على الطريقة التحليلية ، فى ترجمة الشعراء وفى

دراسة فنونهم الأدبية واتجاهاتهم وأغراضهم ، ومعالجة الظروف التى أثرت فيهم والعوامل التى كونت أدبهم وعرض النتائج التى انتهوا إليها فى تجربة الشعر والموازنة بينهم وبين زملائهم شعراء الاقليم المصرى أو شعراء الأقاليم الأخرى والالماع إلى قيمة هذا الشعر الحديث فى الأدب العربى كله ، وفى الأدب الإنسانى بعد ذلك لنعرف موقفنا من الأدب العالمى ومبلغ الخطى التى خطاها شعراؤنا فى هذا الميدان ، ورسم التوفيق أو الفشل الذى كان منهم فى ذلك .

وإذا كنا لا نستطيع الوفاء بهذه الأغراض كلها على الوجه الذى يرضى الأدب الرفيع والدراسة المثالية ، فاننا نحاول أن ندلى بدلونا فى الكلام عن شعراء هذا الاقليم منذ أهل القرن ، باسطين الخطوط الأولى لتراجم حياتهم ، عارضين مراحل عيشهم وأثرها فى شعرهم ، وموضع هذا الشعر من الأدب فى معناه ومبناه ومبلغ ما أخذ من القديم أو ما أفاد من الجديد ، فقد لمع أكثر هؤلاء الشعراء فى الربع الأول من القرن العشرين وظهر أدبهم متأثراً بالظروف القاسية التى مرت بها سورية خلال العهد العثمانى حتى جاءت الحرب العالمية الأولى ، فانتقلوا من هول الظلم والاستبداد إلى هول الحرب والاستعباد ودخلوا مرحلة ثانية من النضال ضد الاستعمار الغربى بعد أن قاسوا مرارة النضال ضد الظلم العثمانى . وبرقت لهم خلال شهور بارقة الاستقلال ، فسالت فى الفرحة قوافيهم ثم انقضت الشهور فوقفت القوافى ذاهلة ، ثم انطلقت فى مهاجمة الاستعمار الفرنسى ، وظلت تردد الأناشيد حتى تحررت سورية .

وقد حاولنا أن نعيد وأن نبدىء عند الحديث عن كل شاعر فى أثر هذه المراحل بعيشه وشعره ، لنرى كيف كان أثرها فى نفسه وفى أدبه ، فدعمنا بالشواهد والأدلة هذا الأثر وهذا المفعول . ثم عرضنا لتيار الجديد والقديم عند كل من هؤلاء الأدباء الشعراء ، وسعينا إلى بيان ثقافته ودراسته ومبلغ تأثره بتراثنا العربى القديم أو مدى تأثره بالأدب الغربى ، فقد كان صدر

هذا العصر صورة لتلاقى هذه التيارات الفكرية ، تهب عليه ريح العروبة وتهزه الثورة ، فيرجع إلى الماضى المجيد ، ويعلق بالتراث الضخم من تاريخ اللغة والأدب والآثار ، ثم تحمل إليه الصحافة فى لبنان وسورية ترجمات وكتباً ومقالات عن الفكر الغربى فتهزه كذلك ، ويعيش فى دوامة دائمة من هذا الجريان ، فالنافذة المفتوحة على البحر تمده بالأدب الغربى ، والباب المفتوح على البلاد العربية يمده بنسائم العرب وأمجادهم ، فيظل متأثراً بالباب الكبير ويغلب عليه التأثر بالأسلوب القديم فى معانيه ومبانيه ، ولكنه يزين أقواله بنفحات الغرب ، تزييناً ووشياً ليس غير .

فلما تقدم العصر ، ودارت الثقافة الغربيـــة على الرؤوس ، ودخلت الخزائن والمكتبات ، نشأ جيل عربى واع أخذ من فصاحة العربية وبيانها ، كما أخذ من معانى الغرب وصوره وتفكيره ، وقرأ الشعر العباسى كما قرأ شعر المهجر وقد تهادى إليه من وراء البحار فقام هذا الجيل الجديد منذ خمسة وعشرين عاماً تقريبا بمحاولات الشعر الجديدة فى الحفاظ على عمود الشعر العربى من حيث البناء والمتانة والفصاحة وفى الالتفات إلى ألوان الشعر الغربى من حيث الصور المجنحة والأساليب الموسيقية ، ووحدة القصيدة والدوران حول الاطار الواسع لكل معنى أو فكرة ، فقد كان من هم القدماء الايجاز ، وأصبح من هم هؤلاء المحدثين الأطناب فى التصوير — إذا صح التعبير — وغدت فكرة الشاعر الجديد تختلف عن زميله قبله فى فهم الشعر كما تختلف فى فهم الحياة نفسها . فاذا كان البيت القديم يكتفى بما يجب أن يكون فيه من وسائل العيش بما يحتاج إليه ، فقد أصبح البيت الجديد لا يكتفى بما يحتاج إليه فحسب ، وإنما يضيف إليه من الرياش ما يمهد لعيش أشد رفاهية وأبعد فى الراحة وأقرب إلى الترف وذلك تمشياً مع الحضارة ، ولذلك دخلت بيوت المترفين آلات الموسيقى المسجلة والناقلة على ألوانها ، وتكييف الهواء والماء والجو ، وأدوات العيش الجديدة ...

كذلك أصبح البيت الجديد من الشعر لا يكتفى بما يريد من حماسة أو رثاء

أو حب فى سطور قليلة موجزة تبين عن الفخر أو البكاء أو الهوى . وإنما غدا الشعر يبسط الفخر فى صورة نسر يرقى القمم ويحلق فوق الطيور ، ولا يرضى بالسفح ، فيرسم الاطار الشعرى الواسع كأنه يكيف الجو ويُجرى الموسيقا ، وينشر العبير ، تمهيداً لما يريد أن يقول من فخره بقومه أو هجومه على الاستعمار مثلا .

وكذلك غدا البيت الجديد من الشعر لا يكتفى بما يريد من وصف الحرمان فى الحياة بأنه سجن أو ظلم ، وإنما يرسم طائراً فى قفص تخفق جناحاه وراء الألوان ، ولكنه لا يكاد يخلص نجياً ، أو جريح قرب الماء يزحف والدّم ينزف منه ، وهو يكاد يسلم الروح ، كذلك كانت صورة السورى فى ظل الاستعمار عند بعض الشعراء المجددين .

ونحن لا نكتب هذه المقدمة فى بيان ألوان الشعر خلال القرن العشرين فلذلك مكانه فى هذه المحاضرات ، ولكننا أردنا أن نقول إن هذا القرن حين تقدم وترعرع شهد ألواناً من الشعر عند الشباب ، بلغوا فيها من التوفيق حيناً ، وأخفقوا أحياناً ، ولكنهم على كل حال نزعوا إلى محاولات بارعة ، سجلناها لهم بيد الشكر والمنة .

فنحن نتحدث خلال هذه المحاضرات عن القرن العشرين فحسب لا نعبأ بالقرن التاسع عشر إلا لأنه شهد فى أواخره ولادة أكثرية الشعراء من الطبقة المدرسية ، ولكنهم نبغوا واشتهروا منذ أهلّ القرن — كما قلنا قبل قليل — وحين نقول الطبقة المدرسية لا نعنى التهوين من أمرها ، ولا نسعى إلى تقسيم الشعر إلى مدارس كما يفعل بعض نقادنا اليوم ، وإنما نعنى بها هذه الطبقة التى كانت صورة للشعر المتين الجزل القوىّ فى مبانيه ، دارت حول عمود الشعر فما فارقته من حيث الفصاحة والبلاغة والبيان ، ولكنها وثبت إلى ميادين جديدة فى الأخيلة والموضوعات والصور . فقد كانت أمينة على التراث العربى صادقة الولاء للشعر الفصيح ، فنقلت الشعر المعاصر فى الاقليم

من ضعف فى التعبير واسفاف فى الأهداف إلى متانة جميلة وأغراض بعيدة شريفة فى الوطنية والقومية والطبيعة والحب ، وخدمت الجيل الناشىء فى الشعر ، فنشأت بعدها طبقة أخذت من صيغها العربية ووثبت كذلك إلى ميادين غربية تقلدها حيناً أو تقتبس من نورها أو تصوغ على هديها مع مراعاة عبقرية اللغة العربية ، وهذه الطبقة الجديدة جمعت إلى جمال الشعر فى التعبير روعة التصوير الحديث . وحامت حول الاطار الغربى ، ولكن كثيراً من شعرائها وقعوا فى الخيال الباكى وبعضهم انغمس فى اللذائذ والغرائز ، وفريق منهم نجا فتعلق بأهداف الطبقة الأولى من حيث الموضوعات القومية والوطنية والطبيعة والحب ، على تجديد كبير ونجاح عظيم .

وقد أردنا أن نختار من مختلف الطبقات شعراء نتحدّث عنهم فى هذا « الجزء الأول من المحاضرات » لهذا العام ، يمثلون منازع إخوانهم فى ألوان الشعر ، لنبسط صورة للشعر الحديث المعاصر فى الاقليم على أن نتم الحديث فى العام القادم عن غيرهم ، لئلا نظلم شاعراً منهم وقف ريشته فى خدمة أدبنا .

وكان اختيارنا فى الحديث هذا العام قد انصبّ على السادة الشعراء الذين نبتوا وترعرعوا فى مختلف مدن الاقليم ، فنتحدث عن خليل مردم ، ومحمد البزم ، وخير الدين الزركلى ، وشفيق جبرى من دمشق ، وهم الرعيل الأول فى الشعر لهذا العصر ، كان لهم ما كان لشوقى وحافظ ومطران وصبرى من سعى إلى الشعر المتين ، ونتحدّث عن بدوى الجبل من اللاذقية ، وهو كإخوانه أنشد قديماً وما يزال ينشد ، فسجّل مع زملائه مفاخرنا فى قريضه فأصبح شعره وشعرهم على كل سمع وفى كل لسان .

ثم نتحدّث عن عمر أبى ريشة من حلب وهو من شعراء الطبقة الصاعدة التى اشتهرت منذ ربع قرن ، وعكفت على التحليق بجناحين من أدب غربى جديد وأسلوب عربى جميل ، وقد سارت معه مدرسة شعرية سلكت طريقته

وطريقه شعراء المهجر ، كما سارت إلى جانبها طائفة من الشعراء سلكت سبيلا آخر ، ولكن الحديث عنها لن يكون هذا العام .

وقد حسبنا أن من النافع رواية مختارات لكل شاعر تحدثنا عنه ، وذلك لأن أكثر الدواوين مفقود أو مخطوط لا تكاد تصل إليه اليد ولأننا نريد أن نعرض نماذج من هذا الشعر ربما فضلها القارىء على ما اخترناه حين البحث أو الحديث . وقد يحتاج إليها الدارس الباحث فى دراسة أوفى مما فعلنا .

ولن ننسى ونحن نخط هذه المحاضرات أننا ندخل فى طريق شائكة وأننا نتعرض منذ الساعة لظلم ليس لنا فى دفعه حظ أو قدرة ، فنحن قد نختار من الشعر ما وقعنا عليه فحسب ، ونغفل بذلك من الشعر ما كان أحرى بالإنشاد والاستشهاد ، ولكنه لم يقع لنا أو لم يلفت نظرنا ونحن قد نشيد بغيره لبعده عن الظروف ، فالشاعر يرتبط أشد الارتباط بالبيئة والجو والظرف .

وهناك أمر آخر لا معدى لنا عن الاعتذار له سلفا ، وذلك جهلنا بتفاصيل حياة أكثر هؤلاء الشعراء وما وقع لهم من أمور شخصية صرفة أو صلات بالناس والأدباء ، أغفلنا الحديث عنها مضطرين أو ناسين ، فلم نفعل كما كان القدماء يفعلون فى اصطياد النكات أو المصادفات أو العبر والحكايات ، لأن أكثر هؤلاء الشعراء من الشيوخ سلخ كثيراً من سنيه فى القريض قبل أن نتسلق سلم المدارس الابتدائية ، فلما عرفناه واتصلنا به ذهب عنا الماضى وبقيت صورة الحاضر ، فطغت هذه الصورة على كل شىء عداها ، وهى التى رسمنا جوانب منها وأردنا أن نبحث فيها ، فاخترنا ما يكون للمحاضرة ، واطرحنا ما يصلح للمسامرة ، فنحن نتحدث إلى طلبة يحملون عنا أروع ما خلف الجيل ليتخذوا أحسن مافيه ، ويتبعوا أجمل ما عنده ، ونحن نميل هنا إلى تأريخ الأدب الصرف وفنية الأديب — كما يقولون — والأدب شىء وتاريخ الأدب شىء آخر .

وقد اخترنا أن نسلك طريق الحديث عن أدب هؤلاء الشعراء بالنصوص الشعرية والشواهد ، فلذلك خير طريق للباحث فى العصر الحديث ، رأيناه عند الغربيين، فأخذنا بها . ولكننا لم نوغل فى بسط دقائق التحليل عند الغربيين لئلا نثقل على المحاضرات ، ولم نسرف مع ذلك فى عرض أساليب القدماء أو التطرق إلى وجوه البلاغة والبيان والبديع فى تحليل هذه النماذج ، بل اكتفينا ببيان الجمال جملة لا تفصيلا ، وذلك لكى نستطيع أن نتحدث عن عدد من الشعراء . ولو فعلنا غير ذلك لوقفنا عند واحد أو اثنين فحسب ، وما كان هذا هدف الدعوة إلى المحاضرة .

ولم يكن من همنا نقد هؤلاء الشعراء أو تناول مدرستهم أو التعرض لمذهبهم فى الأدب فنحن نعرض لهم كما يعرض المؤرخ للأدب فى بسط السيرة وفى تعداد ألوان الشعر وأغراضه من غير توجيه أو لوم . فما ندّعى أننا نستطيع أن نقود خطوات شعراء سلخ أكثرهم الستين من العمر . ونحسب أن هذا التوجيه لا ينفع ولا يغنى الناشئة ..

وأملنا أن تبعث هذه المحاضرات الموجزة على فهم « الشعر الحديث فى الاقليم السورى » فهماً سريعاً فى خطوط عريضة ، وأن تدعو العلماء والباحثين إلى التفكير فى تأليف كتاب كبير عن هذا الشعر يوفىّ البحث ، ويكمل النقص الذى وقعنا فيه ، ويفصّل ما أجملناه ، ويبلغ إلى الغاية من الدقّة والكمال حين عجزنا عن بلوغهما ، واعترفنا بالتقصير سلفاً فى بحث جديد بكر ، لم نقع فيه على مصادر أو كتب ، فهى محاولة أولى ، جعلناها للطلاب والشباب ، والله الموفق للصواب .

دمشق ٢٩ مارس ١٩٦٠

محمد سامى الدهان

تمهيـــــد

أغراض الشعر واتجاهاته

شعر الطبيعة — شعر النضال — الشعر الإنسانى والاجتماعى

قبل أن نتحدث عن الشعر الحديث فى الإقليم السورى ، نحب أن نمهد للحديث بوصف الإقليم الذى ظهر فيه هذا الشعر ، وأن نصوّر الأحداث التى دفعت إليه ، والحال التى عاش عليها أهل هذا الاقليم . فالشاعر كما يقولون هو ابن البيئة والظرف والأحداث ، تؤثر فيه الطبيعة ويتأثر بالتاريخ والتيارات : فلا بد من الالمام بذلك إلمامة سريعة .

إن العربى الذى اندفع من جزيرة العرب أوائل الفتوح وسكن الأقطار المحيطة بالجزيرة ، تأثر بعرقه وعاطفته وأخلاقه الأصيلة وحملها فى تكوينه على ثلاثة عشر قرناً من حضارة العرب ، ولكنه أخذ من الاقليم الذى سكنه بعادات وطبائع أثرت فيه فجعلته يتميز من أخيه العربى فى إقليم آخر ، حتى صارت له طباع يختلف بها ويعرف بوجودها ، وهذه الطباع وجهته وجهات معينة قد لا تكون فى إقليم آخر . وليس هذا بدعاً فى أقطارنا وأقاليمنا ، وإنما هو عام فى شعوب العالم ، يختلف فيه الشمال عن الجنوب ، والشرق عن الغرب ، وساكن المدينة عن ساكن الريف . ولكنّ هناك قاسماً مشتركا هو رابطة الشعب بعضه ببعض على اختلاف مناحيه وجهاته ، وهذه الرابطة تنحدر من التراث التاريخى أو الخلقى أو النفسى ، فتوحد الشعب فى بعض الصفات الأصيلة الموروثة التى يعرف بها بين شعوب العالم وهى أصالته وعبقريته الخاصة .

ونحن حين ندرس الاقليم السورى لا نهدف إلى القول أنه يختلف اختلافاً

جذرياً عن الشعوب العربية فى الأقاليم الباقية ، ولكنه يختلف فى شىء له أثر فى عبقريته وميوله وعواطفه ، وهذا الأثر له نفوذ هام فى تكوين شاعريته وخياله .

والبحث فى طبائع أهل هذا الاقليم يبسط الخصائص النفسية فيه ويحلل الاتجاهات الأدبية عنده ، ويشرح الميول والرغبات والمشاعر ، ويمهد بعد هذا لفهم منازع الشعر وأسبابه . فالميول والرغبات هى قوام الشعب ، والشعب سوق يروج فيه ما يميل إليه ويسقط فيه ما يميل عنه .

ولسنا ندعى كذلك أننا نستطيع أن نحكم على طبائع الاقليم كله بكلمة واحدة تشمل أنحاءه ، فنى الاقليم نفسه منازع متباينة : فأهل الشمال يتأثرون بالقسوة والجفاف فيسرى ذلك فى طباعهم وأقوالهم وميولهم ، وأهل الجنوب يتأثرون بجمال الطبيعة وكرمها فيسرى ذلك على لينهم ورقة حديثهم وطريقة تعبيرهم ، وما بين الشمال والجنوب مدن وقرى تختلف كذلك فى منازعها . ولكنّ طبعاً عاماً وعاطفة مشتركة وخلقاً شاملا يضم سكان هذا الاقليم بصورة عامة ، وبتعبير آخر إن لهؤلاء السكان صفات روحية مشتركة ورثوها عن طبيعة أرضهم وجوّهم والأحداث التى مرت بهم ، والنهضة الاجتماعية التى هزتهم .

شعر الطبيعة :

أما طبيعة هذه الأرض فهى تتميز باختلاف الفصول وشدة الأنواء ، فالحر والبرد يختلفان حتى ليشتد الشتاء ويغلو الصيف ، فالأمطار والرعود والثلوج ومنظر النار الموقدة واختلاف الناس إليها فى ليالى الشتاء الطويلة يثير فى مشاهد الطبيعة ألواناً قد لا تعرفها بعض الأقاليم الأخرى، ولعلّ هذه الألوان مصدر إلهام أو موضوع قصيدة أو غرض وصف ، والحر الشديد فى الصيف يدفع بأكثرية القادرين من السكان إلى تسلّق القمم وقصد

المصايف حيث تشرق الشمس واضحة ، وتتعرّى للعين الشاعرية فترسم ألواحا مختلفة فى الصباح وفى المساء هى من أجمل البواعث على صحبة النور والظل واختصامهما فى خيال الشاعر .

وتتميز هذه الطبيعة كذلك بحدائق واسعة وأشجار ممتدة ، وأنهار جارية ، وينابيع موزعة ، وجبال ووديان ، وصخور وأحجار ، يفيء إليها السكان فيجدون عندها الجمال والجلال ، فتذهب النفوس إلى إكبارها والتغنى بها ، والاستمتاع بمحاسنها طوراً فى صوفية وعبادة ، وطوراً فى عبث ولهو ، فيشرب الشاعر من هذه المنابع الجميلة وينتظم قصيده ، ويسرى نشيده .

كان ذلك منذ درج الشعر قديماً فى ربوع الاقليم فشرب «حسّان» قرب بردى ، واستمتع غيره بظلال الشجر ، وتغنى البحترى فوصف البركة والماء ، وعاش « الصنوبرى » فخلّف ديواناً كبيراً فى وصف الرياض وحديث الأزهار ، لذلك كان وصف الطبيعة الميتة من أهم موضوعات الشعراء فى هذا الإقليم ، تعاقب على الاجادة فيه شعراؤنا القدماء فخلقوا وأبدعوا غالباً ، مقلّدين أو مبتكرين ، فما يحتاجون إلى أقنية فينيسيا (البندقية) أو شطئان السين للتغنى بجمال الطبيعة ووصفها .

ولقد عرف شعراء الاقليم أن أجدادهم من الشعراء سلكوا الطريق قبلهم إلى وصف هذه المفاتن فساروا على سبيلهم . تغنى الصنوبرى باقليم الشام فقال :

إن كان فى الصيف ريحان وفاكهة   فالأرض مستوقد والجو تنور
وإن يكن فى الخريف المحل مخترقا   فالأرض محصورة والجو مأسور
وإن يكن فى السماء الغيم متصلا   فالأرض عريانة والجو مقرور
ما الدهر إلا الربيع المستنير إذا   جاء الربيع اتاك النوّر والنور

فالأرض ياقوتة والجو لؤلؤة والنبت فيروزج والماء بلور
لا تعدم الأرض كأساً من سحائبه فالنبت ضربان سكران ومخمور

وبذلك صنع ألواحا للفصول رسم فيها الأرض والسماء والجو ، ووصف فيها الزهر واختلاف النور والظلال ، وتبدل الألوان فى السماء مما لا يقع فى كثير من الأقاليم ، والأرض تلبس ثياباً مختلفة فى الفصول ، زاهية حينا باهتة حينا آخر .

وقديماً أعجب البحترى ابن « منبج » بهذا الاقليم وفضله على غيره جمالا وفتنة فقال :

عنيت بشرق الأرض قدماً وغربها أطوف فى آفاقهـــا وأسيرها
فلم أر مثل الشام دار إقامة لراح أغاديها وكأس أديرها
مصحة أبدان ونزهة أعين ولهو نفوس دائم وسرورها
مقدسة جاد الربيـــع بلادها ففى كل أرض روضة وغديرها

وأقام البحترى فى دمشق فرسم ألواحا كذلك لجمالها وفتنة قراها فقال :

يميس السحاب على أجبالها فرقاً ويصبح النبت فى صحرائها بدداً
فلست تبصر إلا وا كفاً خضلا أو يانعاً خضراً أو طائراً غرداً

وقال الصنوبرى فى تفضيل دمشق على الدنيا :

صفت دنيا دمشق لمصطفيها فلست أريد غير دمشق دنيا

وفضلها شعراء بعده على أقاليم الأرض بعدما طوفوا فى جنبات الدنيا ، وتغنوا بسحرها وجمالها ، كما قدسوا مبانيها وجامعها فقال ابن الفقيه العراقى :

وجامعها ماله مشبـــه بشرق البلاد ولا المغرب

وقال الشاعر عبد المحسن الصورى يصفها :

بلد ساكنوه قد جعلوا الجنـ ـة قبل الحساب دار مقام
ألبستها الأيام رونق حسن ليس يفنى ولا مع الأيام

وقال ابن سعد الحموى :

ما بعد « جلق » فى البسيطة دار تجرى خلال قصورها الأنهار
دار تلذ بها النفوس وتجتنى من حسنها ثمر النهى الأبصار

فنى كل دار من دورها ماء تجرى وتغنى ليلها ونهارها فلا تـكاد تفارق الدار موسيقاها الجميلة ، كأن الساكن فى بستان أبداً أو كأنه يسمع فى بيته موسيقا دائمة الترجيع حلوة الرنين ، تتغنى الأطيار على الأشجار وتضحك الأزهار للسمار إذا أشرق القمر واختالت الطبيعة فى عرس لا يشبهه إلا عرس الجنان المقيمة الخالدة . بل لـكأن دمشق كلها فى بستان يحيط بها فالغوطة والشرف الأعلى والنيربان والربوة ، والأنهار تتلوى راقصة مزغردة كأنها تجرى عابسة على بساط من سندس أو على قطع من الأرض مختلفة الألوان والأشكال والظلال .

وهذه الطبيعة الجميلة أوحت إلى سكانها من الشعراء وغير سكانها أن يستلهموا من جمالها صوراً ممتعة مرقصة مطربة ، يفد إليها شعراء الـكنانة والعراق فيجدون عندها الفتنة والروعة فتوحى إليهم بأمتع مارأوا وأعذب ما قالوا . وأوصاف بردى فى شعر شوقى لا تـكاد تجد لها قريناً فى ديوانه ، وذلك كله إلى فضل الجمال فى الشمال ، وعظمة مشاهده . ولذلك كثر هذا اللون فى شعر أهل هـذا الاقليم وأصبح باباً من أبواب دواوينهم ، لا يكاد يخلو منه ديوان ، بل يكاد يكون ميزة الشاعر فى الاقليم .

وذلك شبيه بما وقع لشعراء الأندلس فقد وقعوا على الرياض والغياض

فغصت دواوينهم بروائع الوصف فى الطبيعة الميتة ورسموا الأنهار والجبال والوديان والبرك .

ولسنا فى صدد شعر الطبيعة فحسب ، ولسنا فى تفضيل هـــذا الاقليم على غيره اعتزازاً وفخراً ، وإنما نسوق إلى القراء تياراً من تيارات الأدب فى وصف الطبيعة نحبّ أن نعزز له الشواهد وأن نمهد لأسباب القول فيه ، وأن نقرر سبب عكوف الشعراء على هذا اللون وإلحاحهم عليه حتى غدا من مميزات هذا الأدب ومن خصائصه وأغراضه وأهدافه فى هذا الاقليم .

ولهذا كنا نقول إن اختلاف المشاهد الطبيعية خلال الفصول بعث ألواناً كثيرة فى نشاط الشعر وفى إلهامه ، وأوقد النشاط فى الخيال والتفكير فعاج الشاعر إلى قلبه حيناً يتغنى بحبه على قيثار المشاهد ، وعاج إلى عقله أحياناً يرتل صور الإيمان بالخالق وإبداعه وبالكون وجماله فبرز الشعر التأملى من خلال نماذج الشعر فى الاقليم . وهذا الشعر وهذا الشعر يطيران على أجنحة من ألفاظ موشاة متمنمة غالباً أخذت ألوانها من الطبيعة وجرسها من غناء الشجر وترتيل الطير وخرير الماء ، فكان الشعر فى الاقليم موسيقى اللفظ مجنح العبارة — إذا صح التعبير — معطر الأسلوب ، كأنه يجمع فى برديه ما يتمتع به النظر والسمع والشم جميعاً .

* * *

شعر النضال :

وأهل الاقليم يعتقدون بأن بلادهم مباركة جميلة وأن مدنهم كانت منذ القديم موضع الإعجاب والسحر ، وأن كثيراً من الأقوال المأثورة تشهد بأنها من الجنان أو أنها الجنة ، فهى مباركة بالأنبياء الذين سكنوها ، والمعارك المقدسة التى كانت فيها ، والشهداء الذين دفنوا بين جنباتها فعطروا الثرى

وخلدوا الأرض ، وهذه الموضوعات كانت تدفع الشعراء فى الإقليم إلى كثير من الاعتزاز والفخر بقصائدهم فى وصف بلادهم .

وأكثر الفخر فى شعر هؤلاء الشعراء كان لتاريخ هذا الإقليم ، فقد درجت عليه أمجاد ومفاخر ، تركت فيه آثاراً ما تزال قائمة كالقلاع والحصون والمساجد، فعهد بنى أمية الزاهر وعروبة الخلفاء ومآثرهم ، وعهد الحمدانيين ووقوفهم أمام الروم وأعمالهم ، وعهدصلاح الدين الأيوبى وهجماته ضد الصليبيين وانتزاعه أرض فلسطين من الفرنج والمستعمرين ، وعهد الأتراك الأخير وما كان فيه من ضحايا النفى والتعذيب والتشريد والشنق والظلم ،كل هذه العهود كانت حافزاً من حوافز الشعر فى العصر الحديث ، فقد عاش أكثر الشعراء المعاصرين مع صفحات الماضى لانعاش الحاضر واستنهاض الهمم وبناء مستقبل مجيد شبيه بالماضى فى عزته وفخاره ، لذلك كان من عوامل الشعر واتجاهاته شعر الحماسة والقوة والفخر ، يكاد ينافس شعر الطبيعة فى عدده وفى ألوانه .

ولعل فى تاريخ الإقليم السياسى سبباً من أسباب هذه المفاخر ، فقد أقبل الغزاة من الشمال عن سبيل الروم البزنطيين والأوربيين الغازين ، وهجم الغزاة من الشرق عن سبيل المغول ، وهجم المستعمرون من الأوربيين عن سبيل البحر ولبنان من الغرب ، كما تصدى فى الأزمنة الأخيرة قوم من شذاذ الآفاق يهجمون ويتحرشون فى الليالى المظلمة كالخفافيش ، وكل هذه الهجمات صورها شعراء الإقليم فكانت موضوعاً من موضوعات الشعر الحديث ، أشبه بالملاحم فى كثير من الأحيان

فالمثقفون يعرفون أن الفخر بالعروبة ابتدأ منذ القديم ومنذ وفد العربى من الجزيرة إلى هذا الإقليم ، وجد فيه إخوانا وأقارب ، ينعم بلقائهم ويسعد بضيافتهم ، وقديما وصل حسان بن ثابت إلى بردى وجلق فأنشد عروبة السكان وكرم العرب قائلا :

يسقون من ورد « البريص » عليهم بردى يصفق بالرحيل السلسل
أولاد « جفنة » حول قبر أبيهم قبر « ابن مارية » الكريم المفضل

وتغنى المتنبي بعروبته وهو يحسّ أن الروم يقصدون العرب كقومية ولا يقصدونهم كاقليم أو قطر ، فلما سافر فى فارس أحسّ أنه الفتى العربى غريب الوجه واليد واللسان .

وتقلبت العصور وما تزال أمجاد العرب هى الدافعة إلى الفخر والنضال والحماسة ، حتى فى ظلمات القرن التاسع عشر ، حين صاح إبراهيم اليازجى منبهاً أهل الإقليم إلى اليقظة والاعتزاز بماضيهم فقال :

ألستم من سطوا فى الأرض واقتحموا شرقاً وغرباً وعزّوا أينما ذهبوا
فما لكم ويحكم أصبحتم هملا ووجه عزكم بالهون منتقب

واليازجى نفسه يعتمد على الماضى وما كان للعرب فيه من صولة ودولة وعلم وحضارة فقال :

لقد ذكر الزمان لكم عهوداً مضت قدماً فلم يضع الذمامُ
مجالس للعلوم غدت مناراً به لغياهب الجهل انصرام
جلاها كل أبلج أريحىّ تقرّ له البلاغة والكلام
وما العرب الكرام سوى نصال لها فى أجفن العليا مقام
لعمرك نحن مصدر كل فضل وعن آثارنا أخذ الأنام
ونحن أولو المآثر من قديم وإن جحدت مآثرنا اللئام (١)

فقد كان العرب مصدر الكرم والحضارة والعز أقاموا لهم فى كل مكان صرحاً من صروح المفاخر ، يشهد بفضلهم وينطق بأمجادهم على الزمان . وهذا الشعر الحماسي أطلقه صاحبه ليوقظ شعور قومه العرب ، فهم أصحاب

(١) الآداب العربيه فى القرن التاسع عشر ، ج ٢ ص ٣٧ .

الديار ، وهم من سلالة أولئك الأماجد ، سجل آباؤهم من أمية وعبد شمس صفحات ناصعة يجب أن يعود الأبناء إلى مثلها فى عصرهم ، فكيف يرضى أبناء أمية فى هذا الإقليم بهذا الذى صاروا إليه ، إن العرب لا يقبلون الخزى ، وإن سكان هذه البلاد قاسوا خلال التاريخ أعنف الأزمات ولكنهم خرجوا منها بأشرف حال رافعى الرأس .

وهذا دليل قولنا على أن شعراءنا اعتمدوا على الماضى فى نهضة قومهم فذكروا أهليهم بالنضال والقتال والثورات التى كان مسرحها هذه الأرض نفسها . إن سكان الإقليم فتحوا أعينهم على المآسى فى عهد الأتراك ، وبلادهم أقرب الأقاليم جواراً واختلاطا بالأتراك ، فلم يكن بينها وبينهم حدود أو سدود ، وإنما كانت مدن وقرى كثيرة تعد من صلب هذا الاقليم مثل عينتاب ومرعش وبرجك وأورفه واسكندرونة وأنطاكية ، كان الكلام يجرى فيها بالعربية والتركية جميعاً ، وكان الزواج يقع فى أكثر البيوت الشمالية ، والانتقال من بلد إلى بلد ، بينما سهل هذا الاختلاط ، حتى سرت التركية فى الشمال بالجزيرة وحلب وولايتها .

ولكن هذا القرب لم ينس الاقليم عروبته وأصالته على رغم الصلات الدينية ، فقد شعر أهل الإقليم باضطهاد الأتراك واستئثارهم فى الحكم ، واحتقارهم للعرب ، وميلهم إلى قتل اللغة العربية وطمس مآثر العرب ، وقام فيهم زعماء وقفوا للحكم الحميدى ، وكتبوا فى بشاعة صوره ووصفوا لقومهم ما كان من الاستبداد والظلم وقتل الحريات وفساد النظام وفشو الرشوات ووقوف الجاسوسية بكل باب ، وخنق الاقلام ، وأشهر الأمثلة على ذلك كتابات الزعيم عبد الرحمن الكواكبى (١) الحلبى .

ومنذ شعر العرب بحكم الأتراك الثقيل ، نهض الشعر إلى أداء رسالته

---

(١) أنظر الكتاب الذى أنشأناه فى رسم حياته وآرائه ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٦ .

فى التغنى بالعربية والعروبة ، وزاده إيماناً بهما ما كان يتسرب إليه على رغم الرقابة من حال الأمم الغربية وثوراتها فى سبيل الحرية وفى سبيل دعم قومياتها ، فقد كان لبنان نافذة عظيمة يطل منها الاقليم على البحر وعلى الغرب معاً ، بل كان لبنان نفسه موطناً للفكر الرفيع ، تصل إليه الارساليات الأجنبية وتستقر فيه وتحمل إليه الآراء الجديدة فى الغرب ، وتعكف فيه على اللغة العربية ، تدرسها وتعمل لها ، وتتغنى بها ، فكان الشعر فى منابرها وصحفها ، يصل إلى أسماع الاقليم . فتحبه كل الحب ، وتحفظه وتقلده .

وهذا الحكم التركى نفسه اضطر كثيرين من أبناء الاقليم إلى أن يهجروا سعياً وراء الرزق والحرية إلى أمريكا بقسميها وإلى أرض الكنانة . وهنا انطلق الشعر فى تمجيد الحرية ، وترددت أصداؤه فى الاقليم ، وراح الشعراء يأخذون من ألوانه ومعانيه ، فكانت ثورة فى المبانى ووثبة فى المعانى ويبدو أن هذا التضييق فجر ينابيع الشعر فى البلاد ودفع الشعراء إلى الانشاد . وكان فتح جديد فى القوالب الشعرية وفى الأغراض والأهداف .

ولن يخلو شاعر معاصر لهذه الأحداث من وصف الظلم الذى صبه الاتراك على العرب ، ومن سعى إلى الحرية وعكوف على العربية وتمسك بالعروبة ، لذلك كان التيار الجارف فى تمجيد القومية العربية أقوى التيارات فى الشعر الحديث لهذا الإقليم . ولم يكن من سبيل إلى غير هذا فقد تعبت حناجر الشعراء فى البدء من التغنى بوحدة الأتراك والعرب على صعيد الدين ، كما كان شعراء الكنانة يفعلون ، وأحس الشعراء أن الأتراك انحرفوا عن العروبة وانحرفوا عن الدين نفسه ، حتى غدا أكبر المنادين بحبهم أشد النقمة عليهم ، لأنهم اتخذوا الدين سلاحاً فى السياسة ليس غير لكسب العرب تحت رعايتهم . فلما خرج الكماليون مقهورين فى الحزب اتخذوا العلمانية والميل إلى أوربة ديناً ينفعهم فى كسب حلفائهم الجدد إلى تقوية دولتهم المتفسخة المتناثرة .

لذلك يصح أن نقول إن أقوى ما امتاز به شعراء الإقليم هو المناداة بالقومية العربية على أشكال مختلفة ظلت تتبلور حتى وضح طابعها القوى ، تعيش بجناحين قويين ، هو تراث العرب الفكرى وأمل العرب القومى ، فاجتمع الماضى المجيد بالمستقبل الباسم .

وكانت الأحداث التى مرت بالإقليم كافية لتغذية هذه الألوان من الشعر القومى ، فقد اشتد الظلم على العرب وقوى غدر الأتراك بهم ، وقضى كثير من رجالهم فى لجج البوسفور حتى صاح الشاعر الحمصى أمين الجندى (المتوفى سنة ١٨٤١) يشكو جور الأتراك :

هذا ولما فاض جور الترك فى ... ظلم العباد وصار أمر مشكلا
وتظاهرت أعمـــالهم بمقاصد ... ومظالم وحوادث لن تقبلا
سلبوا البلاد من العباد فلا ترى ... فى حكمهم ذا نعمة متمولا

وهذا الشعر ضعيف النسج خائر العزم ، لكنه شديد المرارة من ظلم الأتراك فى السلب والجور ، وقد تحول إلى شماتة على لسان رزق الله حسون الحلبي (المتوفى سنة ١٨٨٠ م) بعد أن استولى الروس على ممتلكات الأتراك فى القارص والباطوم :

علم الروس يخفق اليوم فوق الـ ... قرص وولى الأتراك فى الغابرينا
هكذا هكذا تدور على البا ... غى الليـــالى ويهلك المجرمونا
ما عليهم لو عاملونا بحسنى ... وتساو أو أنهم أنصفـــونا

وسبب هذه الشماتة ما أحس الشاعر من ظلم الدولة لقومه وبعدهم عن الانصاف والمساواة ، فاستعمل لهجة المتنبي فى الفرح والمفاخر لندب الأتراك والفرح لانكسارهم .

فلما سقط السلطان عبد الحميد فرح الاقليم بنزول كابوسه واستبشر خيراً بالعدالة المرجوة ، وصاح فارس الخورى :

الله أكبر فالظلام قد علموا لأى منقلب يفضى الألى ظلموا
أين الغطاريف أرباب العزائم من أسلافك الصيد من بالعدل قد نظموا
شادوا لك العزة القعساء من قدم فجئت تهدم ما شادوا وما رسموا
كانت لهم دولة بالسيف ناهضة وفى زمانك لا سيف ولا قلم
حصدت ما زرعوا فرقتَ ماجمعوا هدمتَ ما رفعوا بعثرتَ ما نظموا
هبطتَ من قمة الأمجاد منحدراً كصخرة حطّها من شاهق عرم

فانتقم الرجل للأيام السوداء التى مرت بها الولايات العثمانية وفيها هـذا الاقليم ، وظن أن الخير سيكون على يد الدستور ، ولـكن هذا الظن قد خاب ، وخبا التفاؤل بالخير ، وعادت البلاد إلى الرشوة والظلم على يد الذين خلفوه فى تسيير أمر البلاد فنهض فارس الخورى ثانية ليقول :

وسوق الزور رائجة وفيها يباع الحق بالثمن القليـل
لقد حلفوا اليمين وأحرجوها على الإخلاص والحزم الأصيل
ألا سرعان ما حنثوا ومانوا وعادوا للخيانة والخمـول
ومدّوا للرشا كـفّا خسيسا وباعوا بالنضار دم القتيل

فأفصح عن النـكسة التى أصابت أهل الإقليم خاصة ، بعودة الفساد والرشوة والزور والظلم إلى هذه البلاد . فـكأن الثورة ما نفعت وكأن عبد الحميد وعهده ما زالا قائمين فوق رؤوس الناس كالـكابوس الثقيل والسيف المصلت على الرقاب .

وأمثال هذا الشعر كان يسير فى الصدور مسير النار فى يابس العرفج فيوقظ النفوس ويثير الهمم ، ويحرك العرب إلى الثأر وإلى الاستقلال

ولكنهم كانوا بين نارين نار الأعداء الذين كانوا يتربّصون بالعرب فى كل إقليم . ويرجون انفصامهم عن الدولة العثمانية ليلتهموهم كما التهموا الشمال الإفريقى موطن الأسود من ضراغم العرب قطراً بعد قطر ، ونار أخرى هى نار الأتراك الذين ساروا فى غوايتهم ، فما كانوا يرعوون ولا كانوا يفهمون ، وإنما صبوا على الاقليم السورى نار غضبهم ونفوا الأحرار من سكانه إلى كل فج عميق ، وجعلوا جنوده وضباطه فى خط النار ، وأوكلوا بأهله ضباطهم القساة وحكامهم اللصوص ومحاكمهم المجرمة . فأصاب الإقليم ظلم وحيرة وقلق لم يكن فى عهد من العهود أشد ظلماً وعنتاً ، حتى لكأنه يتقرّب من حكم الصليبيين لبعض الرقاع السورية .

وقامت الحرب الأولى ، وخاض الأتراك غمارها إلى جانب الألمان . ووقع الإقليم فى حصار عسكرى بسطه العتاة الأتراك ، كما وقع فى شِباك المغريات السياسية التى نثرها الحلفاء ليطمعوا بها العرب وخاصة سكان هذا الاقليم . فقام بعض الأحرار بالاتصال بالحلفاء طمعاً فى الخلاص من الأتراك ، فقبض على بعضهم وسيقوا إلى المشانق فانصبَّت نقمة الشعراء السوريين على الأتراك ، وبكاهم خير الدين الزركلى بقوله[1] :

نعى نادب العرب شبانها ... فجدّد بالنعى أحزانها
بكى كل ذى عزة تربه ... فهاج نزارا وعدنانها
فمن للمدامع ألا تفيض ... وترسل كالسيل هتانها
فجائع هنّ حديث القلوب ... وهيهات تستطيع سلوانها

فأعاد إلينا عزة العرب وحرّك الشهامة فى الصدور ، ورثى للسادة من نزار وعدنان وأشار إلى هذا الظلم بعد العز الذى وقعوا فيه عصورا طويلة .

(١) ديوان الزركلى ، ٦٥ .

وقام محمد البزم يرثى الشهداء كذلك كما تحرك خليل مردم بقوافيه فى إثارة الهمم .

وإذا شئنا أن نعرف ما أصاب أهل الاقليم من ظلم وعنت نستطيع أن نقرأ شعر الزركلى فى وصف المظالم قائلا :

عتا أحفاد جنكيز فساقوا سلائل يعرب سوق العبيد
هم عقدوا العهود على ولاء وهم عمدوا إلى نقض العهود
فكم قتلوا من الأحياء صبراً وكم ساموا المهانة من عميد
وكم حملوا على الأعواد ظلماً وكم سقوا المنية من شهيد

وأصبح يوم ٦ أيار (مايو) ١٩١٦ ، يوماً قومياً فى هذا الاقليم يذكره الناس بألم فاجع وحسرة مريرة ، ولكنهم يذكرون به بدء يقظتهم ، فعلى هذه الجماجم قام صرح الثورة وقامت الحرية وظهر الاستقلال .

فقد انكسر الأتراك ، ودخلت جيوش العرب بلاد الشام وجعلت من دمشق حاضرة الملك ، وعادت لهذه المدينة أيام « أمية » زاهرة ناضرة ، ترنح بالعز ، وترفع الأعلام مرفرفة فوق بردى ، فكأن معاوية والوليد وكأن عبد الملك ابن مروان قد عادوا من جديد لجمع شمل العرب وعزة الأمجاد وعودة المفاخر . وفرح شعراء الاقليم بهذا النصر فقال محمد الفراتى يخاطب الحسين[1] .

كوكب فى الحجاز لاح سناه فاستنارت له دمشق الشام
فزكا نبتها وطاب ثراها وانجلى يوم ذاك عنها القتام
ما أعرت الفراش جنبيك حتى رفرفت فى ربوعها الأعلام

ولكن هذه الفرحة لم تتم حتى نقض الحلفاء العهد ، وتآمروا فى الغرب ، فتوزعوا أقاليم العرب فيما بينهم كأنها تركة موروثة وكأن العرب حين مدوا

---

(١) ديوان الفراتى ص ٤٨ .

أيديهم بالوفاء للحلفاء . مدوها إلى تماثيل الخيانة والغدر فعادت أيديهم خلواً من كل ظفر ، صفراً من كل أمل ، وأصبح الاقليم السورى مراداً لجيوش الفرنسيين يرتع فيها طغاتهم ظلماً وعدوانا ، يجولون ويصولون بسلاحهم العتيق من فلول المدارك الألمانية ، جبناء فى المعركة الغربية أسود فى مدن الاقليم المسالمة ، يملئونها غدراً . فصاح الزركلى يصور هجوم الفرنسيين :

الطائرات محومات حـــولها والزاحفات صراعهن شديد
ولقد شـــهدت جموعها وثابة لو كان يدفع بالصدور حديد

ويقول فى قصيدته المشهورة :

شر البلية والبـــلايا جمة أن يستبيح حمى الكرام عبيد

ونهض الاقليم من ولاية الأتراك ليسقط فى براثن الفرنسيين ويشرب من سخف جديد بعد أن شبع من سخف قديم ، ولكنه كان يعرف هذه البلايا فى تاريخه القديم ، لأنه عاشها دائما بين كر وفر يهجم الروم فيصد الروم ، ويهجم المغول والفرنجة فيقاتل المغول والفرنجة . لا يبالى بالبيوت المتهدمة والأجساد المتساقطة . وشعراؤه فى الطليعة يبثون الحماسة والقوة ويرسلون القصيد تلو القصيد فى النهوض إلى المعركة والوقوف أمام الأعداء . فسقط الشهداء . وارتوى التراب المقدس من دمائهم وتناثرت قبورهم فى كل رابية أعلاما تنير الطريق للجهاد وصوى تهدى السبيل لكل نضال ، فقام خليل مردم يرثى يوسف العظمة بطل ميسلون وقد وقف فى قلة من الجيش العربى أمام جحافل الفرنسيين :

أيوسف والضحايا اليوم كثر ليهنك كنت أول من بناها
زكا نبت البـــلاد وليس بدعا زكيات الدما كانت خباها
فديتك قائدا حيًا وميتـــا رفعت لكل مكرمة صواها

غضبت لأمـــة منها معدّ فأرضيت العروبة والإلها
فيالك راقدا نبهت شـــعبا وأيقظت النواظر من كراها

وهذا الوعى العظيم فى شعر القومية والضحايا لا يبلغ إليه وعى مهما سما ، وذلك لأن الشعراء كانوا فى مستوى المعركة ثقفوها عن التاريخ الماضى ، وجبلت نفوسهم على هديها ، فما هزهم الموت إلا ليهبوا ، وما روعهم الفقد إلا ليستيقظوا فجعلوا الشهداء منائر للجيل ، ورسموها شعلا فى ظلمات الحكم الفرنسى ، حيث تجلت سخرية المستعمر ، وقذارة الظالم ، وعدوان الإنسان ابن الغابة على الإنسان .

وظل الشعراء يذكون الحماسة ويوقدون نار العروبة والقومية حتى آتى النضال أكله . واستقلت البلاد وطرد عنها آخر جندى مستعمر . فكان للشعراء فضل فى المعركة كفضل الجندى سواء بسواء ، ذاك فى الخطوط الأولى أمام النار وهذا فى الخطوط الثانية يذكى النار . وكانت نار الاقليم السورى أقوى فى الصراع وأشـــد فى البطولة لأنها نار الحق والكرامة فأحرقت كل نار وأسكتت كل باطل .

وذلك هو الشعر الحماسى الذى عاش فى الاقليم منـذ تيقظ العرب فيه خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر حتى استكمل النصف الأول من القرن العشرين دورته ، وعمت الحرية فى الاقليم ، فنهض شعراؤه لحرية العرب فى كل اقليم يحملون لواء الجهاد والنضال لتحرير إخوانهم فى كل مكان ، فاشتهر هذا اللون من الشعر على كل لسان ، وتعلمه كل شاعر . ودرسه كل طالب فى الاقليم . وترنمت به الألسن الصغيرة . ورددته الصدور الكبيرة مع الزفرات والذكريات الأليمة .

* * *

الشعر الإنسانى والاجتماعى

وإلى جانب الشعر الجميل فى وصف الطبيعة والشعر الضخم فى النضال والجهاد الحماسى قام لون آخر من الشعر فى هذا الاقليم هو الشعر الاجتماعى والإنسانى[1] . فقد تأثر الاقليم السورى بحكم موقعه الطبيعى بالتيارات الحضارية . ودب فيه الوعى الاجتماعى قبل غيره لانفتاحه على البحر وجواره للبنان — كما قلنا فى فاتحة الفصل — ولإتصال أبنائه بالغرب عن سبيل الرحلة والهجرة والثقافة والارساليات الأجنبية .

ومنذ منتصف القرن الماضى أنشأ الأجانب فى بلاد الشام مدارس أجنبية . فتقدمت المدارس . وازدهرت الصحافة . وقامت الطباعة . وانتشر العلم . وظهرت صيحات التجديد . وتسامع الناس بنداءات الاصلاح الاجتماعى فى البيت والشارع . عند المرأة والرجل وتسرب إلى البلاد أثر الثورات الاجتماعية التى صرعت الاقطاع وأقضت مضاجع الاستبداد . ولفتت إلى الحالة الاقتصادية ونوهت بحال البائس الفقير المعدم ووازنت بينه وبين حال المثرى الغنى المتخم . وسرى فى الربوع ريح الحقوق الإنسانية والحرية الفردية .

ونهض الشعراء فى الإقليم لوصف مشاهد هذه الحياة فرسموا الفقير البائس يتضور جوعاً ، والمرأة المتداعية فريسة الأخلاق وضحية الاستهتار ، وعرضوا للود والوفاء والتآخى والمساواة ، وصوروا المراقص والموسيقا مما دخل حياتنا الجديدة ، فأبدع خليل مردم فى ألوانه حين قال :

---

(١) من الوفاء للعلم أن نذكر هنا المصدر الذى ارتوينا منه فى المختارات وفى سداد الآراء وهو كتاب « الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث للاستاذ أنيس الخورى المقدسى » فهو يتحدث عن الأدب العربى المعاصر فى أقطاره . أما كتاب الدكتور جميل صليبا وعنوانه « الاتجاهات الفكرية فى الأدب العربى الحديث لسورية » فهو من أمتع ماقرأنا تحليلا ووفاء وعمقاً واصالة .

كل إلفين انضوى شملهما أقبلا فاعتنقا أىّ اعتناق
لو صببت المـــاء ما بينهما لم يكد يخلص من فرط اعتلاق
علقت كف بكف منهما شركا واختلفت ساق وساق
ودنا الخدان من بعضهما حينما الجيدان هما بالتلاق
وعلى الأنغام كانت لهما خطوات باتزان واتساق

فكأنه ينقل إلينا صورة حية من هذا اللون الغربى الجديد الذى غزا الحفلات الخاصة ، ودخل المجتمع المترف ، وعشش داخل جدران المراقص العامة .

ودعت هذه الحياة الاجتماعية إلى التأمل فى الحياة نفسها . والنظر إلى غايتها وأهدافها . فى تأمل فلسفى وتشكك عقلى . فرسم الشعراء ألوانا جديدة فى إشراقة الشمس ومغيبها . ومد البحر وجزره . وسكين الجزار فوق الضحية . وروابط الأسرة . ومخترعات الحضارة من طيارة وسيارة . . فقال عمر أبو ريشة يصف رجلا أخرس فقد النطق وصفاً إنسانياً عالمياً يقول :

رفع الرأس للسماء وصلىّ بدموع ترجرجت فى هدبه
بين شـــدقيه مضغة عقلتها يوم ميلاده أنامل ربه
جرّدت عن لسانه لذة النطق وبثت أعجازه فى قلبـــه
فاذا حبه يصول عليـــه وإذا بؤســـه يعيث بحبه

ولعلّ هذه الرحمة التى انطلقت من فم الشاعر حنانا لبؤس الرجل قد سكبت على الصورة توفيقاً إنسانياً ما كان يقع من قبل أن يرتفع الشاعر إلى مرتبة الإنسان المثالى . يعطف على ألم غيره ويأسى لجراح الإنسان . وذلك بفضل الحضارة الإنسانية التى غزت قلب الشعراء فى الاقليم بعد أن ردت إليهم تلك الروح الحضارية القديمة التى غابت عنهم حينا مع ظلمات الأجيال ثم عادت بعد أن تفتح الشعر من جديد على النور وأبصر هذه المآسى بقلبه وروحه .

وهذا الحنان والتسامى بلغ ببعض الشعراء إلى أن يرتفعوا إلى المثل الإنسانى الكامل . فأشفقوا وتسامحوا . حتى ما نسمع بمثل تسامحهم وتساميهم فقال بدوى الجبل :

تأبى الشماتة فى الضعيف شمائلى   وتعف عن شلو الجراح صفاحى
وأنا الذى وسع الهموم حنانه   وبكى لكل معذب ملتـــاح
أشقى لمن حملوا الشقاء كأنما   أتراح كل أخى هوى أتراحى
غسل الأسى قلبى وحسبك بالأسى   من غاسل حقد القلوب وماحى
ووددت حين هوى جناح حمامة   لو حلقت من خافقى بجنـاح
حبٌ قد انتظم الوجود بأسره   أسد الشرى وحمامة الأدواح

وما نعرف للشعر المعاصر أثرا فى القلب ندّياً وحباً للإنسان وفيّاً كهذا الشعر الذى درج فى الاقليم . ومال إليه هؤلاء الشعراء الإنسانيون فبلغت الحضارة شغاف قلوبهم وهذبتهم المثل العليا التى أشرفوا منها على الحنان والتسامى فى أعلى مراتبهما .

وخلاصة القول فقد ارتفع الشعراء فى هذا العصر إلى مستوى أندادهم فى الشعر العالمى فكتبوا من رائع النظم وساحر القول ما يدفع إلى الزهو والاعتزاز .

ونحن لا نريد أن نوغل فى ضرب الأمثلة وأن نبعد فى التحليل . فما جعلنا هذه الصفحات فى بدء الأحاديث إلا تمهيداً لوصف الشعر فى الاقليم والحديث عن الشعراء فيه . والتمهيد لايفى بالعمق والكمال . وإنما هو باب إلى الدخول فى الموضوع الذى أنشأنا له هذه المحاضرات . ولقد أردنا قبل أن نعرض لكل شاعر على حدة أن نصف الطابع العام والأثر الذى قاد إلى ما نتحدث عنه من توفيق أو من فشل عند الشعراء المعاصرين .

القسم الأول

محمد البزم

١٨٨٧ – ١٩٥٥

محمد البزم

١٨٨٧ — ١٩٥٥

كتب الشاعر محمد البزم بخطه [1] : « انحدرت إلى هذا العالم المنحوس أواخر عام ١٣٠٦ ﻫ الموافق لسنة ١٨٨٧ م . فى دمشق ، أما أصلى فقد هبط أحد أجدادنا جلق منذ مئتى سنة أو أكثر جاليا عن العراق لأسباب غم على وجه التحقيق فيها . وإن صح أن للإنسان نزوعا إلى وطنه لغير السبب الذى ذكره باقعة الشعراء أبو الحسين على بن الرومى فى قوله :

وحبب أوطان الرجال إليهم   مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم   عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

فإن ما أجده من الصبوة والحنين إلى العراق غير بدع ولا من الغرابة فى شىء ، وإلى هذا أشرت بقولى من قصيدة :

جلق منبت جسمى وعلى   دجلة محتد قومى الغابرين
وإلى بغداد مهوى النفس لى   أنة تنتابنى حينا فحين

وكان والدى محمود بن محمد بن سليم البزم يحترف التجارة من نوع « مانيفانورة » وعليها شببت أنا ، وقد هجرتها منذ عشر سنوات وإلى الآن لم أشتغل بعمل ما . . .

« قاربت سنى العشرين وأنا لا أعلم من القراءة إلا بعض سور قصار من القرآن ونزراً من الآى التى يكثر جريها على الألسنة مما لقنته عند (الخوجة) معلمة الأطفال ، ومن أفواه الناس ، وقد كتب لى مرة أن أصحب عمى فى بعض أسفاره إلى بيروت وعند أوبتنا هبطنا بلدة الزبدانى إحدى أمهات

---

(١) تفضل الأستاذ الأديب محمود الجبان تلميذ البزم فأبلغنا إلى ما نريد من وثائق الشاعر وديوانه المخطوط وعرفنا إلى ابنه حسان مشكوراً فوفى للشاعر الفقيد وأسدى إلى النقد يدا مبرورة .

القرى فى غربى دمشق فرأى عمى فى يد أحد سائحى الدراويش المجلد الثانى من كتاب المستطرف ، للأبشيهى ، فشراه بثمن بخس على غير عادة منه باقتناء الكتب فكان أول كتاب عرفته غير أقاصيص وسير كنا نسمر بها ليالى الشتاء ، بل كان باكورة عدتى الأدبية لانكبابى والحاحى عليه بالمطالعة والتكرار ، وإن لم أكن أفقه مما أقرأ إلا قليلا .

وبقى هذا شأنى لا أطيق من الكتابة إلا طائفة من أسماء الأعلام ، أقلد برسمها خط القرآن والكتب المطبوعة حتى أتيح لى أن دخلت مرة مع صديق لى المكتبة الظاهرية ،فأخذت أنظر فى شتى الكتب من أدب واجتماع وتاريخ وفنون فانتبهت إذ ذاك لضرورة درس العربية وفنونها . وطفقت أنا والصديق خير الدين الزركلى ننتاب حلقات شيوخ الفيحاء وعلمائها . وكلما أنسنا قلة الفائدة عند واحد صرفنا همنا إلى غيره حتى قذفتنا الهداية إلى العلامة المتفنن الشاعر الأستاذ السيد عبد القادر بدران [1] . فقرأنا عليه فى عدة شهور شيئاً من ديوان المتنبى ، ونحوا من مغنى اللبيب لابن هشام . وصدرا من دلائل الاعجاز لفحل البلاغة عبد القاهر الجرجانى وكتبا فى الأصول ، ثم لم نلبث أن اتصلنا بنابغة علماء دمشق وأحد أفذاذها المشهورين الأستاذ المحقق والأديب الرقيق السيد جمال الدين القاسمى [2] فقرأنا عليه كتباً فى العربية والبلاغة والمنطق ، وكان قد نزل فى غضون ذلك دمشق أحد علماء تونس المفوه اللسن السيد صالح التونسى ، فقرأنا عليه كتباً فى علمى الكلام والمنطق ، وأخرى فى العربية والأصول . ثم انصرفت إلى المطالعة بنفسى حتى كان عام ١٩١٣ ، فانتدبنى الأستاذ السيد كامل القصاب مدرساً لفنون البلاغة والإنشاء فى مدرسة العثمانية ساعات فى الأسبوع ،فلم أزل كذلك حتى دهم الناس بنشوب الحرب . »

---

(١) ترجم له الأستاذ خير الدين الزركلى فى قاموسه الأعلام ١٦٣/٤ وقال أنه توفى سنة ١٩٢٧ ، وله كتب ودواوين خطب وشعر كثير ومؤلفات تاريخية .

(٢) ترجم له الأستاذ خير الدين الزركلى فى الأعلام ١٣١/٢ ، وذكر مؤلفاته ، عاش ١٨٦٦ ــ ١٩١٤ ، وكان إمام الشام فى عصره ، وسيصدر ابنه الأستاذ ظافر القاسمى كتابا من تصانيفه يوشحه بترجمة مفصلة عنه ، وأهل مكة أدرى بشعابها .

إلى هنا نقف قليلا عن نقل عبارة الشاعر فى الحديث عن ولادته ونشأته لنضيف إليها مانعرف وما ننقل ، فقد ذكر أحد الأدباء أن الشاعر قطن منذ القديم فى حى السمانة ، أحد فروع سوق ساروجة الكبير ، وفى هذا الحى ترعرع ، وهو حى قديم عرف بتشعب مسالكه وأزقته وفيه تعلم على إمرأة « خوجة » كما كان الحال لذلك الزمان فأخذ بتعلم القرآن وحفظ بعض آيه ، وتقليد رسمه وخطه ، فقد كان العدة والآلة والسبيل إلى تعلم العربية وتفقهها ، وكان هذا الرسم الضئيل والقراءة الضعيفة هى كل زاده قبل أن يبلغ العشرين ونلاحظ أنه وقع على شيوخ البلد فى الهمة والمعرفة والعلم ؛ فأخذ علوم البلاغة والمنطق والكلام بعد العشرين من سنيه واتصل بنوابغ العصر ، فاستقر فى ذهنه ما تلقنه من علوم النحو والبلاغة فى هذه السن، وظل يتدارس هذه العلوم ويدرسها حتى أواخر أيامه ، وأصبح علما فيها وحجة فى فهمها . والعجيب أنه تعلم بعد العشرين وغدا مدرسا لفنون البلاغة والانشاء فى السادسة والعشرين كما سجل فى مذكراته ، فقد أتقن العلم خلال ست سنوات واتيح له أن يكون فيه مدرسا خلال هذه السنوات القصيرة بالمدرسة العثمانية وكانت مدرسة راقية يفد إليها الكثيرون ، ويتعلم عليها كثيرون .

ولا شك فى أن الشاب لم يكن ينصرف إلى التدريس فحسب وإنما كان يتلفت إلى القريض، فقد عرفنا عن مذكراته أنه علق بشعر المتنبي وأنه درس شعره زمناً ، فأخذ عنه المتانة والقوة والجزالة، وقلده أول الأمر كما قلد غيره من فحول الشعراء ، فهو فى ذلك كزملائه شعراء هذا الاقليم عادوا إلى الينابيع الصافية والأساليب العظيمة يعبون منها كما يستطيعون .

وقد اعترف الشاب بأن أول شعر نظمه بيتان وصف نفسه فيهما وقد أغراه أحد رفاقه على الخمر فجرع منها قليلا فإذا به يصيبه دوار يصفه بقوله :

شربت من الصهباء عشرين درهما   تخيل لى أنى صعدت إلى السماء
وصافحى المريخ والبدر قال لى: ألا عم صباحا أيها الخدن واسلما

وعلى مافى البيتين من ضعف فهما يدلان على أن الشاعر أخذ يتبع القدماء ومعانيهم فى أوائل نظمه. ويقول الشاعر فى مذكراته كذلك إنه أخذ يرمى الصحف بقصائد ومقطوعات قومية فيها حض للعرب على النهوض من اغفاءتهم والمطالبة بحقوقهم المغصوبة بيد الترك. وهو الوتر القومى الوطنى الذى ظل محمد البزم يقرعه خلال حياته ويجرى على نغمته ما عاش. وقد ذكر الشاعر أنه لقى على قصائده حظوة وتشجيعاً وتقديراً من ذوى الخبرة بالأدب والشعر.

ويبدو أنه ظل يرسل الشعر خلال هذه الفترة (١٩٠٧ — ١٩١٣) فى هذه المعانى الوطنية كما كان يرسل غيره من زملائه حتى أعلنت الحرب الأولى، وقال الرجل فى ذلك: « حتى شهر الترك النفير العام، فكمت الأفواه، واشتدت الرقبة، وأصلتت السيوف فوق أعناق الأحرار من العرب ومشت الخشية فى النفوس، ودب الذعر فى أشد القلوب وأقوى الأفئدة، ولم يعد أحد يجرؤ على القول فى جهر ولا سر لكثرة ما بث من العيون، وانتشر من الجواسيس، فكنت كلما قرضت شيئاً فيه ذكر العرب وما يقاسونه من إرهاق من الترك وخشونتهم دسسته إلى والدتى ورجوتها أن تبالغ فى إخفائه والحرص عليه حتى اجتمع لديها من ذلك طائفة صالحة. وعندما جلا الترك وطلبتها منها فتشت ولكن تفتيشها ذهب سدى، وبقى لدى من الحسرة عليها مايجده من أضاع ماقرضه فى سنين ثلاث فى ثانية واحدة ».

وهكذا أضاع الرجل شعره الأول فى مطلع الشباب بين العشرين والسادسة والعشرين وخاصة ما جمعه خلال سنواته الثلاث، فأضاع علينا فرصة عظيمة فى دراسة بواكيره ومعرفة اتجاهاته، وتحليل أغراضه. ونستطيع أن نعرف مع ذلك أنها كانت تحمل طابع الحزن والأسى، وأنها تميل إلى التشاؤم فالشاعر نفسه يقول فى مذكراته: « فقد لقيت منذ الصغر من إلحاح المصائب وولع بنات الدهر بى ما ولد فى نفسى كرها للحياة ونفرة

من أكثر أبنائها ، فلم تبد لى إلا شمطاء متنكرة ، جهمة الطلعة ، عبوس الوجه ، مكروهة للشم والتقبيل :

فمن لى بأرض رحبة لا يحلها سواى تضاهى دارة المتقارب

فهو يتمنى الهرب عن هذه الحياة والتخلص من هذه الدنيا . ويرجو الوحدة والعزلة ، لكثرة ما رأى من شرور الناس وظلم الدنيا وتواتر المصائب .

وعدا هذا التشاؤم الذى يظن معه أن الشاعر ركن إلى الكسل والتواكل والخمول وهرب من المسئوليات ، فالبزم كان يهيب بقومه إلى النضال والجهاد ضد الأتراك ، ويدعو إلى أمجاد العرب ومفاخرهم حتى شغلت هذه الدعوة أكثر شعره وضاق بها الأتراك ورأوا فيه داعياً من دعاة الاستقلال والانفصال عن العثمانيين .

فلما قامت الحرب الأولى جرفه السيل وانتظم فى سلك الجندية كاتباً فى أحد المصحات ، وسكت لسانه خلالها عن وصف تلك الحرب الضروس ، بل إننا لا نكاد نعرف من نظمه إبانها ما نثبته وما نقرؤه . فلما انتهت الحرب ودخلت جيوش الحلفاء سورية ، وهبّت آنذاك على البلاد تلك النسائم العربية ، ثارت حماسة الشاب واتقد حمية بحب العرب . وانطلق يقول من قصيدة :

جزى الله كل الخير خيلا تتابعت ترامى إلى أرض الشام صدورها
تقل رجالا من سلالة يعرب لها همم فى هامة المجد دورها
بوارق من نحو الحجاز تألقت فخلق فى جو الجزيرة نورها
نسائم هبت من جنوب ومغرب قبولا ، فلا هبت بنجس دبورها

ويقول الشاعر معقباً على هذه الأبيات : « والظاهر أن أبواب السماء

كانت موصدة برتاج لا يمكن اقتحامه دون هذه الدعوة الأخيرة فقد هبت تلك الدبور بأشد النحوس وأشأمها . وذلك أن الرجل ما كاد يفرح بنسائم الحجاز ويقر عيناً بسلالة يعرب وقد زارت خيولها أرض الشام . أجل ما كاد يفرح حتى انقلبت الأمور . واتهم بجرم سياسى وأودع السجن فقال :

لا السجن يردعه ولا أغلاله عن غاية تسمو لها آماله
مقتوه إذ نقموا عليه جلاله فسعوا به كى لا يبين جلاله

فهو منذ الشباب أحس بما كان له من جلال وكمال ونبوغ . وعرف بأن الناس يحسدونه لهذا كله . فسعوا به ليخفوا هذا الجلال . وهو ينعى على أبناء وطنه تفرقهم . وتقطع أوصالهم . وتخاذلهم . ويرى أن الجهال قد سادوا والعلماء قد اختفوا فقال :

يا أيها الوطن الذى عبثت به أبنـــاؤه فترأست جهـاله
وتناوبتـــه الحادثات فساسه فى النازلات المعميات رذاله
وتفرقت شيعا به أبنـاؤه وتخـــاذلوا فتقطعت أوصاله

ولعل الشاعر يشير إلى هذه الآراء التى اختلفت حول مصير البلاد . وتنافرت فى فرق سياسية . تريد كل فرقة أن تسير فى طريق مخالفه . فكان ذلك هم الشاعر وهم زملائه الذين عاصروه فوصفوا هذه البلبلة وهذه التفرقة . وهو لذلك يتوق إلى أن يكون فى الجزيرة العربيـة يسير فى صفوف العرب الأباة ينيخ حيث ينيخون ويغزو حين يغزون فيقول :

فلأرحلنّ إلى الجزيرة رحلة بدوية والقفر يرقص آله
ولأمضينّ عزيمة عربيـــة لا الموت يرهبنى ولا أهواله
ولأغدونّ مع الأباة بفيلق لجب تهشّ إلى الردى أبطاله
فأنيخ حيث المجد مؤتلق السنى والعز قد عم الربى هطاله
حيث الفتى العربى يمشى رافلا وتجر فى ساح العـــلى أذياله

فهو مع العروبة منذ نعومة أظفاره يحبها ويقدسها ويحيي مواكب ويستحث جيشها ويتمنى أن يغدو في جنودها . لأنها تحمل في طياتها مفاخر الآباء وأمجادهم وتتيه بالنعمى التي مرت بها خلال قرون كانت فيها مصدر النعم والعز والعلى والفخر . وهذا الشعر كما نرى قوى التركيب متين التعبير يجلجل بالصور القديمة والمعانى الضخمة . فكأنه في صدر الشعر الأموى . يثير النقع ويزجى الفيالق . ويرفل في الخير . إن دل على شيء فإنما يدل على التوفيق في التقليد والبناء والصنع والابتكار .

وشعر البزم في الواقع منذ هذه المرحلة كان يعتمد على جزالة ومتانة وفصاحة يغصّ بالمفردات العامرة والصور الضخمة . وظل كذلك طوال عمره . فقد كان يغوص على المعاجم ويرافق كتب اللغة ويصحب قواعد النحو . فلا يقع في ضعف ولا يزل في ركاكة فكأنه يعيش في القرون العربية الأولى لشدة تحمسه في حب اللغة والحفاظ عليها كتحمسه في العروبة والعمل لها .

وظل محمد البزم يتقلب في منابر التدريس حتى سلخ فيها خمساً وعشرين سنة قضى سبع عشرة منها في « التجهيز » الثانوية الأولى بدمشق [1] وكانت تحفل بكبار الأساتذة في الفروع كلها . فكأنها جامعة ذلك الزمان . وفي العربية كانت كأنها كلية الآداب لتلك الأيام ، فيها أعضاء المجمع العلمي العربي يدرسون العربية ويعنون برعايتها والحفاظ عليها . والتحدث في أدبائها ومؤلفيها . فتخرج على أيدى هذه الثانوية كبار المدرسين والأدباء وتخرج على أيدى محمد البزم جيل عظيم من المثقفين يحفظون له يده في شرح قواعد النحو ومعرفة أسرار الاعراب وإدراك غور اللغة والمفردات وتملك ناصية الفصاحة والبيان . فكان في نظرهم حجة قويمة ومصدراً كريماً وينبوعاً فياضاً . يرجعون البصر إليه في ذكرى مقدسة وإكبار عظيم .

---

(١) يبدو أنه عين أستاذا في التجهيز بعد الحرب الأولى على يد الوزير شاكر الحنبلي .

وظل محمد البزم مع هذا يغدق على الصحافة والمنابر والأدباء بقصائده الكريمة يرددها الشباب ويحفظها الطلاب . ويترنم بها شيوخ الأدب ، ينشر بعضها فى الصحف والمجلات ، ويؤجل بعضها إلى صدور ديوانه الذى أعده للطبع قبيل الحرب العالمية الثانية ، ولكن الحرب أخرت نشره كما حالت دون طبع مؤلفاته الباقية .

وفى المؤلفات الباقية خير كثير . منها كتاب فى اللحن الذى سرى فى كلام العرب ودرس أسبابه وأنواعه ، وكتاب النحو الواقع حرزه نتيجة تجاربه على منابر التدريس وقراءاته فى كتب العربية . وكتاب عنوانه « الجواب المسكت » وهو مجموعة كبيرة لكل جواب مسكت قالته العرب ، والبزم مولع بمثل هذا النوع ، حريص عليه فى روايته وحديثه . وكتاب آخر هو « الجحيم » وفيه اقامة الدليل على أن اللغة العربية سهلة جميلة فى عامة فنونها ، وهى قادرة على السير مع الحياة أنى سارت . وفيه حملة على الشعوبيين من اللغويين والنحاة الذين عقدوا قواعدها ليختصوا بعملها ويجعلوه وسيلة إلى كسبهم وامتطاء أعناق الناس سوقة وملوكا . وفيه الدليل كل الدليل على أن ما أحكمته الطبيعة من جمال العربية وفتنتها لم يكن خاصا بقواعدها بل هو شامل لكل فنونها . كما شمل أخلاق العرب التى تتميز هى أيضاً فى قواعدها .

ولما اشتهر البزم فى الناس ذاق مرّ العداوة والتنافس والبغضاء ، وبادل الناس هجوما بهجوم وعنفا بعنف . وتأثر شعره بهذا التنافس ، وتأثرت حياته بهذه البغضاء . فازداد تشاؤمه من الناس وكرهه لعاداتهم . فأوسع الدنيا احتقارا ، وأوسع الناس ذما . وأنفق ماله ذات اليمين وذات الشمال وعرف الحياة فما اكترث لمصائبها وهمومها ، وخبر الناس فما اهتز لسقوط كثير منهم ودناءة أخلاقهم وبشاعة أحوالهم فقال :

وهبّت بى الأحداث نكباء زعزعا   فما راعني منها الغداة هبوبها

وقد نعبت طير الردى فوق لمتى   فحبّب لى ورد الحتوف نعيبها
ولابست أبناء الزمان فلا أرى   سوى زمرا ملأى عيوبا جيوبها

وهكذا رأى فيهم ذئابا جياعا مفترسة كما رأى الأولون ورأى أن العيش الكريم فى البعد عنهم لا فى الاختلاط بهم فأكثر العزلة. وحمل عليهم حملة الحاقد الناقد، الساخر الهازئ وكره الشهرة، وابتعد عن الإعلان والدعاية والضجة، واختار جماعة من أصحابه كان يؤثر الاخلاد إليهم والاجتماع بهم.

وكان محمد البزم يرسل نقده ومقالاته فى جريدة «الميزان» فيتحدث الأدباء عنها. فقد كانت الجريدة نفسها من أجمل ما صدر بعد الحرب العالمية الأولى، تحوى المقالات الثائرة والنقد الرفيع والنكت المتناقلة. وترفع من شأن الأدب والأدباء. وكان صاحبها الأستاذ أحمد شاكر الكرمى على ذكاء واسع وفهم عميق للأدب وقوة عظيمة فى النقد. فاتفق الرجلان فى هذا السبيل. وأثارا النفوس وأشبعانهم الأدباء. وغدت مقالات الميزان موضع الحديث فى الأسمار وفى المجالس وفى المدارس وخاصة فى قاعة الأساتذة بمدرسة التجهيز الأولى. حيث يجتمع الأستاذ البزم فيها إلى زملائه عبد القادر المبارك وكان علما فى اللغة. وسليم الجندى وكان حجة فى النحو وغيرهما من العلماء. يتناظرون بعد الدرس ويتجادلون ويتناقشون وكثيراً ما يحتدم الجدل حول النحو واللغة والشعر إلى درجة تبلغ القسوة والعنف كأنها مجالس القدماء فى الكوفة والبصرة أو بغداد وكانت هذه المجالس نافعة أشد النفع تصور عكوف هؤلاء العلماء على صفاء اللغة ونقائها. بل إنها مجمع لغوى مقتضب. لا يحوى ما تحويه المجامع من نظام ومن ترتيب. ولكنه يناقش فيما تناقش المجامع فيه لو أنه بقى عند الحدود المرسومة بين الزملاء. ولكنه كان يتجاوزها فيما ينقل العارفون. فقد ذكر الأستاذ أحمد الجندى فى مجلة «العربى»[1] ما دار بين هؤلاء الثلاثة من نكت وما قام بين البزم

---

(١) التاسع، أغسطس ١٩٥٩ ص ٩٤ ــ ٩٦

زملائه من مزاح يدل فيما يدل على شاعرية البزم ونفسيته وتقبله للهجوم وعكوفه على التندر والتسلي . نقلت المجلة أن البزم نظم أرجوزة على لسان الأستاذ عبد القادر المبارك ترويها لبيان قدرته على التندر فى الشعر ونظمه لأغراض خفيفة ، وقال فى هذه الأرجوزة :

أنعت فيـــه للبرايا نفسى   كمن يخوض الحرب فى الدرفس
فقل لمن يريد غمط قدرى   أنا الفتى كل الفتى لو يدرى
لو هبّ من رمس البلى الزمخشرى   لم ير بدا من سلوك أثرى

ولعلها كانت موضع التسلية فى مجالس الأدباء ، ولـكنها كانت جارحة عنيفة تؤذى الصداقة وتمس الود لخروجها أحياناً عن واجب الزميل نحو الزميل . ولم تـكن واحدة تصدر عن البزم وإنما كانت كثيرة ، فالشاعر كان ينظم على لسان زملائه ويعبث بهم عبثاً يصل إلى حدّ التجريح والإيذاء فقد أرسل على لسان عز الدين التنوخى إلى صديقه خليل مردم بلندن قصيدة من بغداد يشكو فيها التنوخى طالعه وسوء حظه فيها . وكان التنوخى منتدباً للتعليم فيها . فصدّق القوم صدور القصيدة عن لسانه وألغوا عقده وأخرجوه من العراق .

وهذه النـكت الشعرية تعيد إلى الأذهان ما كان بين الأدباء فى ماضى العصور . وتدلنا على تملك البزم لناصية الشعر . وطواعية الشعر بين يديه كالعبد يأمره فيطيع ويلبي ما يرغب . فينهض لهـذا الهزل فى متانة كما ينهض للمعانى الأخرى فى متانة وجزالة كذلك تذكرنا بالقدماء .

وظل محمد البزم على هذا يعالج التدريس طوال أيامه حتى إذا خلا إلى نفسه نظم الشعر وأجاد فيه . فإذا خلا إلى إخوانه عبث وتندر وناقش وأجاب ، فإذا تعب جسمه وجاوز الستين ركبته العلل والأمراض وأحيل على المعاش ، وضاق بالعيش ، وتعسر الشفاء ، فأسلم إلى مستشفى عسكرى

أوصله إليه ضابط من طلابه[1] عشق الشعر على يديه وتمرس به ، فجعل له نصيباً فى رعاية الجيش وظل على ذلك حتى فقد نور عينيه . وفقد بعدهما الحياة . فأسلم الروح إلى بارئها يوم الاثنين فى ١٢ سبتمبر ١٩٥٥ . وبكاه أصدقاؤه وطلابه فى همس حزين لم يبلغ إلى الاحتفال بذكراه أو التحدث عن شعره أو التأليف فى سيرة حياته على ما كان فى هذه الحياة من نضال ضد الأتراك أو الاستعمار أو فى سبيل الحياة والعيش . أو ما قام بينه وبين الناس من عراك ونقاش ونقد بلغ حد المرارة والقسوة فى كثير من الأحيان. فأفقده عطف الأصدقاء فى حياته . وحرمه حنان كثير من الأدباء بعد مماته . ولكن الذى بقى من هذه الحياة هو أدبه ومن أجمل ما يزين أدبه شعره الذى نتحدث عنه فيما يلى :

شاعرية البزم

طرق البزم فى شعره ألوان الفخر بأجداده العرب . وتعلق بالشعر الوطنى الحماسى . فآمن بالعروبة وعشق الوحدة بين مصر والشام ونادى بهما فى شعره . فكان من خير ما عالجه فى ديوانه الشعر الوطنى .

وقد أعجب بالشعراء الكبار من فحول القدماء فأثنى عليهم أكبر الثناء ومدحهم بشعره طويلا . فاشتهر بالمديح فى وصفهم ووصف شعرهم وما بلغوا إليه . وإلى جانب الشعر الوطنى الحماسى وشعر المديح والإكبار كان الرجل يعمد إلى النقد الاجتماعى فيتناول أخلاق المجتمع والناس . حينا يرفق . وحينا يعنف فيخرج بعض الهجاء على يديه وسنعرض أول ما نعرض للشعر الوطنى فقد شغل ديوانه وملأ قصائده فعالجه فى نواح كثيرة وزوايا متعددة . وخاصة فى خلال وصفه للماضى فوازن بينه وبين الحاضر .

---

(١) هو العقيد الطباع .

الشعر الوطنى : (الحماسه)

يكاد يشبه هذا الشعر ما كان العرب يقولونه فى الفخر قديماً ، فالشاعر محمد البزم ينتسب غالباً إلى قبائل العرب من عبد شمس وهاشم وغسان ويزهى بهذه النسبة فيفخر بالأمجاد ، وذلك ليذكر قومه بما هم عليه من ضعة وذل وتنافر وتشاحن ، ليثير حماستهم ويدفعهم إلى العمل والأمجاد من جديد .

مدح البزم أبا العلاء ، وعاد بالذكرى إلى الشام فى حاضرها ، فرأى أنها مظلومة وأن الطغاة يعيثون بها فسادا ولكن العرب لا يقيمون على ظلم ولا ينامون على خسف ، وهم على اباء كبير ومنعة عظيمة فقال يصف وطنه :

يكفكف من طغو الطغاة فإن عتوا ... نزا فاستقلت بالطغـــاة مقابره
يميز نفوس العرب فى كل موطن ... اباء ويعـــروري المهالك حاسره
وكانت له فى دولة الشـــعر دولة ... حمى سرحها فى الشرق والغرب شاعره
تـــلاقت على عربائها فهى نزّع ... إلى عزّها أمصاره وعشـــائره
وهبّ به من عبـــد شمس وهـاشم ... وغسان إرث واقـدات مشاعره

ونسارع قبل كل شىء إلى بيان خصائص البزم ، قبل أن نبلغ إلى تحليل موضوعاته وأغراضه ، فنحن نرى فى هذه الأبيات بعداً عن الوحدة فى الموضوع فهو بينما يتحدث عن الآباء ينطلق إلى وصف دولة الشعر ثم يعدو إلى القبائل والمشاعر ، فالرجل لم يدخل فى لغة أوربية مطلقاً ، ولم يتعلق بما تعلق به غيره من شعراء هذا الاقليم ، فلم تكن له عقدة النقص كما يقولون فى حب الغرب أو السعى إليه ، بل لم تكن له همة من الهمم فى التأثر بآدابهم والسعى إلى معانيهم وأغراضهم ، لأنه كان ينظر أبداً إلى الماضى فى معانيه ومبانيه وأغراضه وأهدافه ، بل ينظر إلى ذلك الماضى فى تاريخه ومبانيه وأغراضه وأهدافه ، بل ينظر إلى ذلك الماضى فى تاريخه وفى مستقبله ، فيتمنى أن يكون الغد شبيها بالأمس ليس غير ، يعيده كما كان عربياً قحطانياً غسانياً .

ولهذا لم تصب لهجة الرجل أو لغته أو أسلوبه بمقاتل الأدب الغربى وظل على بداوته العربية يتلقن قوالب اللغة فى الشعر، وأساليبها فى النظم فيقلدها كأنه يعيش لزمانها بين ظهرانى بنى أمية فى دمشق قديما. وسلم لسانه على ذلك من عجمة وخلصت لغته من ضعف وركاكة، وكلما أعوزه الأمر عاج على الشعراء القدماء فعب من ينابيعهم وصورهم ما استطاع أن يعب. ولذلك نرى فى هذه الأبيات مفردات ضخمة لم تكن لتنطلق فى فم إلا إذا اعتاد صاحبه مضغ الألفاظ القديمة وترديد الموسيقا الجاهلية فى الشعر ففيه تنحو الألفاظ نحو القدماء، بل تتخذ ألفاظهم أنفسها وتنقلها من القرن الأول للهجرة لتضعها فى أسماع الشعر العربى بالقرن الرابع عشر. وهذه الألفاظ حين نستعرضها نجد فيها الجزالة والقوة والمتانة والضخامة. ففيها «طغو الطغاة، عتوا نزا» بالبيت الأول وتكرار الطاء والغين ثلاث مرات أمر فيه شاهد على ما نقول.

وفى البيت الثانى قوله: «يعرورى المهالك حاسره» شاهد آخر على لغة الشاعر محمد البزم، كأنه يريد أن يقلد أبا العلاء فى «اللزوم» وهو يمتدحه، أو كأنه يريد أن يعرض علينا قوته فى اللغة وإلمامه بالألفاظ المتينة المختارة.

ولعل هذه اللغة وهذه المفردات أبعدت الشاعر عن اصطياد المعانى البعيدة والأخيلة المجنحة، فوقف به همه عند جمال اللفظ وقوته دون ترابط الأبيات وعمق المعانى. وصوره بعد هذا كله صور جاهلية، ومعانيه معان تقع فى الشعر الأموى أو العباسى فهو يقول إن وطنه منيع الذرى إلا على من يأسوه فى لأوائه ويؤازره فى مصائبه.

وهذا الشعر الوطنى فى ديوانه يدور غالباً على الحماسة فيذكرنا بالتاريخ القديم وما فعل الأجداد فى سبيل رفعتنا، فقد زرعوا الأعلام فى أقصى الشرق وأقصى الغرب وأرسلوا البعوث من جيوشهم فى البحور والأرضين،

ملأت الدنيا مهابة وجلالة . وهو فى هذه الحماسة ينتقل من العرب إلى بلاد الشام ومن الشام إلى دمشق ، وعند دمشق يتفتق خياله بالصور الفخمة ، فيتحدث عن بردى وعن الغوطة . وهو لاينسى أبداً أنه رائد وحدة قومية عربية فى شعره ، فما ينتهى من دمشق إلا ليتصل بالعرب فى كل قطر ويذكر أمجادهم ويعدد روابطهم بأهله ، وينحنى غالباً على مصر فيذكر هذا الإقليم بالتمجيد ، وينادى بالوحدة بين مصر والشام ، ويبث لوعة الشرق وحرارة الحنان ، ويبعث التحية خالصة إلى العرب الميامين فى أرض الكنانة ، ويؤكد فى أبياته صدق الود وعميق العاطفة ، من قومه العرب فى الشام نحو قومه العرب فى مصر . فيقول :

حى العروبة والصيـــد الميـامينا فى مصر وانشد فؤاداً ثم مرهوناً
وذكر القوم أن عاج السلو بهم وصف لهم من هوانا الصدق مكنونا
واحمل إلى النيـــل تحناناً يردده روض على بردى وردا ونسرينا
واقرأ تحيتنا الفسطاط أن له ذكرى تورج رياها الرياحينـا

فقد كان محمد البزم يبث الوجد والحب ، ويرسم الحنان ويقرأ التحية فى شعر جميل صادق يؤكد صلات العربية القديمة بين هذين القطرين ، ويردد ما يعتلج فى أفئدة السوريين نحو إخوانهم فى مصر ، بل لعله يرد على تحية شوقى للشام ، فيصوغ تحية رقيقة تقف لها ، وقد كان شوقى أثار التاريخ العربى فى ذكرى بنى أمية وخلفائها ، وموقع دمشق من تاريخ الأمة العربية ، فأراد البزم أن يرسم الفسطاط وأن يستعيد الذكرى ، وكأنه وصل إلى ذروة الود فسعى إلى الوحدة بين القطرين وتمنى أن تتحقق منذ قال القصيدة قبل سنين عديدة فلم تكتحل عيناه بمرآها وقضى قبل أن يحقق هذه الأمنية الغالية ، وهو الذى كان يقول فى مصر :

وهى الكنانة مهوى العرب أفئدة كانوا الشآمين أم كانوا اليمانينا
كهف للائذنا خصب لمجدبنا أمن لخائفنا ورد لصادينا
لا قطع الله أسبابا مضفرة وشائجا بين واديكم ووادينا

فأرض الكنانة كانت أبدا كهفا للأحرار اللائذين من السوريين منذ أقدم الأزمان وفى مختلف العصور ، قضى فيها ابن العديم وابن شداد والكواكبي ومطران وغيرهم ، ومحمد البزم يرى مصر أخت الشام فى الخير والشر ، فى العسر واليسر ، فإذا نعى على مصر خذلانها لحافظ فهو ينعى على الشام خذلانها لشاعرها فيقول :

ودمشق أخت مصر ملئت شيعا تغمط حق النابهين
جهلوا الشعر وضلوا كنهه وعدوا فيه إلى الغث السمين

والشاعر يرى البلاد العربية كلها وطنا له فهو لا يمتدح مصر فحسب وإنما يمتدح العراق فيرثى فيصل الأول ويندب حظ العرب ويستغيث بعدنان ، ويبعث نخوة الأبناء إلى الحقد والثأر ، ويخالف بذلك عقيدة المسالمين من قومه السياسيين الذين يريدون التحالف مع الفرنسيين . وهو ينادى بالحقد والضغينة فيقول فى رثاء فيصل :

إيه عدنان شقشقى أو فكفى خطف الموت خالك الصنديدا
فتعاطى كأس الحقود على الدهـ ـر فإن الحقود تحيي الحقودا
وأقيمى مواسم الضغن تترى لا تمـلى لذكرها تجديدا
لا يذم الأحقاد غير جهول هل يحب الوفاء إلا شديدا

ثم يقول فى حث قومه إلى العمل والثأر :

أقلقى مطمح النسور زئيرا وازبئرى وجانبى التهديدا
واتركى الحالكات والبيض من دهـ ـرك طوعا ولائذا وعبيدا

وخذى من زماجر الأسد عزو ... جا بقصف الرعود عنى نشيداً
واتركى ساجع البلابل فى الرو ... ض تباكى وتكثر الترديدا
رقة الطير ما وقت أنفس الط ... ير من الذبح داجنا ومصيدا
أفهمى الأرض من عليها جميعا ... أن للضاد أمة لن تبيـــدا

والشاعر فى هذا يسخر من الساسة الذين يلينون للعدو فى مطالبهم ويرقون فى مناقشاتهم وفى مداولاتهم ويرى أن الرقة لم تمنع الطير من الذبح ، فالخير أن يزمجر العرب وأن يرددوا عن شاعرهم قوله ، فهو يعترف أن قوله عنيف أخذ من زماجر الأسد وقصف الرعد فغناه نشيدا قوميا لوطن العروبة .

والبزم يرسم الوطن العربى كله فى شعره . ويصف حبه لكل بقعة من بقاعه فيقول :

جلق منبت جسمى وعلى ... دجلة محتـــد قومى الغابرين
وإلى بغداد مهوى النفس لى ... أنة تنتابنى حينا لحـين
وحشا تهفو إلى أم القرى ... مهبط الوحى ومهد الراشدين
وفؤاد سؤله فى يثرب ... كاهل المجد وأرض الفاتحين
وينجـــد لاتعداها الحيا ... منعة العرب ومثوى المتقين
وعلى البطحاء مجـــد غابر ... شاخص أقلقه كرّ الســـنين
وبصنعاء تخـطّـــاها الأذى ... عـزّة الليث إذا ملّ العرين
موئل من حـل فى أرباعـه ... فى الرزايا كان فى حرز مكين

وهكذا جعل لكل بقعة من بقاع العرب مكانا فى قلبه وسببا لحبه ، ورسم أهميتها فالشام مسقط رأسه والعراق موطن آبائه وقلبه يهفو إلى مكة مهبط الوحى وإلى المدينة أرض الفاتحين ، وفى صنعاء اليمن عزة الأسود ، واستطاع قلبه الكبير أن يصنف كل بقعة وأن يصور مكانها من حبه تصويرا بارعا .

ويجب الشاعر أن يعترف دائما بأن شعره عنيف فى استثارة قومه وأنه كالعواصف تماما ولكنها قد ضمنت فى كلام . فيقول فى حبه للعرب يوم الجلاء عن سوريا :

وليس بدعا هيامى فى محامدهم العرب قومى وفى أنف العدى الرغم
ولى شوارد شعر فى استثارتهم هى العواصف لكن نسجها الكلم

فهو قومى وطنى مخلص فى حب قومه والدفاع عنهم والذود عن ربوعهم . فقد قامت الثورة السورية سنة ١٩٢٥ فأثارت شعراء مصر والشام ، وتغنى بها شعراء دمشق . وتباروا فى وصف النخوة وبعث الحمية . فقال خليل مردم . وقال الزركلى . وقال البزم ينصح أبناء غاليه بهجر الشام . فإنها عربية والعرب لا يحملون ضيما ولا يرضون بذل :

ما جلق وهى بنت المجد خاضعة لكم ولا الصيد من عدنان عبدانا

وكثيرا ما ينظم الشاعر فى الدفاع عن اللغة العربية كما نظم غيره من شعراء مصر والشام . فهو يرى فيها واسطة للوحدة ورابطة الأخوة وشعار القومية . وقد كان حاميا لها بجهوده فأنشد فى الحفاظ عليها بقصيده . وخلاصة القول إن الشاعر البزم لم يسكت لسانه فى الهجوم على المستعمر وفى حث بنى قومه على الجهاد فهو عربى يؤمن ببقاء العروبة حصنا قويا ودعامة متينة . لذلك كان شعره الوطنى أشبه بالحماسة القومية منه بالشعر السياسى الوطنى .

الشعر الغنائى : (الطبيعة والغزل)

قلنا إن الطبيعة الجميلة فى هذا الاقليم أوحت إلى شعرائه التغزل بجماله والتغنى بحسانه ونسائه ، فأرسلوا فى وصف دمشق ورسم غوطتها أطيب الشعر ، كما فعل القدماء قبلهم ، ففى وصف هذه المدينة ديوان كبير من الشعر

لو جمع كله لكان من أطيب المختارات[1] . ومحمد البزم لا يقل عن زملائه شغفا بدمشق وغوطتها . لقد أنشأ قصائد فى مدحها ، وقال فى إحداها يتغزل بها بأنها ريحانة الدنيا وظل نعيمها ثم وصف النساء فيها بأنها فاتنة المحاجر ، تترنح بدلال وتهتز فى مرح الصبا ، فهى تصبي الحليم وتنسى العابد المعبود ، ويتطرق بعد ذلك إلى نهر بردى فينافس الشعراء فى حبه وفى وصفه يقول :

أخت الخلود وما الخلود مفارق ... برداك ما عشق الأنيس خلودا
صاف كأخلاق الكرام يحثه ... كرم النجار لينعش المفؤودا
مترقرق طوع النسيم مسلسل ... كخواطر الشعراء رمن قصيدا
متكسر كالماس تلبسه الصبا ... زرد الحبيك وما أشف زرودا
يتخطف الأبصار ثم يردّها ... ريانة لا تسأم الترديدا
قد أبصرت فيه المجرة نفسها ... غيداء حالية المعاطف رودا
متهلل الجنبات بسام الثرى ... يغريك بالحسن الجديد تليدا

وقديما وصف « بردى » شعراء العرب منذ الجاهلية ، فسكروا بمرآه وانتعشوا بمائه ، وقضوا عنده صبوحا وغبوقا ، فامتدحه حسان فى أوائل الشعراء ورسمه شوقى فى أواخر الأزمان ولكن هذه القصيدة فيه نراها من بارع الشعر ، فقد اصطاد فيها البزم أجمل المعانى والصور ، فرسم صفاء النهر بما لا نجده فى دجلة والفرات والنيل ، ووصف تكسّره كما وصف القدماء الأنهار والمياه ، ورأى فيه صورة للمجرّة كنهر من نور ، ثم أضاف بأن بردى متهلل الجنبات بسام الثرى . وتابع الشاعر فى وصفه فذكر أن النهر قطع القرون مسرعا . ورفدته عين « الفيجة » بالماء ، وتفرّع عنه بنوه عند أحياء دمشق وهى الأنهار التى يولد منه وتجرى ملتوية فى البلد فقال :

شيخ تسابقه الخطى أبناؤه ... فى السهل جودا والمخارم جودا
نفست على الشيخ السخاء فأسرعت ... تنحو ضفاف الغوطتين وخيدا

---

(١) فى ختام تاريخ دمشق لابن شداد ، صفحات كثيرة لوصف القدماء وأشعارهم فى هذه المدينة — أنظر طبعتنا للتاريخ ، بدمشق ١٩٥٨ .

وهذه صورة جميلة لأولاد « بردى » يسابقون أباهم فى الجود والسخاء ما نرى إلاآن الشاعر وفق فيها أجمل التوفيق . فإذا انتقل منها ليصف « الغوطة » الغناء رأى فى هذه البساتين عجائب توجب التوحيد ، فأنى التفت لجدول مترنم أو نائح مغرد ، والخضرة تعقد فى كل مكان مجلسا وتتخذ فى كل زاوية موطنا والغدير يضحك إلى الغدير ، فكأنها عذراء تزينت أو خليعة تبرجت للفحول ، فإذا دغدغها النسيم تحركت وتمايلت :

وثنت معاطفها الغصون فكلها ثمل يعانق من أخيـــه ميودا
يتمازج الدمعان دمع غمامها بجبيس خضرتها فتنضر عودا

وتحر فيها الشجر فتعانق ، وسال فيها الدمع دمع السماء فالتقى بخضرة الأرض فأنضر العود ، وطاف العبير بأجواء الأفق فعطر الدنيا وأنعش النفوس.

وإذا انصرفنا عن شعر الطبيعة إلى شعر الغزل وجدنا « البزم » يرتوى من مناهل القدماء ويعكف على أساليبهم ومعانيهم فى هذا الباب . فكأنه ما عرف الهوى الحق . ولا بلى بالحب العميق . وكأنه ما اكتوى بنار الفراق . وإنما قلّد المحبين وسار فى سبيلهم . واتخذ ألفاظهم وتعابيرهم سبيلا إلى التغزل . فقد جاءت فى ديوانه مقطعة عنوانها « ذكرى الشباب » ذكر بها غزله وعشقه فقال :

ربّ دهر قد ضم شملى بحورا ء تمنى نزرا وتمنع جـــزلا
هزلت جسم ذى الجوى وتهادت يشتكى خصرها المعذب هزلا
شابت الجدّ بالمجون فخيل ال هزل جدا وخيل الجدّ هزلا

وما نظن أننا بحاجة إلى إتمام الأبيات . فهى كلها تسير على هذه الوتيرة لا تشف عن شوق دفين أو غرام قوى أو عن قلب معمود . وإنما تتصنع اللفظة وتتكلف الكلمة . فتعمد إلى الصناعة والصور المعادة البالية وجاء فى ديوانه شعر غيره فى الغزل نراه باردا متكلفا . يعمد إلى ما قلنا من صور القدماء فيرويها كأنه يحاول أن يكون له شىء فى هذا الباب فحسب . وهذا الشىء

لا يستحق الإعجاب أو التقدير ، قال فى واحدة خطرت فى مطارف الليل تنحو إلى نزهة والعبير منها يفوح . وراحت تطأ الأرض كالغزال المذعور فلما عرفته صاحته . ولكنه وقف منها كما وقف القدماء فقال :

وتراءى الرقيب فاستتر البد ر وساد الدجى وجد الكفاح
غادرتنى فى راحة البين نضوا وشجونى على الفؤاد طفاح

ووصفها فرأى فى خدها التفاح ، وفى وجنتها الدماء . ونظر إلى قدها فاذا هو قد سمهرى . وناظر سفاح . وفى مقطعة أخرى يستنير فى الظلماء بجبين الحبيب فهو مصباح يضيء . وفى أخرى يصف بروز الفتاة والبدر طفل . تتثنى فى أفانين الدلال . ولكن الخصر والمتنين منها فى كلال . وقد وهى ناعسها . وشكت الظل وخافته . فليت شعرى كيف يرجى وصل من يخشى الظلال ؟ .

ولن نسير بعيداً فى استعراض هذا النسيب أو الغزل أو التغزل . فهو ينحط عن مستوى شعره فى معانيه الباردة . وقواليه المتكلفة . ولا يدل على قلب يخفق أو جوانح تضطرم ، فإذا كان الشاعر قد صرف همه إلى الوطن والعرب وحب البلاد وجمالها . فقد انصرف عن غيرها من معانى الشعر لاشك فى ذلك . وذلك لأنه لم يفز بطائل فى وصف عاطفتـــه نحو النساء .

الشعر الاجتماعى

ولا نحب أن ننصرف عن شعر البزم قبل أن نعرج على نظرته إلى الحياة والمجتمع . فقد قلنا إنه برم بالناس وكره المجتمع فقد لقى الشقاء منذ شب . واكتنفته الهموم منذ دخل الحياة الاجتماعية . ولقى الحسد والضغينة والخلق الفاسد . فصاح يناجى أبا العلاء المعرى قائلا :

وعلمتنى أن أصحب اليأس زاميا سعيدا وبعض اليأس ينعم زاخره
يمزق جلد الصبر صبرى على الأسى كأن الأسى فى مهجتى شب عاصره

ويكفى أن يقول الشاعر إنه صحب اليأس وإنه صبر على الأسى كأنه ولد معهما وعاش معهما ، وذلك لما رأى من صغار النفوس وكثرة الخداع فقد ذكر أنه خبر الزمان فرأى أبناء الزمان يشدون رحالهم عن الوفاء . وأنهم يتقلبون مع كلّ ريح لذلك برع فى هجاء الناس وفى ذمّهم . فتناول أخلاقهم ونقدها نقدا مرا . وذكر أن كل أرعن سلّ عليه سيف البغى حتى لقد يئس من الناس جميعاً فقال :

لا يخدعنك من خبّ موادعة فكلهم وأبيك الخير حرباء
إن آنسوا الضعف من ذى غرة دلفت إليه مؤارة بالشر شهباء
لهم نفوس بغير اللؤم ما نزلت ولا تقوم بغير الجسم حوباء

ولقد تحمّل الشاعر من أخلاق معاصريه وأصيب منهم بالنكبات فتناولهم وهجاهم ولقى عناء وعنتا وضراً ، ووصف حاله :

ساء ظنّنا بالدهر بعد بنيه فهو لو شئته لعدّ العيوبا
جسد مزّقته كف الليالى بنبال الأذى فعاد ندوبا
فهو جهم الجبين ليس يرى النّا ظر منه إلا الأسى والقطوبا
بئس حال الفتى كئيبا على الضيّ م ويحصى على الزمان الذنوبا

وكان الشاعر يتسلى فى هذه الحياة الكئيبة بالشر ، لعله يتعزى عن هجوم الناس وأخلاقهم ، ولكن العلل والأسقام زحفت إليه حتى تمنى الموت فقال :

رثيتك والأسقام دب دبيبها بجسمى حتى أنكرتنى الوسائد
ولو كان يرشى الموت كى يسرع الخطى لخفّ به نحوى نضار وناقد

وإذا كان قد برع فى هجاء الناس وذمهم حين رأى فيهم الفساد فقد برع فى مدح العظماء ورأى فيهم علوا وعظمة ، فقال فى اكبار شكيب أرسلان وأبى العلاء المعرى ، وشوقى وحافظ والمتنبى ، وشكا إليهم ما يرى فى زمانه

من أقزام الشعر ، وساقطى المروءة ، وأراذل الساسة وخونة المبادىء فامتدح نفسه حين وازن بين أخلاق الناس وأخلاقه وبين شعرهم وشعره فقال :

أبى لى خلق كالزلال وخاطر إلى الملأ الأعلى ترد سلائله

ولكن الزمان نكبه وغلبه على أمره فقال يصف نفسه :

عشق المجد وهو فى المهد طفلا فعلا سابق العـــلا فكبا به
جرّدوه فكان فى الخطب غضبا ثم شاحوه فاختفى فى قرابه
نزلت ساحه الخطوب وفلّت حادثات الأيام غرب شبابه
شابه الليث لا تراه عيون النا س إلا ملازما وكر غابه
لا تلوموه إنه عـــربىّ همة المجد والعلى فى ثيـــابه

وهكذا يفخر الشاعر بنفسه بأنه تعلق بالأمجاد وعشق البطولات منذ كان طفلا وأنه عربىّ النجار عربىّ الهدف ولكن الخطوب نزلت بساحته ، فقلت من غربه وهدمت من كيانه وجعلته أعزل بغير قوة وبغير سلاح ، وهو بهذا يصف مجتمعه الذى تنكر له ونسيه وظلمه كما تنكر لغيره من الرجال المخلصين ويبدو أن لكل شاعر أو نابغة خصوما يقفون له بالمرصاد فيحصون عليه خطواته وأعماله ويكيدون له كيدا عظيما ، فينطلق الشاعر شاكيا ما يقع له من مآسى القوم ، فهم لا يعملون ولا يحبون لغيرهم أن يعمل وهذه الشكوى قديمة منذ كان الشعر والشاعر فى البلاد العربية ، وليس هذا جديدا ، ولكنه واقع وصحيح بالنسبة للبزم فقد أوذى واضطهد ولقى ما لم يلق غيره فتعذب وقاسى الأمرين .

وإذا كانت الشكوى من الناس فى صميم الشعر الانسانى ، وكان مديح البطولات يدل على المجتمع الذى يعيش فيه الشاعر فالبزم قد مزج المديح بالشكوى ومزج الشكوى بالهجاء فأبان عن حاله وظروفه ، وما ظروفه إلا بيداء قاحلة لا نعيم فيها ولا يسر ولا هناء ، لم نقع له فى ديوانه على فرح

إلا بالأمجاد ، ويكاد يغمر هذا الديوان مسحة من الكآبة قست على الشاعر فجعلت شعره صورة لحياته ، يغص بالندب والنواح ولكنه ندب الحمام ونواح الورقاء وشكوى الأسد الأسير .

ولماذا نبعد فى تحليل الشعر والرجل نفسه يعرفه بقوله :

خلق الشعر لتعريف العلى ولتمجيد العظام النابغين

ويعرفه ثانية بقوله له :

هو الشعر تصوير وبث وحكمة وتصريف أهواء ولهو تناقله

ولعله أصدق حكم على ديوانه ، فقد صور به الطبيعة تصويرا أخذه عن دمشق لم يكد يخرج عنها ولم يبارح أرضها فوصف العاصمة الأمومة وغوطتها ونهرها ورياضها وما فيها .

وأما البث فقد ملأ ديوانه لكل صفحة من صفحاته فى المديح وفى الهجاء والرثاء ، فكان زفرات يصعدها قلبه وحسرات ترسلها ضلوعه لما أصاب من يأس فى الحياة وغدر من الناس ومرض طويل وعلل متلاحقة صحبته إلى آخر نفس من أنفاسه .

وأما الحكمة فهو فى تصوير أخلاق الناس والاتعاظ بما رأى منهم فأوصى بالبعد ، عنهم واتقاء شرورهم ، بل إنه كان يقول :

وادع عداك فان عتوا فارم العدى بلظى ضرابك
وإذا غدوت بهم غريباً فالكياسة باغترابك

فهو يرى أن يهادن حين تصح الهدنة وان يحارب حين تضطر الحرب إلى الهجوم ، وإلا فليعش غريبا عنهم ، وهكذا فعل محمد البزم عاش عمره الأخير بعيدا عنهم فى حجرة نائية ، بالمستشفى العسكرى ، حتى أصابه العمى ، وركبه الشلل ، وقضى وحيدا لم تتحدث عن وفاته صحيفة أو مجلة ، وقد كان قبل ذلك يملأ الصحف بأقواله وقصائده بالمناسبات الضخمة وفى المهرجانات العامة ، وأكثر المحررين فى هذه الصحف والمجلات من طلابه ومن تلاميذه .

مختـارات

من شعر محمد البزم

شكيب أرسلان (١)

سكبت عليك نواسم الأسحار قطر الحيـــا بمدامع النوار
فكأن مائجة الندى فى زهرها رجراج در فى نضيد نضار
وتحاورت نجوى أذاب نياطها فوق الغصون سواجع الأطيار
وأثار من شجن الجداول سحره فتجاوبت بالوجد نوح هزار
فبكل روض أنة من جدول للحزن يحملها إلى الأنهـــار
وهفا البهار إلى العرار يبثه وجـــدا أثناء فؤاد كل عرار
وسرى النسيم على الجميم معزيا خضر الخمائل بالحيا المقطار
ومشى الأسى فأناخ لا متحرجا برقائق القرآن فى الأسحار

* * *

تبكى عليك خرائد الأشعار أم اللغـــات بصيب مدرار
تبكى ولو ملكت سوابق عبرة أنفت فلم تبلل مشق صدار
خمسين للاسلام ترفع مجـــده وتحـوطه بشوامخ الأسوار
فنظمت ما نثر الزمان قلائدا لمفـــاخر ومفاخرا لمبـــار
ورددت كيد المارقين بجحفل يرغو ويزبد بالردى زخار
وفللت من غرب العدى بسكينة تركت مثار النقع غير مثـــار
وشققت للصخر الأصم مسامعا ورميت سمع الخصم بالأوقار
بيراعة كالشمس من آثارها متع الصباح ورونق الابدار
نثرت كنوز الأرض فى حجراته نضدا إلى نضد وحسن نثار

* * *

مهلا أمير الدولتين ووقفة نقضى حقوق المجد غير صغار
وملاعب السيفين سيف بلاغة وفرند ذى شطب لصون ذمار

---

(١) أ كثرنا من رواية شعر محمد البزم ، فى قصائد كاملة لنعطى صورة عن شعره ؛ فديوانه ما يزال مخطوطة لا تقع لكل يد .

ومسدد الرمحين رمح فصاحة وأخوه فى كبد الهزبر الضارى
ومفوق السهمين سهم حنية وشهاب واجية وفصل حوار
ومظاهر الدرعين جو شن غارة ونجيك قافية ليوم حضار
ومحبر البردين مهرق حكمة ورداء مكرمة لساع نفار
ومؤرثا فى ظل أرعن باذخ نارين نار قرى ونار بدار
ومخلف الشعراء دون ثنية يزينه الأوطار والمقدار
وموزع العزمات فى الأزمات لم تفتأ تداور أمرها وتدارى

* * *

هذا رثاؤك والذماء على شفا متهافت بيد المنية هار
متجرعاً غصص السقام يهيجنى نوح الحمائم فى طلى الأشجار
دنف بكف الموجعات كأننى شاة تململ فى يدى جزار
زجار أغربة تروح وتغتدى حولى بكل قرارة ومحار
بحشاشة لولا نوابض مجهد طارت مع العنقاء كل مطار
تسعى إليك هدية من خاطر طامى الغوارب مخصب محبار
إن سيم حباً كان صنو حمامة أو سيم حرباً كان جذوة نار
ويثور إن ريم الدنية مارجا متغضباً كالضيغم الكرار
لو رامها بشار فى تهداره لأبت بجملتها على بشار
ومن العناء على الوفاء وأهله كفر الرياض صنائع الأمطار
والدهر أكرم ما يكون إذا وفت أبناؤه الأخيار للأخيار

أبو العلاء المعرى

وسعت الورى نوراً وطرفك موصد ... على النور فياض الجوانب نائره
فلو جمحت خيل الصباح جذبتها ... أعنتها كى ينقذ الكون باكره
وطفت على الدنيا تواسى حريبها ... وتأسو جراح البؤس تدمى معاقره
ألمت لديدان الثرى فى حشا الثرى ... يلملمها وقد الظمافر وتجـاوره
ولم تنس عيرا يقرع الضيم ظهره ... وأشفقت للبرغوث يعقر طامره
وقمت بعذر الليث يقتات طائعا ... جبلتـه فى فرسه ما يساوره
وسامحت ذئب القفر بالشاة ساغبا ... يمزعه ناب الطوى وأظافره

* * *

ليهنك أن الشام يقظى مساعره ... وفىّ بعهـد الضاد ريّا أواصره
حفى بما يرضى العروبة ناهض ... بأمجادها باديه عفوا وحاضره
منيع الذرى إلا على من يؤاصره ... ويأسوه فى لأوائه ويؤازره
يكفكف من طغو الطغاة فان عتوا ... نزا فاستقلت بالطغاة مقابره
يميز نفوس العرب فى كل موطن ... أباء ويعرورى المهالك حاسره
وكانت له فى دولة الشعر دولة ... حمى سرحها فى الشرق والعرب شاعره
تلاقت على عربائها فهى نزّع ... إلى عزّها أمصاره وعشائره
وهبّ به من عبد شمس وهاشم ... وغسان ارث واقدات مشاعره
ثرى مائج بالبعربيـة لم تلد ... بغير حمـاها منذ كانت معاشره
قضى حقها طلق الخطى جاهليـة ... وعزت بآى الذكر منها منائره

* * *

وأسهرت من جفنى عشرين حجة ... بهم ولهم أحيى الدجى وأحاضره
وأظفرتنى منهم بما لا تسرنى ... به متع الابريز تزجى غرائره

فذللت منه كل أحيد شامس ... ودمثتـــه حتى تألف نافره
وعقلته بعد الجنون كأنني ... ولم أبتدع فيـــه الرجاحة فاطره
وأعطى يدا بعد الجماح فأذعنت ... شوامخه واسترجع البشر زائره
على أنه ما زال من أجرائهم ... زعانف تخشى أن يجدد دائره
سجيـــة شر بارحي يثيرها ... على الضاد ثار لا توارى فوائره

* * *

تنـــاهبت الأدوار ذهني فلا تلم ... يراعي فقد ندت علـــيه ضرائره
وأخمدن طبعا كان مرتاد قابس ... ونجعة مغوار تلظى هوادره
وما كان شيطاني بليداً ولا هوى ... إلى وطر تبغي عليـــه معابره
أبح ما وراء الغيب وهمي لعله ... يعاود ذهني وقده وبواكره
فما في قريض الأرض أو في لغاتها ... معاذ لمن يوفيك ما هو نادره
وما أنا إلا صوب مزنك هامرا ... وروض توالت بعد عد مواطره
نقعت غليلي من خضمك حقبة ... أتت بالربيع الفخم تزهو حبائره
فإن جئت سباقاً فشكر زججتـه ... وقد ما عرفنا أكرم الروض شاكره
وعلمتني أن أصحب اليأس راميـا ... سعيداً وبعض اليأس ينعم ذاخره
يمزق جلد الصبر صبري على الأسى ... كأن الأسى في مهجتي شب عاصره
فواهاً لأحرار القريض وحسرة ... على الشعر عفا لا تصان مخادره

رثاء شوقى

خلق الشعر لتعريف العلى ونمجيد العظام النابغين
وقديما مهد الشعر لمن يبتغى المجد سبيل السالكين
إن يكن عق بيانى قلمى ومضى فى الناشزين الجامحين
فلقد كان ذلولا طيعا دمث الصهوة من غير وضين
رب ذى شق له فى طرسه خيلاء الفاتحين الثملين
سال ذوب السحر فى قرطاسه مستخفاً بعروش المالكين
عىّ بالخطب بياناً فهفا وتخفّى عن عيون الكاتبين
يثقل القول «بيحران» الأسى كاهل الشعر وطوق الناظمين
فاعذرن نضو خطوب وأذى بيد الأسقام والبؤس رهين
وأنا الشاعر من يجهلنى مارد شيطانه جنّو لعين

* * *

دمشـــق

ريحانة الدنيـــا وظل نعيمها من قبـل مولد يعرب وثمودا
بسمت بهـا الدنيا إلى عشاقها فتنـاهبوا وجناتها تخـــديدا
تلهو بأفئـــدة الظباء ظباؤها لهو الغرائر ما عرفن مكيدا
من كل فاتنة المحاجر إن رنت أو أومأت ذهب العميد عميدا
خفرت ورنحها الدلال وهزها مرح الصـــبا فتدافعت تهويدا
شفت فعصفرها الأصيل وزادها رأد الضحى بضيائه توريدا
تصبى الحليم فلا يرى متحولا عنها وتنسى العـــابد المعبودا
وتكاد تشربهـا النفوس لطافة وتكاد تحدث فى الوجود فقودا
فكأنها «عرض» تمثل «جوهراً» لو رحت تثبته ملئت جحودا

* * *

أمعـاقد الرايات يملأ حشدها سمع الزمان زمازما ورعودا
علم بأقصى الشرق يرشد خطوه وأخوه يوسع غربهـا تهديدا
وبعوث جيشك فى البحور شوامخ تفرى البحور مطاوعا وعنيدا
فملأت سكن الأرض منك مخافة ومهابة وجـــلالة وحقودا
والشرق خفاق الجوانب معجب والغرب متقد الفؤاد كميـــدا
وعجائب المقـدار أروع مظهرا فى الخافقين مسودا ومسودا
فهتكت عن شمس الفضائل سجفها ورفعت من فلق العلوم بجيـدا
وبنيت للأخلاق ما زحم السها وإناء من عليا النجوم كئودا
وكأنما نبذ الوفاء من الورى متهضما فأوى إليك طـــريدا
شيم كما ابتسمت أزاهير الربى للغيث من كبد السماء فصـــيدا

* * *

أخت الخلود وما الخلود مفارق برداك ما عشق الأنيس خلودا

صاف كأخلاق الكرام يحثه كرم النجار لينعش المفؤودا
مترقرق طوع النسيم مسلسل كخواطر الشعراء رمن قصيدا
متكسر كالماس تلبسه الصبا زرد الحبيك وما شف زرودا
يتخطف الأبصار ثم يردها ريانة لا تسأم الترديدا
قد أبصرت فيه المجرة نفسها غيداء حالية المعاطف رودا
متهلل الجنبات بسام الثرى يغريك بالحسن الجديد تليدا
ترنو إليه الشمس هافية الحشى حسانة عشقت فتى أملودا
تنحط عن كبد السماء وعندها ان لو تبوأ من ثراه وصيدا
قطع القرون القهقرية مسرعا واستشرف الآتى فجد شديدا
حتى إذا بلغ الحدور وذللت خطواته أخدوده تعبيدا
رفدته « فيجته » العريقة بالندى رفدا كما انبلج الصباح عمودا
عجل الخطى صخبا على رضراضه صبيا ليدرك صنوه الموردا
وتفرعت عنه بنوه صواعدا فى شامخين مدانيا وبعيدا
كل يلاوذ ظلبه فى مارد متعرج لا يأتلى تسديدا
نهر كأن البيض فوق متونها نضدت وحول ضفافهن عمودا
شيخ تسابقه الخطى أبناؤه فى السهل جودا والمخارم جودا
نفست على الشيخ السخاء فأسرعت تنحو ضفاف الغوطتين وخيدا

غوطتها :

لسعى لها الفردوس يطلب عندها منح الجمال وشائجا وعقودا
فى كل مشرفة وكل قرارة وحى يهيج من البيان رقودا
يفد الربيع على الربيع ويلتقى فيها النديد من الخميل نديدا
سافر بلحظك حيث شئت فلن ترى إلا عجائب توجب التوحيدا
أنى التفت فجدول مترنم أو نائح فى أيكه تغريدا

وسواكب ومواكب وكواكب تجرى النحوس بجوهن سعودا
فاذا انحدرت فسابغات نجدت فيها النمارق والحلى تنجيـــدا
نفضت بها الزرقاء غر نجومها نثرا تخال به اللحاظ نقـــودا
وحنا عليها الليـــل ملتمسا بها زهر الفراقد توأماً ووحيـدا
وإذا علوت فلجة من خضرة تجرى بسابحة اللحاظ مديدا
ضحك الغدير إلى الغدير وقهقهت لها المتاعب مبـــدئا ومعيدا
عذراء تحسبها العشـــية مومسا تغرى بزينتها الفحول الصيدا
غنجت فدغدغها النسيم كما انتحت أيدى الخلاعة فى الصدور نهودا
وثنت معاطفها الغصون فكلها ثمل يعانق من أخيـــه ميودا
يتمازج الدمعـــان دمع غمامها بحبيس خضرتها فتنضر عودا
وتكاد عانيـــة السحاب بجوها تهوى فتلصق بالجبين ســـجودا
فتن الصباح بها وغار مساؤها فتباريا برا بهـــا ورفودا
وافتر ثغر الليـــل عن أندائها حببا على أزهارها منضودا
وكأنما ركزت على أثباجها تيجان أهل الخافقـــين بنودا
تتقلص الجنات عن جنباتها خوف الرجوم فما يطقن وفودا
يسطو على عبق العبير عبيرها أرجاً لينعش أنفسا وكبودا
ويلوذ معتل الهـــواء بظلها يرجو الشفاء مكبلا مكدودا
يكبو وينهض فى أديم رياضها خضل المعاطف متعبا مجهودا
يلقى إلى جدل الجداول مسمعا لقنا وآخـــر للحون صيودا
رقت له كبد الجواهر وارعوى طاغى العواطف فانحنين وئيدا
وقضى على الرمضاء فى صحرائها وأقام فى وجه الحرور سدودا

* * *

مصر

حيّ العروبة والصيد الميامينا في مصر وانشد فؤادا ثم مرهونا
وذكر القوم ان عاج السّلو بهم وصف لهم من هوانا الصدق مكنونا
واحمل إلى النيل تحناناً يردده روض على بردى وردا ونسرينا
واقرأ تحيتنا الفسطاط إن له ذكرى تؤرج ريّاها الرياحينا
وقل لحامية الوادى وفتيته غرس الفراعين ، نبت العبشميينا
للطير فى كل غصن من خمائلنا ترجيع شوق إلى مصر يناجينا
وكل خافقة منا وجارحة وجد يرد صفاة الصبر عرجونا
ان ردد الجو ألحانا لساجعكم هز الشجيّين منا والخليينا
وليس يشغل شيئا من ضمائرنا غير الحفاظ على عهد الوفيينا
ولن نزحزح عن ورد الوفاء ولو كانت مراشفه صابا وغسلينا
لو كان سلوانكم نوما نعيش به ما استطاع قط نزولا فى مآقينا
لو عاقنا لنسفنا الطور ناحية إلى التلاقى ولم نحفل ذرى سينا

* * *

وكيف لا نتآخى فى هوى وطن يبيحنا الخلد تمثيلا وتزيينا
وهى الكنانة مهوى العرب أفئدة كانوا الشآميين أم كانوا اليمانينا
كيف للائذنا خصب لمجد بنا أمن لخائفنا ورد لصادينا
لا قطع الله أسبابا مضفرة وشائجا بين واديكم وواديتا
ولا قضى الله أن تقضى النوى وطرا منا ولو دبت الدنيا ثعابينا

* * *

تراث عدنان دين فى عواتقنا أقبح بذى النبل أن تلقاه مديونا
إرث لنا ملء أيدينا وأنفسنا باق على جبهة الدنيا عناوينا
تفرقت عبرا آيا مبعثرة ترابها بلباب المجـــد معجونا
كالحق مؤتلقا والصبح مبتسما والنجم ملتمعا والسيف مسنونا
ما كان يدرك منها الدهر بغيته لولا يد الفن تدهى الفن مدفوناً
تغلغلت فى مطاوى الأرض باحثة واستنهضت من مثاويها الفراعينا
وهتكت عن مقاصير الدمى سجفا وأزعجت عن حماها الخرد العينا
جبارة تسلب الموتى مراقدها وتستبيح خدور المجد مضمونا
وأعجزتها أبيتات مخـــدرة أغضت لهاخاطراً مااحتاج تفطينا
رهائن فى يد الأيام ما غلقت لـكنها ويل ذى الأيام تلوينا
ويلمّها أى وهن فى عزائمنـا لولا المقادير بالأرزاء ترمينا
أما ركبنا لياليهـــا مذللة حثّ السياط فأعيتها مساعينا
والمجد مجد له برق وهمهمة أو موثقاً فى يمين الدهر موضونا
وقد طرحنا ثياب الهون بالية لا بارك الله فيمن يقبل الهونا
لله درّك ما فى الريث منفعة لناهض يبتغى دنيا ولا دينا
بوارق الجو أسياف مسللة على الضعيف بأيدى المستعزينا
هل تأمل العيش أكباد مفتتة تستمطر العطف من أكباد عاتينا

* * *

المتنبي

لئن أقلعت عنك الليالي نوادما وبكاك رماح الزمان ونابله
وأصماك سهم من كنانته، فاتك، أخى غضبة لا تستباح حلائله
ففخرك بالأهوال أوردك الردى وقد يصرع الانسان ما هو قائله
تركت ملوك القول بعدك نزعا فأنت وهم بحر تعادى جداوله
وأمست حصان الشعر بعدك أيما مفجعة لا تشتهى من تباعده
وكنت خضابا للزمان فروعت خرائده لمـــا تبين ناصله
وألقى السلاح الدهر بعدك مثخنا وحنت إلى أغمادهن مناصله
إذا لم أقل فيك القريض مخلداً فلا جادنى عل البيان وناهله
وفازت بحر الشعر دونى نقائع تغالب فيـــه طبعها وتناضله
قرازيم تهفو للبيـــان قلوبهم ويذعرهم فحل القريض وباسله
كأن البيان الجزل فى لهواتهم سنان يلظى وقدة الجمر عامله
وكم عثرت هذى الليالى بجلياً لتنهض فسكولا مهيناً مساجله
يمزق أحشاء الظلام مقرزما ويسطو به ضعف الحجا فيباهله
وما أنا والغلف المخانيث أبتغى رضاها وأبغى الشعر ما لا يشاكله
أبى لى خلق كالزلال وخاطر إلى الملأ الأعلى ترد سلائله
ويأبى دم وقف على عربية فلا هو يخزينى ولا أنا خاذله
وما خير هذا الشعر إن لم تقمله أواخر ترضى عن ذويها أوائله
وهل شرفات الكون إلا فرائد من الشعر يمليها على الكون عاقله
هو الشعر تصوير وبث حكمة وتصريف أهواء ولهو تناقله

° ° °

العراق

إلى ربض العروبة مسبطرا ومقترح القرائح مبدعات
إلى حيث العروبة فى ذراها تحلق عن يد المتهضمات
ومطلع البدور على البرايا ومحتدر الأسود الزائرات
أدارة محتدى وقديم فخرى ومرتاد النوابغ والكماة
سلام مثلما افترت فناحت ثغور الروض للمتنسمات

* * *

فيصل

إيه عدنان شقشق أو فكني ... خطف الموت خالك الصنديدا
فتعاطى كأس الحقود على الدهر ... فإن الحقود تحيي الحقودا
وأقيمي مواسم الضغن تترى ... لا تملي لذكرها تجديدا
لا يذم الأحقاد غير جهول ... هل يحب الوفاء إلا شديدا
أيقظي من بنيك في كل خطب ... عزمات تصدع الجلمودا
وابعثي نخوة البنين ففيهم ... نخوة تأنف الحياة رقودا
وإذا أبطأ الحيا في سحاب ... سطع البرق يستحث الرعودا
تلك أسراك بعد قل وموت ... وثبت تمنح الحياة اليهودا
فارفعي الصرح مارداً مشمخرا ... يزحم النجم أو يميد الصعيدا
أقلقي مطمح النسور زئيرا ... وازبئري وجانبي التهديدا
واتركي الحالكات والبيض من دهـ ... ـرك طوعاً ولا تذا وعبيدا
وخذي من زماجر الأسد عزو ... جا بقصف الرعود عني نشيدا
واتركي ساجع البلابل في الرو ... ض تباكى وتكثر الترديدا
رقة الطير ما وقت أنفس الطـ ... ـير من الذبح داجنا ومصيدا
أفهمي الأرض من عليها جميعاً ... أن للضاد أمة لن تبيدا
وطر في حشا العروبة لم يقـ ... ـف اضطرابا ونزوة ووقودا
دب في مدرج الدماء عنيفا ... وجرى منبضاً وعمّ وريدا
إن قوماً ولا أسمي إباء ... ألفوا العيش ذلة وجمودا
أقسموا جهدهم وقالوا ضلالا ... إن مجدا ليعرب لن يعودا
أحمق القوم من يضل رموز الـ ... ـقول لحنا أو خطبة أو قصيدا
خير هذا القريض ما جاء عفوا ... مثلا ثائراً وبيتا شرودا

الثـــورة

بنى الشام

قومى بنى الشام هل مصغ فأسمعه قولا يؤجج فى الأحشاء أشجاناً
فما شكاتى غير الضيم يثقلكم وما فعالى يوم الحفل بهتانا
دعوا الكرى فالكرى عار ومثلبة وقلبوا الأمر بطناناً وظهرانا
الآن والدهر مأخوذ بغفوته هبوا خفافا وأموا ساحها الآنا
وغادروا الذى يخشى عواقبها ذلا يصاحبه ما انقاد أو دانا
من يستنم لليالى غير متعظ مشت إليه بجلىّ بنت وردانا
أبناء « غلية » لا كان انتدابكم فقد أسال دماء العرب غدرانا
لا ترهقوا العرب فالعرب الكرام لهم إن أرهقوا أبد الضرغام غضبانا
ويا بنى « السين » نصحا لامراء به والنصح يسمعه ذو الطيش أحيانا
دعوا الشآم وخلوا القاطنين به ويمموا غير ذى الأوطان أوطانا
أخلتم الشام أرض الصين حين غفت أحلامكم وبنى الفيحاء سودانا
ما جلق وهى بنت المجد خاضعة لكم ولا الصيد من عدنان عبدانا

* * *

حافظ

ما لمصر لا عرى مصر الأذى وهى أم الشرق فى برّ البنين
ما لهم لا عثر الجو بهم لم يحم حولك منهم محتفون
هل نسوا أيام لا نسمع فى مصر إلا حافظاً يزكى الزبون
تبعث الشعر لظى يصلى بها من بنى التاميز رهط الغاصبين
وبمصر زمر قد تخــذوا خدمة الأوطان دينا أى دين
وهبــوا مصر نفوسا حرّة لا يراها الله فى المستعبدين
قد صبرتم وتجــلدنا لها نوب توهن عزم الصابرين
ودمشق أخت مصر ملئت شيعا تغمط حق النابهين
جهلوا الشعر وضلوا كنهه وعدوا فيه إلى الغث السمين
يستغيث الشعر فى راحاتهم وينادى أهله هل من معين
كاد نجم الشعر فى دهمائهم أن يرى بعد السنا فى الآفلين
إن ترم معرفة القوم فزر مهجع العلم ومثوى النائمين

* * *

يوم الجلاء

وليس بدعا هيامى فى محامدهم العرب قومى وفى أنف العدى الرغم
ولى شوارد شعر فى استثارتهم هى العواصف لكن نسجها الكلم
إذا بكين لهم فى ليل نازلة بكى لشجوى الدجى والطرس والقلم
يارب ذى لهج بالشعر يكلفه وكان زينا له لو أنصف البكم
يهذى ولو أنفت الأسماع معتصما ينجى لأنقذها من هذيه الصمم

* * *

رثاء أحمد

رثيتك والأسقام دب دبيبها بجسمى حتى أنكرتنى الوسائد
ولو كان يرشى الموت كى يسرع الخطى لخف به نحوى نضار وناقد
ولولا الجوى والقارعات من الضنى عصتنى القوافى نشزا والقصائد
وهل خففت وقع المصاب قصائد يرتلها فى حومة الحفل ناشد
ولكنها سلوى النفوس ترى بها عزاء إذا ناء الجوانح واقد

* * *

غضبة للضاد

وأعجب شيء يؤلم اللب وقعه ... جسوم هي الأرماس في الناس تخطر
يغص بهم في حلقة الحفل مجمع ... وأن ريم حمر الشعر والنثر قصروا
مناحي ألقـــاب ونعت ضلالة ... يبيت لها قلب البيان يفطر
موال شعوبيون قلبا ونزعة ... لهم عمم عن موطن الجهل تحسر
عباديد نعارون في غير طائل ... لهم في انحطاط الضاد ربح ومتجر
يقولون شعر عبقري فتشتكي ... إلى ربها والإنس والجن عبقر
كأنهم والله راء وشاهـــد ... جحافل أنعام تئط وتجـــأر
يودون وأد الضاد سرا وجهرة ... ويتـكأهم إن قام للضاد مفخر
فلو سمعوا عن أحمق القوم سحرة ... « بخرفشة » أسروا إليها وبكروا
وأشعر من فيهم بليد مقلد ... يقطع آناء الظلام يكـرر
يعيد نصوص الغـابرين كأنه ... لتكرير قول الغـابرين مسخر

* * *

وثبة الأسد

يا أيها العلم أخفق فوق أربعنا ... فأى قلب لدى مرآك لم يجب
أذكرتنا العهد عهد الفاتحين بنى الـ ... ـسفر البواسل نسل السادة النجب
لما رفعت وجيش الترك منهزم ... خلنا الصوائف تقصو الروم فى هرب
لازلت تعلو ربوع العرب ماطمحت ... بهم نفوسهم للسبعة الشهب

* * *

السجن

وطنى الذى سحر العقول فسحره ... حسن لدىّ حرامه وحلاله
لجماله حمل العداة لساحه ... والشىء قد يجنى عليه جماله
نزلت به آى المحاسن فاستوت ... أوقاته فبكوره آصاله
جل فى مسارحه وعج برياضه ... متمتعاً تحنو عليك ظلاله
فتريك سر السحر أعين غيده ... ويريك قدر السمهرىّ غزاله

* * *

وداع

جلق منبت جسمى وعلى ... دجلة محتد قومى الغابرين
وإلى بغداد مهوى النفس لى ... أنة تنتابنى حيناً لحين
وحشا تهفو إلى أم القرى ... مهبط الوحى ومهد الراشدين
وفؤاد سؤله فى يثرب ... كاهل المجد وأرض الفاتحين
وبنجد لاتعداها الحيا ... منعة العرب ومثوى المتقين
وعلى البطحاء مجد غابر ... شاخص أقلقه كر السنين
وبصنعاء تخطاها الأذى ... عزة الليث إذا مل العرين
موئل من حل فى أرباعه ... فى الرزايا كان فى حرز مكين

* * *

إلى الرصافى

زمن ثلبت يراعته حماه — فأجدر أن تضمنه اللحود
وكم رفع القريض صروح مجد — وأنت المرء تهدم ما تشيد
أتهدم ما بنته على الليالى — أولو جد غطارفة أسود
أتذكر إذ تقول ولا تبالى — «وأشرف من بنى قومى الهنود»
فهبها أمة عثرت جدودا — فهل عار إذا عثرت جدود
وإن ناءت بأثقال الرزايا — فقد وأبيك ما حملت يئود
فكم من أمة نشطت وجدت — علت فى الخافقين لها بنود
وفى أرض العراق ثوى قديماً — طريف المجد ويحك والتليد
ألا هوّن عليك فرب خطب — يفل لهول وقعته الحديد
يمارسه الفتى بالحزم حتى — يلين فينجلى الخطب الشديد

* * *

لولا جهنم

لولا جهنم لم ترهف صوارمهم — ولا مشوا نحو ساح الحرب كالغنم
ولا استقادوا جياد الخيل ساهمة — تكاد تلفظ فى الهيجاء باللجم
لولا جهنم والفردوس ما اعتورت — أسياف عدنان هام الروم والعجم
ولا تغلغل جيش العرب مخترقاً — مهامه الترك حتى صار فى الرَّتم
لولا جهنم ما أفضت لكاهنها — بالسر يبيض منه فود محتلم
ولم ينل من ضروب الطيبات ولا — تلا على القوم آى الوعظ والحكم
لولا جهنم لم ينكح أخو بله — خريدة كهلال الأفق فى الظلم
ولا حبوه كريم المال خاضعة — له الرقاب تفديه من النقم
لولا جهنم ما ساد الغبى ولا — مشت إليه فتاة القوم بالقسم
ولا تفنن فى صوغ المحال ولا — أغرى وغرّر ذا دلّ وذا هرم

* * *

أرى فرقاً تعصى الهداة كأنها ... جذيمة والنفاع فيها قصيرها
أبت غير شت الأمر جهلا وضلة ... وضمت على غير الصلاح صدورها
وفيها ـ لو ان الله يبغي ـ رشادها ... نهى ترتجى للهدى لو تستشيرها
« وفرقانها » للخير يدعو وقبله ... دعا مثلها « أنجيلها » و « زبورها »
وكيف يرجى من عثار نهوضها ... وقد فتحت للطامعين ثغورها
هو الجهل كم أردى شعوباً وكم هوت ... به أمم بادت فساء مصيرها
وقد آن أن تنبو عن الضيم نبوة ... تهيب بها نحو العلى وتثيرها

لما طغى الشيب وخان المراح ... ولم يجد عن غيه من مراح
واقعها بكراً [1] ومفروعة ... مشمولة شيبت بماء قراح
تنتهى أوطاره والمنى ... كرمية الأعراق بكر صراح
ترد للشيخ جنون الصبي ... وتذهب الحزن وتأسو الجراح
يقول من سارت بأوداجه ... أنا ابن قيس ها هنا لا براح
يقترح المجد على دهره ... ورب مجد جره الاقتراح
ولو حوى الخلد لما راقه ... من شأنه سوى كأس راح

ومخادع يبدى الولاء منحته ... ودا يعز على الزمان مثاله
وصحبته وظننت غير موفق ... أن الفتى بيد الوفاء حباله
حتى إذا وثب الزمان وناهضت ... أحداثه وتقلبت أحواله
ألفيته الخصم الألد ولو رأى ... ساحا يصول قضى عليّ حياله
ورمتني الأيام منه بنابل ... ذي مرة ما أن تطيش نباله
وخبرت أبناء الزمان فكلهم ... حذق تشد عن الوفاء رحاله
إن لم تكن للمرء عندى منة ... سيان عندى هجره ووصاله .

---

(١) بكرا : عذراء .

اخلاقنا

سألته منــذ حين أين نسبته فكان محتــده فى آل جنـكيز
حتى إذا دارت الأيام دورتها وكان للعرب نصر بعد تعزيز
صار الفتى من نزار فى جحاجحها مبرزا فى علاها كل تبريز
وكم بدا لى فقلت الأصل قال أجل بنو الصيد الـكامن أفياء تاميز
والآن منذ رأيت القوم ثابتة أقدامهم صرت من أقماع باريز
وليس بدعا وهذا الدهر ذو غير أن يمسى الغر من أبناء تبريز
مطرز من شعوب الأرض قاطبة فاهنأ فأنت الموشى بعد تطريز

رفعوه إذ حسبوه حراً نابغا فسما الغبى وما لديه نبوغ
تركوا إليـه أمورهم فإذا به عن واضح الحق المبين يزيغ
نظموا له درر الثناء تقربا والخب ينظم ما لهم ويصوغ
بلغ الثراء ولم يكن لولاهم لأخى الجهالة للثراء بلوغ
ومشى يصـعر خده ولثوبه فى المخزيات إذا أجن سبوغ
وإذا همو ندبوه يوما للعـلى ألفوه وهو عن العـلاء يروغ
أفـكل غر جاهل ذى خدعة تمضى بكم أطماعه وتسـوغ

عاتبوه فأسرفوا فى عتابه إذا توارت شموسه فى ضبابه
حاسبوه عسى يرون له ذنـ با فخابوا فأقصروا عن حسابه
عشق المجد ـ وهو فى المهد طفلا فعلا سابق العـلى فـكبا به
جردوه فـكان فى الخطب عضبا ثم شاحوه فاختفى فى قرابه
نزلت ساحه الخطوب وفلت حادثات الأيام غرب شـبابه
شابه الليث لا تراه عيون النـ ـاس إلا ملازماً وكر غابه

لا تلوموه إنه عربى همة المجـــد والعلى فى ثيابه

* * *

ألف الضر دهره والخطوبا فثوى واجف الفؤاد طروبا
لامبـال أخامر الدهر لين أم عتا حادراً يجد النيوبا
زفرات من لاعج الشجو تجرى عبرات فتستترق القلوبا
ساء ظنا بالدهر بعـد بنيه فهو لو شئته لعد العيوبا
جسد مزقته كف الليـالى بنبـال الأذى فعاد ندوبا
فهو جهم الجبين ليس يرى النا ظر منه إلا الأسى والقطوبا
بئس حال الفتى كئيباً على الضيـــم ويحصى على الزمان الذنوبا

* * *

الدهر

يواربنى عن طيتى وأواربه ويمخر بى فى لجة الغى قاربه
كلانا يرى أن الليان غضاضة فيمشى إلى ذى مـرة فيحاربه
إذا قلت زارت عينه سنة الكرى تنبه ما استشرى فدبت عقاربه
وسلط من أبنائه كل أرعن إذا سل سيف البغى أدمت مضاربه
مشارقه بالقارعات أواهل وترغو بأصناف الرزايا مغاربه
تعود فعـل الشر هما وأشمطا وكهلا وذا شرخ ومذ طر شاربه
هو الدهر إن ساغت قليلا كئوسه تنـكر مربداً فأجت مشاربه

* * *

كلهم حرباء

لا يخدعنك من خب موادعة فـكلهم ـ وأبيك الخير ـ حرباء
إن آنيسوا الضعف من ذى غرة دلفت إليـه مؤارة بالشر شهباء

لهم نفوس بغير اللؤم ما نزلت — وهل تقوم بغير الجسم حوباء
والخمر أحبب بها قدما فكم كشفت — لهم طبائع صل القفر صهباء
فلا تبرم بعبء المكرمات فكم — ناء الكواهل فى العلياء أعباء
وقد يزان الفتى بالمكرمات كما — زينت بغر الدرارى الزهر جرباء
لو حالف الدهر انساناً لمنعته — غالت قصيراً وعمرو الثأر زباء

* * *

أعذر خصومك

أمسك عليك قليل المزح فى ملأ — كيلا يبيت قوام الطبع فيك ددا
ودع طريق الألى أغلت صدورهم — نواضج الحقد وانح اللاحب الجددا
واعذر خصومك فى البغضاء ملتمساً — أسباب بغضائهم ثم انتهج صددا
فإن رأيت صفاء فالليان وإن — ألفيت لؤما فجمع ويحك العددا
وإن دهمت بشر منهم جلل — فاشحذ نصالك واستحدث لهم لددا
ولا تخف زمراً منهم ذوى عدد — مضت طرائق فى أهوائها قددا
وإن تمادوا فجرد فى نكايتهم — عضباً يقد عرى الأوداج والغددا

* * *

من الوثبات

يا منبت العز من شام ومن يمن — كم فى ربوعك مجد العرب قد مكثا
كانت مباكن قوم إن دعوا وثبوا — أو خاطبوا الدهر أصغى فرعنا وجثا
وقائل جد فى نصحى يؤنبنى — دع البكاء فكل القوم قد أبثا
فقلت والهم قد جاشت غواربه — يا قوم هل كلكم عهد العلى نكثا
آليت بالمجد لا أنفك أرسل من — شوارد القول ما يستنهض الجثثا
متى تغادرنى روحى ويفقدنى — قومى وأسكن من بطن الثرى جدثا
والذل أخبث ما يرضى الجبان به — إلا نفوس لديكم تأنف الخبثا

* * *

دمشق

أجل جلق المجد مهد العلى ... ومهوى النفوس وسلوانها
كساها الربيع سـنا حلة ... يروع النواظر عنوانها
فنير بها مجتلى الزاهرات ... ومجلى الفراقـد كيوانها
غرانقة المجـد صيوانها ... ورائعة الخـلد نسوانها
فلو حل رضوان أفياءها ... سلا جنة الخلد رضوانها
لئن ألف اللهو سهوانها ... وأغرق فى الحزن أسوانها
فقدما أقامت صروح العلاء ... وحلق فى الجو ايوانها

* * *

الناظر السفاح

خطرت فى مطارف الليل تنحو ... نزهة والعبير منهـا نفاح
تطأ الأرض مثلما خطر الخشـف على الذعر روعته الصفاح
عرفتنى فصافحت ترب شجو ... بعث الوجد فى حشاه الصفاح
وتراءى الرقيب فاستتر البد ... ر وساد الدجى وجد الكفاح
غادرتنى فى راحة البين نضوا ... وشجونى على الفؤاد طفاح
صعدة زانت الحلى وصادى ... ذا الهـوى فى أسيلها التفاح
وجنـة تحقن الدماء وقد ... سمهرتى وناظر سـفاح

* * *

ذكرى الشباب

رب دهر قد ضم شملي بحورا ... ء تمنى نزراً وتمنع جزلا
هزلت جسم ذي الجوى وتهادت ... يشتكي خصرها المعذب هزلا
شابت الجد بالمجون فخيل الهـ ... ـزل جداً وخيل الجد هزلا
ودهى الناعسان منها فراحا ... يغزلان الهوى لذى الشوق غزلا
ملكاها على القلوب فما تحـ ... ـذر إن خاف صاحب التاج عزلا
مهج العاشقين نهب لديها ... تركتها وقفاً على الحب عزلا
نظرات تثير وجداً ووقدا ... تخذا من حشا المتيم نزلا

* * *

يادمية القصر

يا دمية القصر غنى غير حافلة ... ولا يهولنك في ذا الليل ضباح
إن أعوز النور واشتدت بنا ظلم ... فذا جبينك في الظلماء مصباح
كم في معاطف هذا الليل من زمر ... ضووا فما لهم في الليل أشباح
يساهرون الدراري في منادمها ... حتى يلوح لهم في الأفق إصباح
يكاتمون الورى جلى سرائرهم ... فلو تمزق جلد الصبر ما باحوا
وكم غوى لمشيب الليل جهلته ... شعاره حين يلقى الناس مسباح
فرنمي ودعي الأقدار جائلة ... فليس يرجى لها في الدهر إكباح

* * *

نصيحه

وادع عداك فإن عتوا فارم العدى بلظى ضرابك
واخز عبـــاب لجة الـــأقدار فوق مطا جرابك
وإذا غدوت بهم غريـــباً فالكياسة باغترابك
والخير كل الخير عنـــد سكون حالك باضطرابك
هبك الحسام صدئت فانـــزح ويل غيرك عن قوابك
واذكر ترابك حيث تقـــذف فالعبير شذا ترابك
إن قام جدك فالحوا دث والحنادس من حرابك

* * *

شكوى الظل

برزت والبدر طفل فاعترى البدر الهلال
وأطل الفرقد الوضـــاء مسلوب الجلال
تنثنى وتهـــادى فى أفانين الدلال
كل منها الخصر والمتـــنان منها فى كلال
ووهى الناعس حتى خلته يشكو السلال
تتشكى الظل شكوى برم بادى الملال
ليت شعرى كيف يرجى وصل من يخشى الظلال

* * *

تنكب طريقي

تنكب طريقي لاتصبك بوادري　　وحاذر يراعي تجتنبك نوائبه
فرب غبي غادرته صوائبي　　تخب به قصد النجاة نجائبه
ورب جهول رام كيدي فرمته　　بآبدة تتلى فتبدو سبائبه
أصارحه بالقول ـ والقول فيصل ـ　　فتضمر لي شتى الحقود ترائبه
يكتب لي غمراً وغراً وأخرقا　　وتسلمه عند اللقاء كتائبه
على أنه ذا الدهر ـ أن سالمت فتى　　حنادسه ـ أغرى فدبت شوائبه
ومن كف عنى عاديات اعتدائه　　فلا هو يرميني ولا أنا صائبه

* * *

لابراح

قتلوها فاجتواها　　حين شيبت بقراح
وحساها وهي صرف　　سادرا جم المراح
يحسب الروض وطيساً　　فينادى لابراح
كيف لا يصبح مكلو　　م الحشا دامي الجراح
دنف يغدى به نحـ　　ـو الرزايا ويراح
وجع في قبضة الأد　　واء يرجوه سراح
منتهى السؤل لديه　　نهلة من كأس راح

* * *

القسم الثانى

خليل مردم

١٨٩٥ - ١٩٥٩

خليل مردم

١٨٩٥ — ١٩٥٩

فى أواخر القرن التاسع عشر وقبل أن يلفظ أنفاسه ، ولد خليل مردم حوالى سنة ١٨٩٥ ، فى دمشق لأب هو أحمد مختار مردم بك وأم هى السيدة فاطمة الحمزاوى ابنة السيد محمود الحمزاوى مفتى الشام وعلامتها ، وصاحب التصانيف المعروفة من شعر ونثر . والأب من أسرة عريقة قديمة تقلبت فى اليسر والرغد ، وعاشت فى الوجاهة والرفاهية ، فامتلكت دوراً ومساكن أمنت بها غوائل الدهر .

عرف الصبى منذ ترعرع نعمة العيش ويسر الحياة ، ولم تكن له إخوة من الذكور ، وإنما كانت له خمس شقيقات ، فدفع به أبوه إلى التعلم فى مدارس ذلك العهد ، وكانت ضعيفة هزيلة أنشأتها الحكومة على أساليب ذلك الزمان فسلك فيها الخليل يتعلم القراءة والكتابة ، ودرج فى مدرسة الملك الظاهر الابتدائية ، يميل إلى العربية ويعنى بالشعر والنثر منذ نعومة أظفاره . وكان من غير شك مرهف الحس رقيق الشعور قليل الكلام ، خالماً أبداً حتى خيل إلى أقرانه أنه كان شارد اللب ، يحب البعد ويهوى الانزواء ، لا يتكلف المشاركة فى اللعب واللهو ، ولا يندفع مع جمهرة رفاقه وأنداده يغلب عليه الحياء والأحجام .

وما كاد يبلغ الخامسة عشرة من عمره حتى فقد أباه ثم فقد أمه بعد أربع سنوات ، فعلقت بذهنه منذ صباه هذه الصورة الحزينة ، فانطلق ينظم فى رثاء أبيه وفى رثاء أمه ليصور هذا الحزن والأسى ، ولسنا ندرى زمان النظم بالضبط وإن كان الديوان [1] يذكر أنه نظم الأولى وهو فى الخامسة عشرة

---

(١) إننا نعتمد فى دراستنا لهذا الشاعر على ديوانه المطبوع ، وقد أشرف عليه المجمع العلمى العربى بدمشق ، ووقف عليه ابنه الشاعر عدنان مردم ، فبلغ أربعمائة صفحة .

والثانية وهو فى التاسعة عشرة . قال فى أبيه [1] :

أقول ونعشه يختال تيها تحيط به المهابة والجلال
خليلى احسرا دمعى قليلا لأنظر كيف سيرت الجبال

وليس هذا من الشعر الذى يقوله عادة فتى فى الخامسة عشرة ، ولكن الخليل قد رضع الشعر وفطم عليه ، وقاله متيناً جزلا ، يصور النعش يختال فى مهابة وجلال ويسير بين الناس كما تسير الجبال ، وهو معنى عظيم اتخذه الشاب فى رسم رفعة أبيه وقدره وعلو مكانته بين الناس فجعله علماً من الأعلام، قد سار عن الأرض كما تسير الجبال .

وقال فى أمه يرثيها كذلك ، ويفتخر بنسبها ورفعتها [2]

يا قبر لم تدر ما ضمنت من شرف عال تفرع من (فهر) و (عدنان)
أماه أبدلت بالأملاك مكرمة (أهلا بأهل وجيرانا بجيران)
ذهبت قانتـــة لله صائمة فكان عيدك لقيا الله ذى الشان

فهو يعترف بأن نسب أمه لقريش من فهر وعدنان ، ويفتخر بأنها قضت فى طاعة الله قانتة صائمة ، ولا غرو فهى من بيت علم ودين وتقوى ، وأبوها من السادة الأشراف حسيب نسيب . ورثاؤه فيها شبيه برثاء أبى فراس فى تقوى أمه وقيامها للصلاة وصيامها فى عبادة المولى . ويختم الأبيات بقوله : « يا بنت خير أب » فلعله نظر فى ديوان المتنبي حين رثى هذه الأم .

وعلى هذا افتتح حياته بالحزن والفاجعة ففقد أبويه فى مطلع عمره ، وراح يسير فى الدنيا يتيما وحيداً يعتمد على الحذر والصمت ، والصبر فى حياء وخجل وتردد وقلق ، فانطبعت شخصيته بذلك ، وعاش كل عمره قليل الكلام

---

(١) الديوان ص ٣٧٠ .
(٢) الديوان ص ٣٧١ .

شديد التأمل ، هادئاً متزنا ، ووراء ابتسامته حزن قديم عميق ، يستشفه الذين عرفوا نشأة الشاعر وتمرسه بالصبر والسكون .

ومضى الشاب إلى إكمال تحصيله ، رغم يتمه يتابع دراسته على أساليب تلك الأيام ، وأقبل على الحديث والفقه والنحو والصرف ، فدرس الحديث على المحدث الشيخ بدر الدين الحسنى ، والفقه على قاضى الشام الشيخ عطا الله الكسم ، والصرف والنحو على الشيخ عبد القادر الاسكندارنى ، وهم علماء دمشق والمقدمون فى مجالس الثقافة والمعرفة ، فأفاد منهم ، وأخذ عنهم ، فكأنه دخل جامعة كبيرة من الجامعات القديمة فى العالم الإسلامى ، تعلم فيها آلات العربية من نحو وصرف واستطاع بذلك أن يتقدم إلى التراث العربى القديم فيفتح أبوابه ، ويلج منه إلى فحول الشعراء وكبار الكتاب ، وهو ما يزال يزحف نحو العشرين من عمره .

وديوانه شاهد على أنه نظم فى هذه السن كثيراً من الشعر يدل على تمكن من النظم ، وقدرة على القوافى ، ولكنه فى ذلك مقلد يسير على سنن القدماء ، وقد اتخذهم نماذج أمامه فى المعانى والمبانى ، يستطيع الناقد أن يردها إلى شعراء العباسيين المشهورين ، فيعرف أين وقع الخليل من قراءاته ومن اعجابه .

فقد وصف المزة والربوة[1] ، وهما من مرابع الشام الجميلة ، فالمزة قرية تعلو دمشق وتطل عليها فيها دوح وظل ، والربوة متنزه قرب دمشق هو مدخلها اليوم ، تغنى فيه الأنهار والأشجار والأطيار وتضحك فيه الأزهار والأنوار ، فالماء مثل الأراقم ينساب من عالى الصخور والورق فى ترجيعها كداود يتلو الزبور ، والدور فى المزة كالخورنق والسدير ، والحور تميس بالدمقس والحرير وهذه المعانى كلها معان مطروقة معروفة صاغها الشاب فى أسلوب بحترى .

---

(١) الديوان ص ٩٦

وتغزل بمقطعات وقصائد، فيها سفك الدماء والشكوى والتظلم ، ومسرح الآرام ، وخفقان القلب وسهر العين ، وفيها التجنى والجفاء ، والوعد والوفاء . وأغرب ما فيها أنه سمع نواح حمامة فسألها أن تردد النوح لعلها تسعده فهى مستهامة وهو مستهام .

وفى هذه الفترة كان الرجل يترجم الشعر عن « غوته » إلى شعر عربى فيه عذوبة وجمال ، فكأنه يستعير فى شعره المنظوم برد البحترى كذلك وموسيقاه ، وكان يترجم كذلك عن الفرنسية فى ثوب جميل وموسيقا حلوة، وما عرفناه دخل فى اللغة الألمانية أو الفرنسية ، فهو لم يتعلم واحدة منهما طوال حياته ، ولكن الزى الشائع آنذاك كان فى الاقتباس والتعريب ، يأخذ به المنفلوطى وغير المنفلوطى ، فلماذا لا يأخذ الخليل بشىء منه لينقله إلى العربية شعراً مستعذباً ؟ فهو يقول عن الفرنسية :

عينيّ جودا بالدموع الهامية . وبردا جذوة شوق واريه
لم يبق منى غير دمعى باقية . تعدى على جور الهوى أو تجدى

وقد سرت فى مطلع القرن العشرين بالشرق ريح الرومانطيقية وسال الدمع على الخدود ، وامتلأت المحاجر بالأسى ، وكثر الانتحار فى الحب ، وتناثر الشهداء فى الغرام على أطراف القريض وتعلقوا بالقوافى . ويبدو أن هذه الريح تنسجم كل الانسجام ، مع الشعر القديم فى الغزل ، فاتفق دمع ودمع وسالت عين وعين وأصبح المترجم عن الفرنسية أو الألمانية كالأصل بالعربية ، وذلك لأن الذى راج من الشعر الغربى كان الشعر الرومانطيقى .

وتعلق الخليل خلال هذه الآونة بوصف البؤس والألم والدمع والشكوى كما كان أنداده وزملاؤه يفعلون ، فتظهر قصائدهم فى العراق ومصر ولبنان ترسم الفقر والبؤس ، قال يصف اليتيم الجائع (١) .

---

(١) الديوان ص ٢٨٠

طفل بجوف الليل يبكى عارياً ... نال الضنى من جسمه ما نالا
ما راعه إلا دنوى نحوه ... كالفرخ ريع لكاسر قد صالا
سائلته ما خطبه فتدفقت ... منه الدموع فما استطاع مقالا
فمسحتها حتى اطمأن فؤاده ... وأعدت بعدئذ عليه سؤالا

وهذه القصيدة على نسجها اللين تصف اليتيم البائس وعطف الشاعر وإحساسه ورقته ، فتمسح دمعه وتسرى عنه وتروى قصته لقدذهب الزمان بأبويه ولم يترك له عما أو خالا ، فعضه الجوع بنابه ، وأورثه الأمراض الفتاكة حتى قضى بين يدى الشاعر ولفظ أنفاسه وسمع الخليل هينمة الملائك حوله ورأى رحمة ربنا تتوالى وهنا عقه الجلد فسال دمعه هطالا .

والشاعر فى هذا يشارك إخوانه فى الدعوة الإنسانية التى انتشرت حينذاك فى الحث على الاحسان والعطف على البائسين نهض لذلك الكتاب والشعراء ، فخاض غمار الدعوة خليل مردم كما خاض غيره ، وذلك من الشعر الاجتماعى الذى كان رائجاً فى تلك الأيام .

وشكا الخليل دهره وزمانه كما شكا القدماء ، بأساليبهم ومفرداتهم ، وهو دون العشرين من العمر ، فعزف عن اللهو والصبا وقد كان قبل ذلك « زير كواعب » على حد تعبيره . فهو جميل الطلعة منذ صباه ، واسع العينين ، فى قوام طويل ، وفى رغد من العيش ، فلماذا لا يعشق ولا يتغزل ولكنه أرسل فى ديوانه قصيدة شكا فيها دهره فقال [1] :

فأصبحت عزهاة[2] عن اللهو والصبا ... وقد كنت قبل اليوم زير كواعب
فما تصبانى الأوانس والدمى ... ولا قاصرات الطرف زج الحواجب
زجرت فؤادى عن هوى الغيد فارعوى ... وقرّ وقبلا كان قلق الجوانب

---

(١) الديوان ص ٢٨٢ .
(٢) عزهاة : عازف عن اللهو .

وقد نفض يديه من كل صبوة ، وابيض فوداه وهو دون العشرين ، سنة ١٩١٤ ، قبل أن تلعلع المدافع ، ولم يبق عنده للصبا واللهو موضع لأن قلبه حزين مترع بالمصائب . ويبدو أن صحبه أنكروه وباعده أدنى أقاربه ونأى عنه كل خليل كان يأمل ودّه ويختم بقوله :

فوالهفا أنى أضام ولا أب — يعزّ عليه أن يذلّ جوانبي
كذاك ولا أم تشاطرنى الأسى — ولا من أخ لى أرتجى أو مصاحب
ألا من لطفل إن تراءى له الردى — كفرخ قطا فى العش ليس بزاغب

وهذه الأبيات دليل واضح على الذى كنا نقوله من أن يتمه كان له أثر كبير فى نفسه . فدفعه إلى اليأس من الناس والشعور بالوحدة ، والاحساس بأنه طير بغير زغب لا يجد أبا ولا يجد أما ولا يجد أخا ، فقد مات أبواه ، ولا إخوة له من الذكور ، والأقارب تنكروا له وأحس بذلك احساساً قوياً بعد موت أمه ، فانصرف عن اللهو والصبا وخلى النساء الكواعب ، ونفض يده من كل سرور .

وقد انقضى عام كامل على هذه الأبيات ، وأهل عام ١٩١٥ ، فقال قصيدة أخرى يتوجع فيها ويتفجع من فقد الأحباب ، ويشكو خيانة الأصدقاء ، ويصيح بأنه جبل على الود والوفاء . ولعل النقاد يجدون فى هذا اللون من الشعر طريقة درج عليها الشعراء قبله فى شكوى الزمان وندرة الإخوان والأصدقاء فهو تقليد ، ولكننا نجد فيه صورة لحياة هذا الشاب فى صدر شبابه تدلنا على ما كان يعانيه من آلام فى الوحدة وفى معمعة الحياة وحيداً لا سلاح له .

وعلى الرغم من هذا الشعور انطلق الشاب وهو لما يتجاوز الحادية والعشرين من عمره يخاطب الشعراء الفحول والكتاب المشهورين فى زمانه، ينظم فيهم رسائله الشعرية ويجيبونه على تلك الرسائل بشعر كذلك ، وكان

فيهم الأمير شكيب أرسلان [١] ، والأمير اشتهر آنذاك ببلاغته وفصاحته وشاعريته ، فكتب إليه الشاب قصيدة يمدحه فيها ويثنى على قوته. وجزالته وهو يعرف أن الأمير يزحف نحو الخمسين من عمره ، وأن الخليل شاب ناشىء ملء برديه طموح إلى الشعر العالى ، وكل أمانيه أن يجيبه شكيب أرسلان وأن يجزيه بالشعر شعراً . والأمير لا يخيب هذا الأمل فى نفس الشاب بل يكتب إليه قصيدة شعرية يشيد فيها بمزاياه ويمدحه ، ويبثه شوقه وهيامه على ما بعد ما بينهما فى السن والشهرة فيقول فيه :

كما هام قلبي بالخليل بن مردم   هناك الهوى العذرى قد صحب العذرا
أجل سراة الشام بيتاً وانه   لأحدثهم سناً وأكبرهم قدرا

ثم هو يشهد بأنه ما رأى له نظيراً بين الشباب ، قد سبق الشيوخ بعلمه ، وبزّهم بنسبه ، فهو أرجحهم ذراعاً وأطولهم يدا وأكرمهم نجرا ، وهو فى نسبه إلى الرسول الأعظم وفى أصله إلى « عدى » قد جمع المجد من أطرافه .

وظلت الرسائل الشعرية تترى بين شكيب والخليل ، تجرى على سنن القدماء فى الاخوانيات ، ليس فيها كبير اختراع ، وإنما هى على متانة وقوة فى التركيب ، ترفع للشاب قدراً فى بلده وغير بلده ، لتلك السنّ الناشئة . وذلك لأن الشاب كان يقلد شعر شكيب ، ويرى فيه بلاغة الأعشى . وحكمة أكثم بن صيفى ، وبيان على بن أبى طالب ، ويجد فيه إماماً يقتدى به فى الشعر . يرسل إليه فى المديح وفى الغزل ، ويداعبه مداعبة الصديق للصديق ، والند للند ، فقد جمع بينهما الشعر وربطت بينهما القوافى بأسباب قوية ، وكان ذلك لزمانه حدثاً من الأحداث يتباهى به الناشىء ويفخر به على أقرانه ، ويرتفع به على زملائه .

ولعل الشاب كان يتسلى عن وحدته وفراغه بالحب فكان يعترف بأنه

---

(١) عاش الأمير ١٨٦٩ ـ ١٩٤٦ ، وقد كتبنا فيه محاضرات نشرناها فى كتاب مستقل فارجع اليها .

يجرى وراء الغوانى فى هذه السن ، ويكتب بقصة غرامه إلى الأمير شكيب ، ويصف له حبه لفتاة حسناء هام بها سماها « لمياء » وأغرم بها وشغف بها حباً حتى برح به الوجد ولجّ به الشوق، فلامه أصحابه ، ولكنه كان يقتدى بالأمير شكيب ، ويرى أن هذا الرجل على سنه أحب وهام ووصف حبه وهيامه ، لم يبال الأربعين التى قطعها والشيب الذى علا فوديه ، فليس فى الحب عار إذا كرمت نفس الفتى ، والخليل يقسم أنه ما مد يده يوماً لفاحشة ولا سرت قدمه فى أرض الخبث. وكيف يفعل وأبوه أحمد مختار كان من سراة دمشق ، وجده عثمان كان من كبار رجالاتها ، وإليه كانت ولاية حوران مدة كبيرة ، ونسبه إلى النبي من جهة والدته فهى ترقى بالنسبة صعدا إلى العباس والحكم ؟ إنه ليعتز بهذا كله ويرى أن العفة رائده والإباء ديدنه ، فلا يتسفل ولا يسقط بحال من الأحوال ، وكأن العفة والبعد عن الدنس مرتبطان بالنسب والحسب .

وإذن ، فقد كان الشاب يبيح لنفسه أن يحب حباً عذرياً ، وأن يتغزل ببراءة ، وأن يرسل قلبه كما يشاء سفيراً إلى القلوب حبيبا إلى النساء ، يشكو ويبكى ، وينفر النوم عن جفنيه ، ويذكر أيامه الحلوة بدمشق وفى شوارعها ومتنزهاتها موكل بالجمال يجرى فى أثره ، ويذكر أيامه كذلك بزحلة من لبنان وقد رتع على نهر البردونى (١) ، ويتبع غزله بفخر جميل حلو ، ويقول فيه إنه لسن بليغ وإن القوافى طائعات له ، وأن جواد شعره سبوق .

ولا يعجزنا أن نبرهن على هذا الحب والغزل واللهو ، ففى الديوان شعر كثير تفرق فى ثناياه شبيه بالشعر الذى أنشد فى عهد القدماء ، يتغنى بليلى وأخوات ليلى من الخفرات الجميلات ، فيشكو ما يلقى من الوجد بهن والسهر لهن ، ويعترف بأنه أسير الهوى ، يطلق الدمع كلما حن قلبه وظمئت عيناه ، وخفق جنانه ، فهو مفتون أبداً بالجيد والعين والقوام ، وهو نفسه يردد بأنه فاق فى ذلك الشعراء الغزلين فيقول :

---

(١) وهو نهر يمر بزحلة ، صخابا صاخبا على صفره .

لم يكن مثلى فى صرعى الهوى   ما ابن حجر ما جميل ما عمر

فليس يشبهه ابن حجر وامرؤ القيس فى غزله . ولا جميل بثينة ولا عمر ابن أبى ربيعة ، وفى هـذا فخر عجيب كفخره بنسبه ، لعله يريد به أنه رقيق الاحساس شديد الشعور عظيم الشغف لا ينخفض عن هؤلاء المشهورين من الغزلين فى الشعر العربى .

* * *

وهكذا قضى الشاعر الخليل مطالع شبابه يتسلى بالغيد ويمرح فى روض الشباب لينسى وحدته وغربتـه فى الدنيا بغير معين ولا أهل ولا أصدقاء . فإذا قامت الحرب الـكبرى ولعلعت المدافع فى الغرب ، ظل الشاب فى مواقفه الغزلة أول الأمر ينشدنا أغانى قلبه وأناشيد حبه ولوعة غرامه ، فيبث فى ديوانه قصائد الغزل لسنة ١٩١٥ وما بعدها ، وهى ليست قليلة ، وليست قصيره ، ولـكنه كان خلال هذا كله يرسل بعض شعره فى اليتيم الجائع وبعضه فى وصف الحزن والبؤس . فلعله تأثر بمشاهد الحرب والفقر . بل لعله التفت إلى موقع العرب وحال الأتراك . ولـكننا لا نجد فى الديوان كثيراً من الشعر ضد العثمانيين خلال هذه الفترة . وإنما نقع فى حاشية الديوان (ص ٣٤٢) على كلمة تقول إنه سيق مع ابن عمه عثمان مردم إلى الديوان العرفى . وأن ابن عمه كان من أشد الشبان تعصباً للقضية العربية وأنه دعا أيام حكم الأتراك إلى السياسة العربية . فلعله قال وقال ابان ذلك شعراً لا نـكاد نظفر به فى مواقع بارزة . وسنرى أن الخليل كان يصب شعره فى حب قومه وفى الدفاع عن قضيتهم الـكبرى وهى الاستقلال والحرية حتى قالت الحاشية فيه وفى ابن عمه : « وكان صغر سنهما الشافع فى اطلاق سراحهما وعدم الحكم عليهما بعقوبة الإعدام » . ولا شك فى أن الشاعر حين يقول إنه استحق عقوبة الاعدام آنذاك : كان لعمل مثير ونشاط جدى وسعى فى خدمة العرب . وكره الأتراك . فما رأيناه يحدب عليهم أو على غيرهم . وما عرفنا

فيه عكوفا على لغتهم أو عطفا على تاريخهم . ولكن الخليل كان ثائراً كما يكون الأديب الرقيق المخلص ثائراً . لذلك الحين . يظهر حبه للتراث العربى . ويفضل العرب على غيرهم . وهذا الذى أثار عليه الأتراك . بل لعله كان على صلة بهؤلاء الزعماء الذين كانوا يتنادون لحرب الأتراك فى سبيل حرية العرب . وبيوت أهله وأعمامه وأبناء عمه كانت مباءة لهـذا التحرير وهذه الدعوة .

وإذا كانت النتائج تدل على المقدمات فى كثير من الأحيان فإن الشاعر انتصر أواخر الحرب للفتح العربى والملك العربى وفرح بالحسين نسل النبى . وصفق للعهد الجديد المشرق حين استقلت الشام فراح يقول :

وقام بالأمر من كان الأحق به ... نجل النبى الحسين الطاهر النسب
قرت به أعين من قبل قد سخنت ... بمدمع بالأسى والبث منسكب

ودلل بذلك على ما كان يحس الشاعر خلال الحرب وما كان يسكب من دمع الأسى والبث فى بكاء الحرية ورسم الفواجع والأحداث . ولعله وصف بعد الحرب ما كان يحسه خلالها فقال فى هذه القصيدة :

وكم مخدرة للنوى قد برزت ... ترى أباها على الأجذاع عن كثب
وغير ذلك ما لو كنت ذاكره ... أمليت جما من الأسفار والكتب

فهو يعترف أنه لو كان يكتب فى وصف تلك الفواجع لأملى سفراً كبيراً وحبر كتباً كثيرة . ولكنه لم يفعل فسكت كما سكت غيره ممن نعرف من شعراء سورية فلم يرسل الشعر ضد الأتراك لأن الشعراء آنذاك كانوا بين نارين نار الظالمين من العثمانيين وهم جيران وأبناء الشرق وكانت تصلهم منذ قليل رحم ورحم . ونار أخرى هى نار الحلفاء من فرنسيين وانكليز وهم يتربصون بالعرب الدوائر ، وإن كانت مواعيدهم تنطلق فى الدعاية

لصداقة ظهرت آثارها بعد قليل هى صداقة الذئب والحمل ، لا عهد ولا وفاء ولا ذمام .

فلما دخل الجيش العربى وعمّت الأفراح بالفتح العربى قال خليل مردم فى القصيدة نفسها :

لك الهنا بدمشق الشام قد برزت — تستقبل الجيش فى أثوابه القشب
خذ سمت لبنان فالشكوى لقد عظمت — وسر لبيروت ثم اخلص إلى حلب
لا زال يخفق فى أرباعنا علم — مربع اللون (١) نفديه بكل أب

فهو يدعو إلى وحدة عربية تحت راية هذا العلم تجمع الأقطار العربية كلها ، يريد لها الهناء والعز والسؤدد والحرية . فلما كان الحاكم العسكرى رضا الركابى فى الحكومة العربية ، وكان رئيس مجلس الوزراء أنشد فيه قصيدة تبين عن هذا الذى كان فى صدره من جراح خلال حكم الأتراك فقال (٢) :

أحلت ذراهم واستبيح حماهم — وسيموا هوانا سادة وموا ليا
غدوا هدفاً من بعد عز ومنعة — ولا دافع يرميه من كان راميا
يساقون باسم الدين للموت عنوة — وهل كان إلا منهم الدين ناشيا

وبذلك هاجم هؤلاء المتسترين بظل الدين من الأتراك الذين اضطهدوا العرب وأذلوهم وجعلوا زعماءهم طعمة للجذوع فنضرتها هوج الرياح كما يقول وذهبوا برؤوس القوم على أعمدة المشانق . وهو لذلك يربأ بالعرب أن يتخلصوا من نير الأتراك ليقعوا عبدانا فى قبضة غيرهم فيقول :

ما حررت من قيود الترك أنفسنا — حتى نكون لغير الترك عبدانا
تأبى دماء زكيات لقد سفكت — وأنفس بالحمى زايلن أبدانا

(١) كان العلم العربى آنذاك يتشكل من أربعة ألوان هى الأبيض والأسود والأحمر والأخضر.
(٢) الديوان ص ٢٨٦ .

ومن لنيل العلى فى كل ملحمة   توافدوا للردى شيباً وشبانا
أن يستباح ذراع من مواطننا   فى سهل سيناء أوفى حزن لبنانا
ومن يك الدم لاستقلاله ثمناً   فلن يلاقى بعد الربح خسراناً

كذلك كان الخليل ينشد فى فاجعة قومه تحت حكم العثمانيين وفى أنهم دفعوا ثمن الاستقلال غاليا فربحوا ولن يسمحوا بشبر من الأرض العربية لأجنبي ، فهو يرى الوطن العربى كله جزءاً واحداً لا يتجزأ .

وكان نصيب خليل مردم بعدهذا الاستقلال أن دخل فى وظائف الدولة فعين مميزا لديوان الرسائل العامة ، سنة ١٩١٨ بعد أن بلغ الثالثة والعشرين من العمر ، وكان من مهمته فى هذا العمل أن ينقح ما بين يديه من أوراق ، وأن يصحح الألفاظ وأن يختار أشرفها وأنقاها ، فقد عرف بمتانة التركيب وجزالة التعبير فأخذ عن فحول الكتاب والشعراء ، وسار على سنتهم فى الفصحى ، فقد ساد القوم شعور عربى عميق فى الرجوع إلى الأمجاد العربية وفى السير على سنتهم وأساليبهم ، فوضعوا نماذج بارعة يقلدونها ويحتذونها ، منذ الجاهلية وعصر الأشراق والبلاغة فاستطاعوا أن يكونوا صورا منها ، ولذلك كان الشاعر يميل كل الميل إلى نقاء التعبير وشرف التركيب . فنجح فى وظيفته الجديدة وظل يمارسها حتى أواخر سنة ١٩١٩ .

وفى هذه الحقبة كان الشاب على مقربة من سادة الحكم الاستقلالى يمرح فى فرح النشوة العربية ، يصبح على وجه عربى ويمسى على وجه عربى ، ورجالات العرب من كل الأقطار المجاورة فى خدمة الملك الجديد والعلم العربى، عسكريين وساسة وشعراء فاجتمع حول البلاط الجديد من الأردن وفلسطين ولبنان والعراق ، ما لم يجتمع منذ عهود المرداسيين والحمدانيين أو عهد صلاح الدين وأفاد الشاب من ذلك تاريخاً حياً كان يسجل لزمانه ، وتكتب صفحاته المشرقة لأيامه، فقد كان الملك ظلاللوحدة الكبرى ونواة

لانطلاقة عظمى فى تحرر العرب واجتماعهم تحت علم واحد ، فكانت أمة العرب تبنى مجدها من جديد وكان الخليل ينعم بهذا الشعور ، وينتشى بهذا الفرح، وتغمر نفسه مشاعر العظمة والطموح وتغتلى فى صدره نوازع الإمارة والوزارة والرئاسة ، وظل كذلك ماعاش ، يذكر ولادة هذه النوازع ويمنى نفسه بتحقيقها ، فكانت هذه الفترة دافعة إلى ما نراه من تسنم الخليل امارة البيان فى صحبه ، وزعامة المجمع فى اخوانه ، ووزارة الدولة فى أنداده .

وراح الخليل فى ذلك الحين يفخر بانتصارات العرب ، ويندد « بغورو » قائد الفرنسيين ويذكر بانكساره فى الدردنيل ، ويلوح له بأنه لن ينتصر على العرب فيقول :

وما هى إلا صرخة ثم أختها ... تطير لها الأبطال من كل مجثم
فمن مبلغ «غورو» ومن لف لفه ... وشايعه من كل من قلبه عمى
مقالة صدق إن وعاها أحس فى ... جوانحه ما دونه أم ملدم
إذا ماكبا فى « الدردنيل» إلى يد ... ففى الشام يكبو لليدين وللفم
لأنا أناس ما استبيح لنا حمى ... ولا حرم من عهد عاد وجرهم

وهو خلال هذه القصيدة يدعو لفيصل الأول بأن لا يثلم الله حده ، وأن يبلغ العرب على يديه أمانى الشعب العربى فى الوحدة والكرامة والعزة.

ولكن هذه الأمانى خابت خيبة مريرة فتكالب الحلفاء على الغنائم ، ونكثوا الذمم والعهود ، وانقلبوا على العرب وقسموا الربوع الكريمة إلى مناطق استغلال واستعباد ، فدخل الفرنسيون دمشق غدرا ، وقضى على استقلال هذا الاقليم فى تموز (يونية) سنة ١٩٢٠ .

وترك الخليل الوظيفة وانصرف إلى بيته فقد كان هؤلاء الفرنسيون يعرفون أنه كان من أنصار الحرية والاستقلال وأنه عمل تحت لواء الملك العربى وأنه من دعاة العروبة ومن ألسنتها الناطقة ، فلن يثقوا به ، وهو من

ناحيته يكرههم ويكره لغتهم ، وما عرف عنه أنه مال إلى لقائهم أو إلى ثقافتهم فانصرف إلى النضال يغذى ديوانه بالشعر القومى ، ويسلم إليه أجمل ودائعه ونفثاته الحرة ويجعل نفسه فداء للوطن ويضع أولاده فى خدمة العرب . فيقول فى سنة ١٩٢١[1] :

أنا ما حييت فقد وقفت لأمتى نفسى ومالى فى سبيل بلادى
فإذا قتلت وتلك أقصى غايتى لى فالوصية عندها أولادى
بنت لتضميد الجراح ويافع يعنى بتثقيف القنا المياد

وكأنه بذلك أراد أن يقول لأبناء وطنه أنه ما زال فى خدمة بلاده وأنه وأسرته فداء لهذه البلاد ، فإذا قتله الفرنسيون فإبنه يقوم للرماح يسددها فى صدورهم ، وابنته تقوم لتمريض العرب فى سبيل المعركة الكبرى . ونشر فى هذه السنة نفسها قصيدة جعل عنوانها « الاستقلال أو الموت » . بسط فيها غدر الحلفاء الأعداء ، ونكث اخوان السلاح الجبناء . وشرح أعمالهم فى ربوع العرب فقال :

إن المواثق والعهود تمخضت عن شوب مكر عاد بعد مراحا
حلفاؤكم حسبوا البلاد غنيمة جادوا بها إذ قسموا الأرباحا
الحكم لله المهيمن لا لهم ذل الذى يلقى الغداة سلاحا
لا خير فى وطن ولا فى أهله ما دام محتل الذرى مجتاحا

وهى قصيدة عامرة بالوطنية تدعو إلى الفداء والثورة وحمل السلاح على المحتل المستعمر الجائر ، وتهيب بالكتائب أن تهيج وبالأسنة والرماح أن تشتجر ، لايهاب ولا يخاف بل يقتنص كل فرصة ليشيد بالبطولة ضد الظالمين ، حتى أنه نظم قصيدة فى حاكم « كورك » الايرلندى ، يرثيه وقد أضرب

---

(١) الديوان ص ١٥٤ .

عن الطعام وظل إلى أن مات احتجاجا على التعسف البريطانى ، فرأى الخليل فى قصة موته صورة للتضحية الوطنية ومناسبة لاذكاء الروح القومية فى أهله ووطنه فقال فيه :

ويالك ميتا أحيا شعوبا   وشاد لها على الأيام ذكرا
فديتك هل نذرت النفس يوما   على منع الحمى فوفيت نذرا

والشاعر يرى أن البطل الذى يضحى بنفسه فى سبيل قومه يبنى لهم من عظامه بناء مشمخرا إلى العلاء وصرحا ساميا إلى الاستقلال والنور . والغريب أنه يعد هذا الايرلندى أن يثأر له ، لأنه نذر نفسه للحرية فقال :

كأنك من ذوى قرباى لما   رثيتك باكيا نظما ونثرا
ولم تك ذا ولاء فى معد   ولم تبلغ بك الأجداد فهرا
ولكنى بكل فتى كريم   أخى ثقة عزيز النفس مغرى
فنبئنى أعيش المرء خير   بذل أم رداه فأنت أدرى

بهذا بلغ الشاعر ذروة الإنسانية فى الفداء والشعر القومى فتآلف مع كل ثائر فى الأرض ورأى فى كل قومى أخا له وإن لم يكن من العرب أو لم تكن نسبته إلى معد أو فهر أو عدنان . فكل عاشق فى الأرض للحرية أخوه وكل مغرم بوطنه شقيقه وكل ضحية فى سبيل الكرامة هو من بنى جنسه وإن كان من الانكليز أو الايرلنديين وقد اشتهرت القصيدة فى لبنان وأكبرها الأخطل الصغير بشارة الخورى ونقلها إلى جريدته « البرق » البيروتية ، وأثنى على صاحبها كل الثناء .

وسرى الحب فى جسد الخليل وفى عروقه وغلت قوميته فى الدفاع عن الحمى وفى الذود عن اللغة العربية فهو يراها واسطة الوحدة وطريقة التآخى . وكم نادى فى العرب أن ينبذوا التقاطع وأن يصلوا بين الأرحام وأن يهبوا لربط الأواصر والوشائج ، ففى جمع الشمل وفى الوحدة كرامتهم وقوتهم ،

وقتل أعدائهم والمتربصين بهم ، وأما الدين فلا يفرق بين أهل الوطن ، وإنما هو لـكل فرد غذاء روحى وجنة فـكرية فقال :

قالوا وفى الدين بون دون وحدتنا إلى متى باسم هذا الدين نقتسم
لئن أصروا على أهواء أنفسهم لا الدين يبقى ولا الدنيا ولا الشيم

وهذا تفـكير عميق واع لزعيم من زعماء الأدب فى هذا الاقليم ، جرى على السياسة فى النظم ، وعلى جمع الوحدة باسم اللغة والأرض والتاريخ ، وجعل الدين بعيدا عن النزعات الوطنية فهو يوحد ولا يفرق ، ويجمع ولا يشتت على عكس ما يرجف المستعمرون ويصنع الفرنسيون إبان حلولهم عالة على الاقليم وأهله

وسرى هذا الشعر فى الأقاليم العربية ، ودوت شهرة الشاب بعد الحرب ، فخطبته جريدة « السائح » فى نيويورك ، ورجت منه أن يبعث بنظمه إليها ، فـكتب يندد بالخونة والدساسين والعذال والحساد الذين طفقوا يترصدون لفضله وشعره ، فيوغرون عليه الصدور عاملين من غير شك بأمرة المستعمر ، سائرين فى ظلال هداياه ورشوته ، فضاق بهم صدره وصاح فى القصيدة يرجو أن يخلصه الناس من الدساسين ، فهم أعداء لـكل فاضل ، حساد لـكل نابغة :

لقـد طويت ضمائرهم على الأضغان والأحن
وفيهم كل مشـاء خبيث السر والعلن
برمت بهم فمن لى بالـ ـذى منهم يخـلصنى

وهكذا أبدا الشاعر يحس بأن الشهرة تكلف صاحبها عداء النفوس الضعيفة. فالعيون المريضة لا تطيق أن ترى النور الباهر وتـكره أن ترى الشمس أو أن تواجه قوتها. فـكيف وقد بلغ الشاعر أشده ، وتجاوزت شهرته حدود بلاده، وأصبح معروفا فى العالم العربى، تنشر له لبنان قصائده ، وتخطب صحف المهجر نظيمه ، وتصله الرسائل فى مدحه وفى الثناء عليه .

وهذه الصلة بينه وبين شعراء المهجر دفعته الى التفـكير بانشاء « رابطة أدبيـة » فى دمشق على غرار « الرابطة القلمية » فى نيويورك . فأسس

مع صحبه هـذه الرابطة وأنشأ معهم مجلة لها ، دخلها معه أدباء ذلك العهد وشعراؤه وفيهم . محمد الشريقى ، ابيفانوس ، شفيق جبرى ، حيدر مردم بك ، سليم الجندى ، حليم دموس ، أحمد شاكر الكرمى ، قبلان الرياشى ، عبد الله النجار ، جورج ريس ، نسيب شهاب ، مارى عجمى ، نجيب الريس ، فخرى البارودى ، وغيرهم . .

وهكذا اجتمع الشعراء والأدباء على صعيد واحد ، حول الشاعر وانتخبوه رئيسا للجنة الإدارية ، وعمره ست وعشرون سنة، سنة ١٩٢١ .

وكانت «الرابطه» تعقد كل أسبوع اجتماعا يلقى فيه أحدالأعضاء محاضرة فى موضوع معين . وراحت المجلة تنشر أطايب القول من شعر ونثر وفيها ترجمة وفيها قصص ومقالات نافعة ، أفادت الأدب فى هذا الإقليم كما أفادت مجلة « أبولو » فى الإقليم المصرى ، وكما أفادت غيرها من المجلات الرفيعة ، فكانت مدرسة للأدب العالى .

وفى هذه المجلة طفق الشاعرينشر قصائده ومقالاته ودراساته . ومن هذه القصائد شعر فى الغزل افتتحه بمطلع رقيق فى «مى» وكانت موضوع غرامه ، وما ندرى من هى هذه الفتاة كما نجهل كيف تعلق بها ، فليس فى الأبيات شىء يدل على حكاية حبها ، وإنما فيها نار يصفها بقلبه وهيام بلبه وفيها يطلب إلى خليليه أن يعيناه على حبه .

ونشر غيرها فى هذه المجلة وصف بها عرس صديق له اسمه ميشيل سعد ، ورسم الرقص فقتح بها فتحا جديدا يدل على أن الرجل بدأ يتسلق إلى الشاعرية ، ويمهد لقصائده الجميلة فى الرقص بعد ذلك . فقدصور كيف خاصر الشاب حسناءه ، وقد علقت به وعلق بها ، وظلا يرقصان على المثانى ضروبا من الرقص لاتجارى ،فهما طورا مثل ريم نافر يطوى القفار وطورا مثل فرخ ساقط يطأ الأرض ، وهما مع ذلك يتعاطفان حينا ويتباعدان حينا آخر .

ونلاحظ أن الشاعر كان خلال هذه الفترة شديد التأثر من حساده وقالة السوء فيه ، ينعى عليهم النفاق والرياء والخداع ، ويتألم من هجومهم عليه ، وهو الهادىء الرزين المتزن ، الحزين غالبا ، الساكن دائما ، الساكت أبدا ، لا يكاد يتناول أمرا بلسانه مما يؤذى الناس أو يجرح شعورهم حتى لقد صرح بعدائه لأولئك الذين يتظاهرون بخلودهم إلى البيع والمساجد والأديرة ، وهم على أشد الضعة والفساد . وهو يعلن الشكوى فى شعره ويندد بالقوم فى بلده ، كما ندد المتنبى قبله وندد غيره من الشعراء فيقول :

أعالم أنت من أبكى وأندبه فاننى أندب الاسلام والعربا

وهو لذلك يصرح بأنه مل المقام بأرض هذه طباع أهلها وشرور ناسها . وهو يعرف أنه يتعرض لهجوم هؤلاء القوم ، ولكنه يجهر بقوله ولو نذروا دمه على حد تعبيره ، فهم أجدر بالرثاء والبكاء . وهو حين ينهض لتكريم الكاتبة الكبيرة « مى زيادة » فى قصر البلور بدمشق سنة ١٩٢٢ يقول فى قصيدته[1] :

يا حسرة على الأديـ ـب والفتى المهذب
مضيعا كمصحف أمسى ببيت النصب[2]
فنحسه فى صعد وسعده فى صبب
رنا إليه دهره بوجهه المقطب
ضاق عليه وحده صدر الفضاء الأرحب
نهاره وليله فى سهر ونصب

فهو يصف الأديب وضياعه فى هذا البلد، ويرسم النحس الذى ينصب عليه والدهر الذى يقطب له ، وعيشه الذى ينقضى فى الأسى والسهر والنصب .

---

(١) الديوان ص ٢٤٨ .
(٢) النصب : الأوثان .

وهو يرسم حاله وحياته بعد أن كثر الحساد والأعداء ، فكأنه يريد أن يقول إنه أبداً فى حزن لهجوم خصومه عليه يضيعون ثمين راحته وجمال خياله ، فيقضى نهره ولياليه فى هم وكرب ، وكان فى غنى عن التفكير بهؤلاء لو أتيح له أن يعيش خارج مجتمعه وبيئته ، ولكن الشاعر فنان يتنفس برئة قومه ويحلق بأجنحة التشجيع والتكريم فيغنى كلما استحسنوا ويطرب كلما طربوا لقوله وفنه

ومن العجيب أن يقول هذا الشاعر فى تلك الآونة قولا يدل على ضيق بالناس والوشاة والحساد، فهو يردّد فى حسرة أنه لا يجد فى العيش أربا، ويحسب أن الأمانى هوس وكذب ، فهو ويكره الحياة ويتمنى الهرب منها ليخلص نجيا من الناس ، حتى ليظن دارس ديوانه بأنه غدا متشائماً حين يقرأ أبياته التالية التى نظمها وهو فى السابعة والعشرين من العمر سنة ١٩٢٢ ، إذ يقول :

لعمرو أبيك الخير ما ازددت خبرة ... بدهرى إلا إزددت شؤما على شؤمى
يخيرنى أمرين لا خير فيهما ... تظلم غيرى أو قراراً على الظلم
شقيت وكم تشقى الحقيقة أهلها ... فمن لى بأن أقضى حياتى بالوهم

ولعله تأثر فى هذه السن بقراءته لشعراء العقل والحكمة ، واستنجد بآرائهم وأفكارهم ، فعاشر أبا العلاء المعرى وشغف به ، بعد أن عكف على البحترى وصحبه زمناً كما صحب ابن المعتز بل لعل الفراغ والوحدة والبعد عن العمل هى التى ساقته إلى هذه النزعة فى التفكير فراح يشقى بالحقيقة ويتمنى أن يقضى حياته بالوهم . بل لعله فوق هذا وهذا تأثر بخيبة أمانيه وأمانى الشعب العربى فى هذا الأقليم حين سقط «فيصل الأول» عن عرشه وغادر أرض الشام إلى العراق ، ووقعت بلاده فى قبضة الفرنسيين ، وكان يمنى خياله بهذا العرش العربى وهذا الملك العربى ، ويعيش فى ظل الأمويين فيرجو أن يعود مجدهم على يد هذا الملك القرشى . ومن يدرى فربما كان الشاعر يرجو أن يكون شاعر هذا الملك الأموى الجديد كما كان زملائه من

قبل شعراء لهذا المجد العربى فيغنى وينشد ويملأ كئوس الشعر دهاقاً من نظيمه ، ويسكر الدنيا الجديدة بقوافيه كما أسكرها قبله الأخطل وجرير والبحترى وأبو تمام . وكان يبنى هذا الرجاء على ما وقع له من عز إبان هذا الملك فدخل الوظيفة كما رأينا لا طمعاً بالمال ولا حرصاً على المرتب ، وإنما حرصه على الظهور بمظهر الرجل الرسمى والشاعر الرسمى الذى ينشد الرمز ولا ينشد الشخص ، فهو يعيش بجناحين من الشعر القديم والمكانة الجديدة ، ويتمنى أن يكون لبلاط دمشق شاعر الامبراطورية أو التاج . كما كان شكسبير وكما كان غيره من شعرا العرب والغرب .

والذى يسوقنا إلى هذا الرأى قصيدة رأيناها فى الديوان نظمها خلال هذا العام (١٩٢٢) وجعلها رمزية ، سطر فيها أثر الملك فيصل ، وذهابه عن عرشه ، وقد نقل إليه أن بعض وزراء فيصل قد زينوا للقائد الفرنسى المغير « غورو » أن يدخل سورية حرباً وأطلعوه على خارطة الدفاع ، قبيل وقعة « ميسلون » الخالدة التى استبسل فيها « يوسف العظمة » وزير الدفاع السورى ومعه بقية الجيش السورى ، فماتوا دون التسليم وأصبحت جثثهم شواهد على الغدر الاستعمارى ومنارات للضحية والفداء .

وهو فى هذه القصيدة يعزى العرب والخلفاء الراشدين وبنى عبد شمس وآل العباس ويشاطرهم الأحزان لسقوط سليلهم عن عرشه فى دمشق . ويرثى قصر « فيصل » كما رثى البحترى قصر الجعفرى والمتوكل فيقول :

زر ساحة القصر قصر الملك تلق به ... ما يجعل العين تزرى الدمع منسجما
أرجاؤه مقشعرات لقد نشرت ... كآبة البين فى أجوائه غمما
أضحت خلاء مغانيه وآزره ... من مرهف مخذماً أو مرهف قلما

وهو بذلك يقفو أثر البحترى ويصور الأرجاء فى حزن وكآبة وغم ، فكأنها أصبحت خلاء تغنى فيها الرياح الحزينة .

أجل ، لقد خابت أمانيه فمات رب التاج وخلا القصر من سادة العرب وتحول الاقليم إلى جمهورية كاذبة وولايات متفرقة ودويلات مبعثرة ، وقام « برلمان » نظر إليه الشاعر نظرة السخرية والهزء ، فاستخف برجاله ورأى أن عيونهم خاشعة وأن رءوسهم مطرقة حياء وأنهم يساقون إليه كما يساق المجرمون إلى ساحة الإعدام ، فلم ترتفع يد لتحيتهم ولم تتحرك كف بريئة طاهرة للترحيب بهم فأخذوا أمكنتهم من البرلمان وكأنهم خشب مسندة أو أصنام مصفوفة ، فدعا الله أن يرسل نبيه « ابراهيم الخليل » عليه السلام لتحطيم هذه الأصنام ، ويخلص البلاد من أشباه الرجال وكان ذلك سنة ١٩٢٤ ، وقد بلغ السيل الزبى وساءت حالة الإقليم وشعر السوريون بأنهم بلغوا فى السياسة إلى منحدر لا ينجيهم منه إلا فداء ، وبطولة وتضحية ، فاختمرت الأفكار ، وتهيأت الأمة لثورة اندلع لهيبها سنة ١٩٢٥ ، فقامت فى كل قرية ومدينة ورابية وجبل شعل الحرية تتقد فى كل مكان ، وتنادى بالضحايا ، فما يبنى الممالك كالضحايا .

وهيأ لهذه الثورة رجال الفكر والأدب والسياسة وقام الخليل بنصيبه من هذه الشكوى ، يبكى المحن التى لاقاها العرب ، فهم قد زرعوا لكن سواهم قد جنى ، وأحسنوا فحصدوا الاساءة ، فراح يصيح فى قومه بالثأر ، ويرسم أهله فيقول :

على الوجوه علامات الأسى ارتسمت   وفى القلوب سعير البث قد وقدا
ترى الكآبة ممدوداً سرادقها   وغيمها بسماء الشام منعقداً

وأعاد إلى الأذهان ذكرى الشهداء والضحايا ، وذكر القوم بما كان لهم من بلاء ، ودعاهم إلى نبذ التفرقة والعمل للقضية ، وقال إن بقية السيوف ما تزال تنتظر ، وليس لليأس إلى قلوب المؤمنين سبيل ، ثم عاد ثانية إلى ذكرى ميسلون فى هذه السنة ، فصور دمشق صورة حزينة باكية لفقد استقلالها وسيطرة المغتصبين فيها ، ورسم الهضاب كالقبور والرياح تتناوح وصاح :

حق الملاحة أن تصان وما أرى أهليك هذا الحق قد وفوك

فهو يهيب بقومه أن يحموا هذه البلاد الجميلة وأن ينتصروا لها وأن يخلصوا العمل فى سبيلها لانقاذها ، وما وقف الشاعر عن التنديد والتذكير ، فى كل قصيدة نظمها خلال هذه الآونة ، فقد فهم الشعر رسالة وعملا ، وقال فى وصف هذه الرسالة :

أرى الشعر أنفاسا يصرفها الفتى فيطفى بها جمراً ويذكى بها جمراً
وينفخها روحا بميت أمة فتنسل من أجداث غفلتها تترى

وهكذا وقف الرجل شعره، على إذكاء الجمر فى إحياء الذكرى وبعث الحمية ، ونفخ الروح فى أمته لعلها تنسل من جدث غفلتها وتثور لكرامتها .

والحق أن الرجل لم يكن ينصرف إلى هذا الشعر فحسب ، وإنما كان يعنى بالأدب وبالتراث القديم ، فطبع كتاباً قديما هو «معانى الشعر للأشنانداني» سنة ١٩٢٢ ، مع لفيف من زملائه ، وكتب كتاباً عن « شعراء الشام فى القرن الثالث » يدل أشد الدلالة على حبه لهذه الأرض وشعرائها وأدبائها ، وظل كل حياته يعمل لهؤلاء فى رعاية وعناية ودقة وحب ، تشبه أشد الشبه حرصه على كرامة الأرض واستقلالها وعزتها وحريتها .

وكافأه المجمع العلمى العربى بدمشق على جهوده فى الشعر والنثر والنضال والكفاح ، ورأى فيه خادما من سدنة هذه اللغة العربية الشريفة ، فانتخبه عضواً من أعضائه العاملين فى ٩ كانون الثانى (يناير) ١٩٢٥ ، وقد بلغ الثلاثين من العمر ، وختم الرجل هذه المرحلة الثانية من حياته الشعرية بشهادة عظيمة ومرتبة كريمة هى احتلاله مقعداً من مقاعد الخالدين فى هذا الأقليم ، إلى جانب الأعلام الفحول من سادة البيان والمعرفة والفكر فى العالم

العربى ، فقد كان المجمع العربى بدمشق وحده آنذاك يحرس اللغة ويجند لها الكفاءة والقوة ويصنع لها الخير ، ويهيء لها الحصون المنيعة ، فهى رابطة القومية العربية ، وهى وسيلة من وسائل الوحدة العربية الكبرى ، وكان خليل مردم من خير جنودها آنذاك فافتتح مرحلة من مراحل حياته ، لعلها من خير أيامه وكان فيها إنتاجه الشعرى على صعود ووثوب مما نراه فى المحاضرة القادمة .

ألوان شعره

وإنتاجه

إنصرف الشاعر خليل مردم منذ دخل المجمع العلمى العربى بدمشق إلى مجالس المجمع ، وإلى تحرير مقالات رصينة فى مجلته العلمية الأدبية ، وراح يشارك السادة الخالدين فى أعمالهم اليومية ويعقد معهم الندوات الأدبية ، فكأن « عكاظ » عادت من جديد يتناشد الشعراء فيها تحت قبة المجمع أطيب النظم ، ويقرءون أحسن النثر ، اوكأن الكوفة والبصرة عاشتا من جديد فى هذه الدار التاريخية (المدرسة العادلية) تعوجان على اللغة والنحو ، وتعملان لإحياء اللغة والحفاظ عليها ، حتى كان من نتاج هذا المجمع تراث خالد يزهى به المعاصرون على الأيام ، فمجلته أنق الصحف وأرصنها وأبقاها ، ومقالاته أوفى الدراسات وأوثقها وأحلاها

ولكن هذا كله لم يكن ليصرف الشاعر عن نضاله وجهاده فقد جعل شعاره قبل قليل قوله :

إذا لم ينبه شاعر القوم قومه فذاك بأن يشقى به قومه أحرى

فراح يتابع رسالته الخالدة فى الدفاع عن قومه وفى تنبيه غافلهم والرد على الخونة المارقين ، فلما أتاه أن بعض السوريين فى مصر وقفوا فى شرفة منزلهم ينثرون الورد على الجنود الانكليز أثناء مرورهم فى شوارع مصر ويصفقون لهم فرحين وذلك فى حادثة مقتل حاكم السودان ، هاله الخبر ، وعرف ان سمعة إخوانه فى مصر تسىء إلى الوطن العربى ، وأن هذه الشرذمة الضالة التى تعيش على فتات المستعمر هى التى تفسد نظرة المصريين إلى أكثرية السوريين ، نهض إلى التنديد بهؤلاء فأرسل قصيدة سنة ١٩٢٥ يقول فى مطلعها :

إن الذين تجافى عنهم الشرف ... الشام تبرأ من عار الذى اقترفوا
كادوا لها قبل أن كادوا لمصر فلا ... تؤاخذوها بذنب منه تنتصف

إلى أن يقول :

لا بد من ساعة فيها سيدركهم ... على الذى كسبت أيديهم أسف
أستغفر الله لو أعطيت خلقهم ... لكان يصرفنى عن خلقهم أنف

وناداهم بقوله :

إن المصائب والأحزان تجمعنا ... والسعى والأمل الفينان والهدف

فدافع عن الإقليم ، ورد هؤلاء الشاذين إلى صوابهم ، وفسر لاخوانه فى الإقليم المصرى أن المتنكرين لمصر هم الذين تنكروا للشام، فصحح الوضع وأقسم أن سكان هذا الإقليم إخوان للإقليم العربى المصرى ، وأن أهل الشام على العهد باقون يدافعون بدمائهم عن إخوانهم إذا دقت الساعة وحان وقت الجهاد . فدفع الضر عن مصر هو دفع للضر عن الشام .

وتابع الخليل قصائده لهذا العام يذكر بالشهداء من العرب الذين علقوا على المشانق فى حفلة الشهداء لذكراهم ، وقال إن الشهيد على الجذوع أجل من كسرى على إيوانه مجداً وعظمة وجلالا ، ونادى بالسوريين أن ينهضوا للدفاع عن أرضهم فرأى أن تحرير البلاد أمانة فى أعناقهم . وعاد إلى ذكرى الشهيد يوسف العظمة وصحبه الذين قتلوا دون حدود بلادهم دفاعاً عن أمتهم فماتوا لتبقى البلاد ، وقال يثير الحمية فى هذه القصيدة :

أفى التعقل أن نبقى وموطننا ... سبية يصطفيها كل مرتاد

وهو لا شك يحرك قومه ضد المستعمر الذى جعل الأرض نهبا لمنافعه ، وسلبها من أهلها ليستغل خيراتها ، فالناس فيها من قومه كالنساء السبايا يصطفيهن كل باغ مجرم .

فلما قامت الثورة السورية سنة ١٩٢٥ ، ولعلع الرصاص فى كل ناحية وزاوية ، واشترك القروى والمدنى فى حمل السلاح ، وهب السادة الأحرار إلى النار يرسلونها شواظا على الأعداء ، ولاذ الثوار إلى الحصون والجبال يصلون الجيش المنظم شر ما لقى هذا الجيش فى حياته ، فطاحت رؤوس الضباط ، وقتل الجنود ، وقلقت فرنسة لهذا الشعب الأعزل ، البرىء يقف أمامها بعد سنوات الحرب الأولى بقليل ، يشهر عليها الحرب ويطلب إليها النزوح وهى ما تزال تتغنى بالنصر الذى أحرزته على ألمانيا . وفزع الجيش الفرنسى لهذه الهزائم المتوالية فأجمع على الانتقام من النساء والأطفال والشيوخ والعجزة فصب نيرانه على البيوت فدمر الأحياء وهدم المساجد وأحرق الزرع وقطع الشجر ، وقتل الآمنين فى الطرق والشوارع وعرض الجثث والأشلاءفى الساحات ترويعاوتخويفاً ، لعله يظفر بالارهاب بما لم يقع له فى جبهات القتال ، فأصبحت البلاد طعمة للنار والدمار ، وصوحت الأزهار، وتساقطت الأغصان، وتحولت الغوطة الغناء إلى ساحات للصراع، وغدت العمارات الشامخة خرائب وأطلالا .

وهنا وقف الشاعر الخليل يذكى الجمر ويطفىء الجمركما قال ، فصور فظاعة البرابرة وشناعة هجماتهم ، وراح يقف بالخرائب ويرسم الوحشية فى القتل والتعذيب ، فكم فتى رضيع قتل ، وكم فتاة ناهدة صرعت برصاص الغدر ، والشعب متكاتف متفق فى الجلى والخطب يصفه الخليل فيقول :

ترى الحنيفى يوم الروع مبتدراً   إلى المسيحى فى البلوى يساعده
خلى حماه ليحمى عرض صاحبه   وصال خشية أن تؤتى موارده

فالدين لله والمعركة فى سبيل الحرية لا تنظر إلى دين أو عقيدة والنار تنصب على القطان من كل الأديان لا تفرق بينهم ، فالحمى وطن لهؤلاء وهؤلاء ثم يقول :

فتى دمشق اصطبر للخطب تجبهه   إن العروبة جيش أنت قائده
لا عذر فى اليأس مما كان ممتنعاً   إذا تقصيت أمراً أنت واجده

وبذلك يرسم طريق العروبة ، ويجعل أهل الاقليم قادة فى صفوفها الأولى ، يسقطون فى المعركة ليحموا الصفوف الأخرى من إخوانهم سكان الأقاليم الباقية

وهذه القصيدة أثارت الشعور وحركت الهمم ، ونشرتها الصحف العربية ، وتناقلتها المجالس ، فأصبحت على كل لسان ، وهبت السلطة الفرنسية إلى اعتقال صاحبها لتزج به فى السجن مع الزعماء الذين زجت بهم فى المعتقلات والمنافى البعيدة . ففر الشاعر إلى لبنان ، واستخفى فيه بقرية « المروج » بمساعدة صديقه الشاعر « أديب مظهر » . وفى هذه القرية راح الشاعر يبث بلده الشوق ، ويزجى التحية . ويبكى لفراقه ، ويتمنى أن يشرف عليه من أعالى الجبال بلبنان ليرى ربوعه وأهله ، فإذا بكت عصفورة ناجاها وبثها الشكوى كما فعل أبو فراس فى أسره ، وذكر وطنه بحرقة وألم ووجد .

وفى هذه القصيدة صور مذهلة من الحنين والأسى لبلاده المفجوعة ، ترسم حال الغريب النازح ، والأسير المهدد ، والوطنى الذى يتوعده الجواسيس ويترصدونه ، فأرسلت السلطة فى أثره بعد أن نشرت جريدة البرق البيروتية القصيدة ، فهرب إلى الاسكندرية سنة ١٩٢٦ ، ونزل عند شقيقته السيدة فائزة زوجة المرحوم الدكتور أحمد قدرى ، وكان الرجل من أعلام الثورة العربية ، ومن رجال فيصل الأول المقربين .

وفى الاسكندرية أرسل الشاعر قصائده يبكى ربوع دمشق ، ويذكر عهد « قاسيون » جبلها الشامخ ، ويستعيد صور جيرته ، ويحن إليها فيقول :

هل درت أن على النأى فتى   كاد يرديه إلى الشام الحنين
فلقد ود بجـــدع الأنف لو   شام أفق الشام أو قطع الوتين[1]

(١) الوتين : عرق فى القلب .

فهو يتمنى أن يراها ولو كان فى عودته الموت والنفس الأخير ، ولكنه لن يبلغ هذه الأمنية الغالية ، وهو فى الاسكندرية على جمالها موزع القلب بين أهله وربوعه ، تسيل كبده من الجراح وتندى مقلته بالدمع وتنتفض جوانحه من عصف الهوى ، فيرى الأطياف والأشباح ، ويسهر الليل ويقلق بالحنين .

ولقد استطاع الشاعر أن يتسلى فى غربته ببعض الشعر ، فصور ما رأى من مراقص ومشاهد ، فكانت قصيدته المشهورة السائرة فى الرقص من أجمل ما خطته يراعته فى هذه الآونة ، عملت روائع المناظر وحسان البلد على صوغها فكانت بارعة حقا . ولو كان الرجل على قرارة وهدوء لأسلم ريشته إلى الشعر وسما فيه إلى أعلى الذرى .

فقد كان للخليل بمقامه فى مصر أن يقرأ لشعراء مصر وأن يطلع على انتاجهم ، وأن يجتمع إليهم بعد أن سمع عنهم ، فأفاد من ذلك وعرف معادن العربية ومصانع اللغة ، ومنتديات الشعر ، ورسم من هذا ذكريات عزيزة فى مقالات كتبها بعد ذلك فكانت من أروع ما خلف الرجل فى دراسة الأدب وتحليله .

وتأثر من غير شك بجو الاسكندرية وثقافتها . ورأى فى هذا الثغر الجميل أثر الحضارة الغربية ، فنزعت نفسه إلى الدراسة العالية وقد حرمها فى دمشق. فقرر أن يقصد إلى انكلترة ، وسافر بعد أن أقام بمصر أربعة أشهر ١٩٢٦ وانتسب إلى جامعة لندن ، وفيها لقى الرجل آفاقاً رحبة ، واستمع إلى كتاب الانكليز ، وثقف لغتهم ، واطلع على آثارهم وآدابهم ، وخالط عيشهم وكان لذلك أثر كبير فى نفسه ظل يردده طوال حياته . ولبث فى تلك البلاد أربع سنوات كان يختلف فيها إلى الأندية والمحاضرات ويرجع إلى الخزائن والمكتبات فيفيد من ذلك ثقافة واسعة ، إلى شهادة فى الآداب حصل عليها بلندن تعادل الدكتوراه . وقد كان لوقوفه على الأدب

الانكليزى ورحلته فى الغرب أثر هام فى شعره ، لم يظهر خلال مقامه بانكلترة ، فقد سكت فيها شعره ووقف خياله فيما نرى . ولكن هذا الأثر ظهر بعد عودته إلى بلاده .

وعاد الرجل إلى دمشق سنة ١٩٢٩، بعد أن صدر العفو عنه وعن اخوانه، وكان مشوقا ظمآن متلهفا إل مواطن صباه ومرابع نشأته ، والجراح تحت ردائه لما أصابها من نكبات وهزات وفواجع ، فاستقبلها بقصيدة وطنية جميلة لعلها من خير شعره قال فى مطلعها[1] :

تلاقوا بعد ما افترقوا طويلا فما ملكوا المدامع أن تسيلا

وكأن هذا اللقاء كان بين عاشقين أو كأنه نسيب افتتح به قصيدته، ولكن العاشق هو الخليل والمعشوقة هى هذه البلاد ، التى رفعها فوق كل شىء وجعلها فوق كل حب ، فبكى لمن نجا فرحا وبكى لمن هوى حرا نبيلا ، وشاعت فى نفسه نشوة من دمشق فكأنه سكران من خمر معتقة ، وواتاه القريض ، واعترف أنه كان إذا استلهمه وقف منه بخيلا لايدر ولا يعطى ، وهذا هو سبب سكوته فى انكلترة كما قلنا ، وذلك هين بسيط إذا ماسئل عنه فإن دموعه هى التى تقول لا لسانه وأنه يوقع الشعر على خفقان قلبه ويرسله هتافا أو هديلا كهديل الحمام .

وأفاض الشاعر فى قصيدته هذه فرسم الديار وقد قامت فيها النار وتراقصت فى جنباتها ألسنة اللهيب فكأنها تكتب بهذا اللسان سطور اللعنات على المستعمر الذى أحال القصور الشامخة إلى دمن خوال ، وقف منها الشاعر موقف الجاهلى على بقايا الأطلال ، يبكى الأهل ويندب السكان ، ويذكر

---

(١) الديوان ص ١٢٦ .

الأحبة الذين وقعوا فى الأسر والتشريد أو سقطوا قتلى الغدر والطغيان ، فخطوا بدمهم سفرا يروى جيلا بعد جيل .

واعتذر الشاعر للديار بأنه ما كان يطيق الذل وما يصبر على الخنوع فصاح بملء فمه : « كلاّ ! » ، وأزمع عنها الرحيل، لأنه لا يريد أن يرى حا كما على أهله غبيا أو دعيا أو مخادعا يسىء إلى العروبة فى بنيها ويعصى فى حكمها الله ورسوله ، ويعترف بأنه كان فى الغربة يجاهد بأعصابه وأفكاره حتى عاد إلى الحمى هزيل الجسم معتل الفؤاد قد أصاب شعره اللهيب فحوله إلى رماد كما حول الديار فطغى الشيب فى رأسه ، وانحنى جسمه ، وهو ما يجاوز الثلاثين إلا قليلا ، فكأنه أساء جوار الشباب وهو ضيف نزل به فما عرف كيف يكرمه ويحفل به .

والتفت الشاعر بعد البلوى والشكوى إلى البناء فأهاب بقومه أن يقلدوا سير الغرب فى علومهم فهم قد سعوا إلى الأفلاك وملكوا الرياح وسخروها لأمرهم ، وغاصوا فى أعماق البحر ليدركوا أسرار الأعماق كما أدركوا أسرار الآفاق العليا . ولكنهم على هذه المعرفة الواسعة ينخفضون عن حضارة العرب ورقيهم ، فما يهابون إلا القوى وما يدوسون إلا الضعيف والكسول، فإن كان للعرب أن يعودوا إلى سالف المجد أو جديد الفخار فعليهم أن يجعلوا القوة شعارهم وأن يركبوا الأخطار وأن لا يهادنوا فى حقهم الصريح وأن لا يحسبوا حساب المستحيل ، وأن يحطموا القيود والأغلال .

واهتز الأدباء للقصيدة ، ورحبت بها الصحف ، وتناشد الناس فى مجالسهم غناء الخليل الحبيب والبلبل العائد ، وعرفوا فيه شاعرهم الطيب ، فأكبروه وأحلوه محلّ الود والإكرام .

وطفق الرجل يهز المشاعر لكل مناسبة يصطادها ، فوقف فى العام التالى

يعيد ذكرى ميسلون للمرة الثالثة فى شعره وقد انقضت عشرة أعوام على الفاجعة فيصيح :

أ «يوسف» والضحايا اليوم كثر   ليهنك كنت أول من بداها
زكا نبت البلاد وليس بدعا   زكيات الدما كانت حياها
فديتك قائدا حيا وميتا   رفعت لكل مكرمة صواها[1]

وتلفت بعد البطل والفاجعة إلى فاجعة الثورة فصور النار والدم وذكر أن الجنة فى الشام أمست جحيما وأمسى وقودها أبناؤها ، وهو مع ذلك يقول فى دمشق :

عبدناها نعيما أو جحيما   وألهمت النفوس بها هداها

فالوضع الذى ساد لن يدوم لأن هزل الزمان له آخر ، وقديما تاه ابليس فى الفردوس ولكن تيهه كان مهزلة مكشوفة . وكذلك مقام الفرنسيين فى بلاده .

ووقف سنة ١٩٣٣ يحتفل بالأربعين لوفاة الحسين بن على فنشر صحيفة الثورة العربية من جديد ، وذكرنا بصدق العرب وكذب الغربيين حلفاء أو أعداء ، بل الحلفاء هم الأعداء . وقال إن الحسين حذا حذو الرسول الأعظم فجاهد وناضل ولم يغره مال ولم يبطره عرش ، وذلك لأن القلوب كانت عرشا له ، وختم قصيدته بقوله :

سعيت وما بلغت مناك لكن   شرعت لنا الطريق فلن نجورا

ويبدو أن الخليل كان يستعيد هذه الذكريات ليرسم الطريق الحرة لقومه وليدعوهم إلى ثورة جديدة ضد المستعمر الجاثم فوق بلاده . فينشد هذه القصيدة فى الحسين وينشد غيرها فى رثاء شوقى فيبكى قصور دمشق التى غدت طعمة النيران ويندد بالزبانية الطغاة ، ثم يقول فى ثالثة داعيا

---

(١) الصوى : جمع صوة وهى حجر جعله العرب دليلا للطريق .

إلى الله أن يلهم قومه التجلد فى زمان باغ وأيام حالكة . ويقول فى رابعة لحفلة الأربعين بوفاة فيصل الأولى سنة ١٩٣٣ فيذكر بالماضى الذى رقصت له دمشق وبالأمجاد التى كساها والاستقلال الذى رتعت فيه :

وشب الثورة الأولى فأذكى   نفوساً كاد يدركها انطفاء
فعلمنا جزاه الله خيراً   طريقتها إذا طفح الإناء
وما دامت نفوس القوم يوماً   تثور فلا يزال لهم رجاء

وهو فى هذه القصائد كلها يثير الحماسة ويذكى الحقد ويدعو إلى الثورة ضد المستعمر لا يكاد ينسى ولا يني ولا يقف ، بل يصرح دائماً بأن الإناء قد طفح ، وأن الرجاء ما يزال معقوداً على الشعب فى طلب حقه والدفاع عن كرامته .

فلما كان ذكرى المولد النبوى خاطب النبي المعظم ، فاشتكى إليه وبثه ما يلقى الشعب وقال :

نحن فى الشام نقاسى   فوق أهوال القيامة
مالنا من أمرنا حتى   ولا مثــل قلامة
أخذوا الأمر وأعطو   نا المعالى والفخامة
هل يصير الهر ليثاً   حين تدعوه أسامة (١)

وبذلك يسخر من الاستعمار وعملائه الذين باعوا الوطن بألقاب زائلة وأموال باطلة ، والوطن فى أسى وحزن مما يسمع ويرى من مهازل . فلما حدثت حوادث الاسكندرونة ، نهض الشاعر سنة ١٩٣٨ يندد بالجار ، ويزرى بالمستعمر الذى يبيع قطعة من أرض العرب للأتراك ويهبها غنيمة لهم على حساب الأقليم السورى ، ويهيب بالعرب أن يثوروا لحقهم السليب وأن

---

(١) أسامة من أسماء الاسد .

يتركوا التخاذل بينهم فإن كثرتهم تعد فى نظره كالأصفار إن لم تكن للنضال والدفاع ، وأن ينهضوا لحماية فلسطين فهى مهد المسيح ومعراج النبى وأولى القبلتين . ويستصرخ الخليل حمية قومه فالجهل يخرب الدار ويزرى بساكنيها .

ولما تقدم الفرنسيون لعقد معاهدة مع الإقليم السورى وقف الخليل يسخر من الفرنسيين قائلا لهم إنهم جاءوا ضيوفا فأصبحوا أرباب البيت قسراً وغدراً :

ومنتدباً على برغم أنفى ولست بقاصر يوم النزال
يضن على من مالى ويسخو على غيرى بميراثى ومالى
يعلمنى الخشونة فى معاشى وينعم بالأطايب من غلالى

وهذا أحسن وصف للمستعمر فى كل بلد ، حين يسترق أهله وينعم هو بالخيرات ، ثم يوكل بالأحرار ضباطه ومستشاريه ، ويجعل للحكم أشباه الرجال من قومنا . وفى هذا النداء صراحة قوية لاتشبهها صراحة فى تلك الأيام جلبت للرجل الصيت الذائع وقربت إليه قلوب قومه ، فلم يعد يشكو حسداً أو غيرة كما كان يفعل وهو شاب ناشىء ، بل انصرف عن الشكوى إلى رسالة سامية هى الدفاع عن بلده وقومه بأساليب شتى وقصائد متتالية كلها صيحات وثورات ، يريد أن يرى قومه أحراراً كما رأى الإنكليز فى بلادهم أحراراً ، فما يطيق العبودية وقد ذاق طعم الحرية وطاف فى الغرب وأمن برسالة الإنسانية وبالأدب الرفيع .

وكان خلال هذه الفترة منذ عودته من انكلترة (١٩٢٩ — ١٩٣٩) ينظم الشعر فى أغراض قومية وأدبية ، ويعمل مدرسا للأدب العربى فى الكلية العلمية الوطنية خلال تسع سنوات تخرج فيها على يديه أدباء وعلماء سلكوا فى دروب المعرفة ورفعوا لبلدهم فى مختلف الميادين ذكراً لا ينسى . وكانت هذه الدروس التى يلقيها فى أدباء العرب وفى فحول النثر والشعر تتحول إلى كتب نشرها فى دمشق تحت عنوان « أئمة الأدب » ظهر منها خمسة أجزاء

هى الجاحظ ، وابن المقفع ، وابن العميد ، والصاحب ، والفرزدق . كانت خير زاد للطلبة يرجعون إليها ويعبون منها ، ويتقدمون إلى امتحانات البكالوريا ، شاكرين لصاحبها جمال التبسيط وجلال البيان وعظيم الفائدة .

وانصرف خلال هذه الفترة كذلك إلى إصدار مجلة ثانية بعد مجلة الرابطة الأدبية ، هى مجلة « الثقافة » اشترك فى تحريرها مع الدكاترة كامل عياد ، جميل صليبا ، وكاظم الداغستانى ، وكانت صحيفة الأدب الرفيع والبحث الرصين ، والمقالة المختارة والقصص البديع والشعر المتين والترجمة الموفقة ، ولسنا هنا بصدد الكتابة عن نثره لنتحدث عن أسلوبه الجميل فى الأدب والدراسة والتحليل . ولكننا نحب أن نشير إلى مقالاته الممتعة فى وصف الشاعر والشعراء مما نعود إليه بعد قليل .

والمهم أن الخليل استطاع خلال هذه السنوات أن يشتهر فى قومه بالمحاضرات والدراسات إلى جانب الشعر الذى ألمعنا إلى بعض موضوعاته ، فاحتل فى حلبة الأدب مكانا يشار إليه ويحسد عليه .

* * *

وفى آخر هذه الفترة سنة ١٩٣٩ وقعت الحرب العالمية الثانية ، وقد جاوز الفقيد الرابعة والأربعين من العمر ، فنضج أدبه واستوى شعره على سوقه يعجب الزراع ، وعرف ببلاغته وفصاحته وقوته اللغوية ، فاختاره أعضاء المجمع أميناً للسر سنة ١٩٤١ وراح يعمل فى المجمع العلمى سحابة أيامه مع الرئيس الجليل المرحوم محمد كرد على فى انسجام وصفاء .

وكانت المجالس الصباحية فى المجمع أشبه شىء بمجالس القدماء تطوف فيها كئوس النوادر الأدبية والأخبار العلمية ، فكان الصبوح فى « دارة الخالدين » أشهى ما يشرب الناشئة وألذ ما يعالج الشيوخ ليومهم . وكأن الحرب الدائرة ما بلغت إلى هذه الدار أخبارها ، وكأن ظلام الدنيا ما اختلف

إلى هذه العقول النيرة ، وعاش الرضى بين جدران المدرسة العادلية شهوراً جميلة أعاد إليها جهاد العلم وانتصار الثقافة وسمو الإنتاج .

وفى سنة ١٩٤٢ أختير الخليل وزيراً للمعارف فى ظروف قلقة قاتمة ، فترك ما بين يديه من دواوين كان يحققها ويعدها للطبع ، ولكن إلى حين عاد بعده إلى أمانة السر بالمجمع لتقر به عيون الأعضاء ويفرح بعودته صديقه الرئيس محمد كرد على .

وخلال هذه الآونة عكف على الشعراء الشاميين يحيي أدبهم ، ويجمع مخطوطاتهم ، ويقابل بين أوراقها ويصحح أخطاءها ويعلق على غوامضها ، ويفسر المستغلق منها ، فكأنه أصبح رجلا آخر ، يعنى بشعر أجداده وزملائه ممن تقدموه سبعة قرون على الأقل ، فأخرج للناس دواوين ابن عنين الدمشقى ، وابن حيوس الدمشقى ، وابن الخياط الدمشقى ، وعلى بن الجهم ، وقد كان شعر هؤلاء بعيداً فى مظانه ، لا يعرف الأدباء منه إلا ما حوت كتب المختارات ، فيسّره ووطأ أكنافه على طباعة علمية وتدقيق واف ، ومقدمات ودراسات لو جمع بعضها إلى بعض لكان منها كتاب فى تأريخ الأدب القديم فى الاقليم . وتعليقاته الوافية فى أماكن دمشق وغيرها من أحسن المراجع لمن يشوقه العلم والتاريخ فقد ملك الرجل فى هذه الآونة ناصية الرحلة فى مطاوى الأدب ومسالك التاريخ ومعارج اللغة ، وأصبح علماً من أعلام المحققين فى فترة قصيرة ، فأثنى عليه المستشرقون ، وحمد له الأدباء من العرب جميل سعيه ، ووهبته المجامع العلمية فى الشرق والغرب شرف عضويتها ، فأصبح عضواً فى مجمع اللغة بمصر سنة ١٩٤٨ والمجمع العلمى العراقى سنة ١٩٤٩ ودائرة المعارف الإسلامية سنة ١٩٥١ ، ومدرسة الدراسات الشرقية بلندن سنة ١٩٥١ ، ومجمع البحر المتوسط فى بالرمو سنة ١٩٥٢ ، والمجمع العلمى السوفياتى سنة ١٩٥٨ .

وفى سنة ١٩٥١ أختير وزيراً مفوضاً للاقليم فى بغداد . وفى سنة ١٩٥٣

اختير وزيراً للخارجية السورية . وفى هذه السنة نفسها انتخبه المجمع العلمى العربى بدمشق رئيساً له ، فبلغ أعلى المناصب العلمية ، وحقق أسمى ما يصبو إليه عالم أو محقق أو أديب ، وقضى أمانى قلبه ووثبات روحه . وأصبح فى الذروة من الشهرة تعقد عليه آمال كبيرة وأمان غالية .

وفى هذه السنين انصرف الرئيس الخليل إلى رعاية المجمع والعناية بمنشوراته والحدب على مجلته ، وتشجيع المؤلفين والمحققين حتى غدا لهم مرجعاً ومثابة ومدرسة ، يلوذون بأكناف رحابه ، فيجدون عنده التواضع الجم والخلق الرفيع والأناة البالغة والعون النافع فكأنه كان يحس أن من واجب الكبار اعداد الناشئة لاحتلال الأماكن الرفيعة والسير بهم إلى مواطن الإحسان والإجادة والتوفيق . فبلغ من ذلك ما أراد وجمع حوله القلوب العاشقة للأدب المشغوفة بالتحقيق والتأليف ، فانتصر فى ذلك انتصاراً كبيراً يذكره إخوانه وطلابه وأعضاء المجمع . وعرف الناس أن هذا الشاعر الكبير استطاع أن يسكب على نفسه ولسانه وقلبه برود الشعر النقى فكان لسانه عذبا نقيا ، وكانت بشاشته فياضة سخية ، وكانت عيناه تعطيان كل سائل ما يريد وتمنحان كل طالب ما يستحق .

والحق أن هذه الفترة التى انقضت بين سنة (١٩٣٩ — ١٩٥٩) لم تكن فى خدمة المجمع العلمى وأغراضه، والكتب وتعليقاتها، والوزارات ومسئولياتها فحسب ، وإنما كانت فى خدمة الشعر الخالص كذلك ، أرسل خلالها قصائده كما كان يرسلها فى مراحل حياته كلها ، فكأنه عاش لهذا الديوان يبنى صرحه لبنة بعد لبنة ، وقصيدة بعد قصيدة .

ومنذ الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ، كان الرجل ينظم فى موضوعات فنية وقومية واجتماعية ، فنظم فى حمامتين تحدث عن الغزل بينهما ، ووصف ذعر العصافير ، ورسم الزنبق وعرض للغوطة مرتع صباه ومرآة أحلامه وخباياها وتغنى بمشارف قاسيون وصور الرياض والغياض فى بلده ، وتمنى

أن يعيش عيش الطائر ، فقال على الكأس وحنا على الشراب ووصف البحر ، وروى حديث السمراء وخشع للشمس تشرق فوق دمشق والغوطتين فصبغ قصيدته بظلالها وأنوارها حتى ليخيل إلى دارس ديوانه خلال هذه الحقبة أنه مجموعة ألواح وصور فنية فحسب ، فإذا استعرض ما فيه كله وقع على قصائد رائعة فى حب الوطن شبيهة بأخواتها . فما كان للشاعر أن ينسى هذا الوطن وقد وهبه شبابه فما يضن عليه بمشيبه، ذكره وهو ناشىء وتغنى به وهو فى ساعات النضال فما يتخلى عنه والقيود ماتزال تكبل ساعديه والعدو المستعمر ما ينفك جاثماً فى رحابه المقدسة ، فهو يدعو من قبل إلى وحدة عربية وهو يدعو اليوم إلى هذه الوحدة وما يكل لسانه عن القول فيها:[1]

وكيف ترجى وحـــدة عربية ... ومن دون (راشيا) حدود وبيرق
وهل بيد من بعد ما بان كفها ... يوقع عهـــد أم يؤكد موثق
وما نفع دار لست تملك بابها ... هل السجن إلا بابه حين يغلق
وان امرأ أمسى يغنى بمأتم ... ويرقص مفراحا لسمج محمق

وذلك لأنه يؤمن بأن على الشاعر أن يكون لسان قومه فى أفراحهم وأحزانهم ، وأن يدافع عن كرامتهم ويحث على الحرية والعزة والاستقلال ، فكيف يسكت الخليل عن وضع بلاده ، وراشيا القرية السورية بالأمس دونها حدود رسمها الأجنبي وأسوار وضعها حولها ، فجزأ الحمى ، وبتر الأعضاء وسد على الوطن الأبواب فأصبح المواطنون فى سجن بهيم .

ويقول الخليل فى قصيدة أخرى بعدها إنه لا يرتضى لأمته إلا مكان السيد ، فأمته خطت فى الأرض والسماء وعلى البروج مآثر وأمجاداً ، ولها أن تستعيد ماضيها وأن تجمع شملها من جديد فتضم الحدود من المشرق إلى المغرب تحت راية واحدة .

وفى السنوات الأخيرة نظم الشاعر سبع قصائد تقريبا خلال ثمانى سنوات،

---

(١) الديوان ص ٢٧٢ .

دارت حول الجمال والقبح ، وحول ليالى بغداد ، ثم ختم شعره بقصيدة كان عنوانها « واها لأيام الشباب » ومطلعها :

واها لأيام الشباب الغضّ ما كان أهنا العيش لو لم تمض

وفيها تحدث عن شقراء فتن بجمالها وسحر بقوامها وهم بضمها إلى صدره . وكادت تفعل ولكنها انسلت من بين يديه فقال :

وكأن سل كفها من كفى كخطف كأس الشارب المشتف

وكان هذا آخر بيت شهد الديوان بأنه نظمه ، وكأنه صور الحياة حسناء قد انسلت بين يديه ، وأفلتت منه ، أو كأن المنية سلّت كف الشاعر عن الريشة التى كان يرسم بها ألواحه ويصنف بها كتبه ، وخطفت الكأس التى كان يشرب منها الفن والبراعة .

وذلك أنه اعتل شهوراً فلزم داره ، ثم انتقل إلى انكلترة ليعالج جسمه وروحه وقلبه ، فما نفعته ذكريات الشباب ولا ردت إليه القوة ، وكأنه بلغ فى رحلة الحياة إلى المنتهى ، فقفل عائداً إلى دمشق وقضى بعد قليل فيها صبيحة الثلاثاء ٢١ تموز (يونية) ١٩٥٩ ، على أربع وستين سنة عالج فيها الشعر والنثر فى سبيل قومه وفنه والأدب العربى ، فمضى مشيعاً بالدمع والأسى والحسرات لأخلاقه الطيبة وصفاته الحميدة وإنتاجه الجميل ، وكان لموته حزن فى قلوب الأدباء بالأقطار العربية كلها فقد كان علماً من الأعلام فى صدر هذا القرن ومن شعراء العروبة فى هذا الاقليم . وقد رسمنا مراحل نظمه للشعر منذ شبابه حتى وفاته ، ويحب أن نعرض فيما يلى لدراسة هذا الشعر وتحليله والحكم عليه ، وبيان أغراضه اتجاهاته ومكانته فى الشعر السورى المعاصر .

شاعرية الخليل

نشأ خليل مردم على مدرسة الشعر العباسى كما رأينا ، فقد كان يخطو فى رحابه ويعلق بأسبابه ، وينحو نحو شعرائه فى البيان والتركيب والقوافى وذلك شأن كل شاعر ناشىء ، يتخذ سمته نحو شاعر معين وأسلوب محدود . وقد خرج الخليل من ذلك على رقة جميلة كانت غالباً موسيقية منسجمة مع الحزن أو الفرح ، حتى ليستطيع الدارس أن يشبه شعره بالبحترى فى ألفاظه المختارة المنتقاة . وهو لم يوفق دائماً إلى الموسيقا الخالصة والسلاسة المتدفقة لأنه كان يطرق موضوعات جديدة عرض لها بعض القدماء عرضاً سريعاً سطحياً ، وشاء الخليل أن يعرض لها فى عمق وفى تبحر وذهب إلى النهاية فى كثير من المعانى فسقط أحياناً دون الغاية .

ولكنه على كل حال سعى إلى تجديد معانيه واختيار ألفاظه على نمط مختلف فكان له بعض ما أراد، وخاصة فى الأبواب التى لم يعرض لها القدماء عرضاً ملحاً إذا جاز التعبير .

ونحن حين عرضنا لحياته والشعر الذى قاله خلال هذه الحياة بسطنا أنه عنى بأمور ثلاثة الوصف ، والوطنيات ، والحب أكثر ما عنى ، وهذه الأبواب الثلاثة هى اتجاهاته ونزعاته ، بل هى اتجاهات العصر ونزعاته ، بل هى هم الشعراء السوريين غالباً منذ أهل هذا القرن .

* * *

الوصف :

فالوصف طغى على كل الأبواب ودخل فيها جميعاً فهو فى وصف الطبيعة الميتة ، وهو فى وصف المشاهد الانسانية والاجتماعية والوطنية . وهذا الكلام يحتاج إلى شىء من التفصيل والشواهد والتحليل لادراك الغاية فيه .

فالشاعر الخليل كان يعمد غالبا إلى ريشته ليضع ألواحاً فنية بلغ فى بعضها غايته وأخفق فى بعضها دون الغاية ، وذلك حين بدأ حياته الشعرية ، فلما عاد من انكلترا سنة ١٩٢٩ وقدجاوز الثلاثين علق بالتوفيق وتمسك بالفوز وكاد يصبح شاعر الوصف فى هذا الأقليم .

ولو كان لهذه الألواح أن تصف فى حجرة واحدة لجمعت ما فى الطبيعة من محاسن ومفاتن ، حاول الشاعر أن يرسمها فخص بها قصائده ووقف عليها وقته .

تلفت الشاعر إلى الشمس تشرق على بلاده وتختفى وتظهر عارية وتكتسى وتعبس فى وجهها الدنيا وتضحك فاتخذ من جمالها وأحوالها صورة تثبت إيمانه وتؤكد يقينه وتبعث فى قلبه الابداع والإعجاب فقال :

عصفرت دارتها فاتقدت ... كشواظ النار يستشرى لظاها
ونضت أثوابها الحمر على ... جنبات الأفق واستبقت حلاها

وأعارها الألوان وكساها الأثواب وخلعها عنها لتنشرها على جنبات الأفق ، فهى نار ونور وهى نعمة الله فى الدنيا ، فلما رسم الفجر رأى أنه نشر الرايات الحمر على كل أفق ونظر إلى النجم فإذا عينه تغضى حينما يتجلى الفجر وضاح السنا . فإذا وصف المساء رأى الشمس قد مالت إلى الغرب تتلوها مواكب نشرت الأعلام الحمر فإذا فى الأفق جنان عبقر ، وإذا فيه خمائل أنبتت كل زهر يجودها النور كما يجود السحاب :

نهر من النور هاجت فى جوانبه ... رياض ورد ومنثور ونمام
تريك فوضى من الألوان مائجة ... على قوارب من ضوء واظلام
من أزرق قاتم أو أخضر شرق ... أو أصفر فاقع أو أحمر دامى

وهذه الألوان التى بدت فى لوحته حين مغيب الشمس جمعها الشاعر

جميعها ومزجها فوضى مائجة ليبسط أثرها فى نفسه وفى عينه وخياله . ويبدو أن الشاعر كان يتلفت غالباً إلى أشعة النور ليجد له مكانا فى ألواحه وليجد له شبها مما يرى على الأرض أو فى الجنان .

ونظر الخليل إلى البحر فرأى فيه صوراً خلابة وحسب الزبد فوق زرقة الماء كالأنجم الكالحة ، وكأنها شهيق وأنين ، أو كأن البحر قلق الأحشاء كالعاشق يثور فى قلبه وجد دفين ، والطيور فى أسرابها تتهادى كشراعات السفين فوق سطحه :

نفخت فى وجهه ريح الصبا فعلاه مثل تغضين الجبين
وتراءى الموج فيه عكناً (١) دغدغتها غمزات العابثين

وهذه صورة موفقة ما نرى إلا أنها من صوره البارعة ، وهى صورة البحر وقد تغضن كتغضن الجبين ، وظهرت أمواجه الخفيفة كثنايا الجسد دغدغتها غمزات العابثين .

ووصف البحر ثانية فرأى فيه التجعد كذلك كأنه ينتفض مقشعر الجلد ينأى تيهاً ويمتعض أحيانا ، ورأى الموج ينخفض ويعلو فى كر وفر كأنه الزق يمتخض ، وهذه الصور المزدحمة فى خيال الشاعر يسوقها فى سخاء وفى جمال تنبىء عن سعة وخصب فى ذهن الخليل .

ووصف بردى ذلك النهر الذى يغنى فى حدائق دمشق ومرابعها ، ويجرى فى بيوتها ، ويتلوى حولها ، فجعله كالطفل وضاء المخايل ، يحبو وينمو بعزة ذات لألاء وأوضاح ، ثم يصير إلى صلف صعب القياد جهير الصوت يصول ويجول :

ما مر فى بقعة إلا وخاطبها طوراً بغمغمة طوراً بافصاح
فى كل مرحلة لحن فمن هزج إلى هدير إلى ترنيم نواح

---

(١) جمع عكنة والعكنة ماتثنى من لحم البطن .

وهكذا يعير الخليل لصوره الجامدة صور الآدميين فى الحركة والصوت واللون ، ويجعل لبردى أنغاما شتى يعرض لها فى الهمس والقوة بكل مرحلة من مراحل سيره فى الصباح والامساء ، ويرسم الأصباغ والألوان فيرى تفنن النور فى تلوين بردى كما يراه الرسامون سواء بسواء .

وحشد فى ديوانه كذلك صوراً للغوطة فرسم الزهر والرياض والأغصان يرنحها النسيم وجباه الزهر تعرق من قطر الندى كالبكر يرشح جبينها بالحياء إذا ما ضمت إلى صدر من يهصرها ، كما أرسل صوراً فى مدينته دمشق فجعلها مهبط السحر الحلال ، يجرى فيها بردى كسبائك فضة تجرى على در مسبوك ، فتشبه بصور القدماء فى كثير من أوصافه ، وخاصة الأندلسيين منهم .

وإذا انتهى من وصف الماء والسماء ، والجبل والوادى ، عرض للزهر فأرسل فيه كذلك صوراً محلاة بالوشى والطيب ، فرأى أن براعم الزنبق كشفاه مقبل وقد استحيت فغطت طرفها وأطرقت برأسها ، أو كأنها سكرى تمايل عنقها فرنت بجفن ناعس بل إنها تشبه الفراشة البيضاء قد رف جناحها بترفق .

ثم عرض للفراشة فى روضها تغازل فراشة أخرى تثوران وتقران والشاعر ينظر إليهما حيران ، زائغ الطرف فيقول :

أفانين من الحركات زاغت   لها عينى وعينّى بهـا بيانى
فمن ضم إلى نشر لوثب   لرفرفة إلى حرب عوان

فشبههما بالوردتين ، أو بلهيب النار أو الفوارتين وحار فى تقليب الصور عليهما وذهب خياله بعيداً فى ايجاد مشابه لشكلهما . وغزل الفراشتين كغزل الحمامتين فى قصيدة له يجد فيهما آدميين قد عبث كل منهما بالآخر ، وغزل الحمام جميل فى لوحته :

رفرفا والتحما واختلجـــا   رب رقص كان فى زى كفاح

كلما قبلهـا من فمها قبلة أودعها تحت الجناح
ظامىء لا ترتوى غلتـه لاب كالهيمان من فرط التياح (١)

ولعل الخليل كان يقف أمام مشاهد الطبيعة ليصطاد أفانين الجمال والغزل، ويخرج منها بهذه الصور كما يخرج الرسام الملون ، والفرق بينهما أن شاعرنا كان يتردد بين مختلف الصور فيخرج بألواح شتى لمشهد واحد ، وألفاظه كانت تنحو نحو المتانة والجزالة ، فكان يحرص عليها وعلى تفاصيل الصورة ويخسر بذلك روعة الموسيقا البسيطة الهدارة المتدفقة .

وميزة الخليل فى هذه القصائد كلها ميزة الوحدة لا تعتمد على البيت الواحد ، وإنما تعتمد سياق القصة والحكاية كما يفعل المهجريون أو كما يفعل خليل مطران تتسلسل الصور والمعانى كما تتتابع عند شعراء الغرب ، فالشاعر فى ذلك خدم الأدب العربى الحديث وكان جسراً يعبر عليه شعر الشباب بعده .

وإذا كان الرجل قد رسم الشمس تقبل البحر والأرض والجبال ، وصور الزنبق يقبل الزنبق ، والفراشة تضم الفراشة ، والحمامة تناغى الحمامة ، فخلف الواحا جميلة ، فهو جدير بأن يرسم الإنسان وأن يبرع فى لوحته أيما براعة ، ولقد رأينا أنه وفق فى قصيدته « سكران وسكرى » إلى الذروة التى كان يتمناها فى زمانه ، فكانت القصيدة من رائعاته وقف بها للأدب الغربى وقفة صامدة .

رسم فى هذه القصيدة الشارب الثمل والشاربة السكرى وهرع إلى الاناء فتغزل به ووصفه فرأى الماء تختلط بالخمر مثل النار يعلوها دخان أبيض والشمس يغشاها الضباب والكوكب يبدو وينقض الشهاب ، وارتفعت الكؤوس تتعاهد وتتعاقد على الحب وكتمان السر ، وكانت النهلة بعد النهلة فإذا فى الخدور وفى العيون نعاس وإذا الألسن قد جعلت من العى فصيحا وأرهفت الحس وهاجت الشجن ، وأثارت العاطفة ، وجن الأليفان بعض ببعض ومالت الخمر بأعطافهما فمال الغصن على الغصن وطغى الهوى ، وغلبت الخمرة وثارت الفتنة ودخلا مخدعهما فقال الشاعر :

(١) الالتياح : شدة العطش .

التماثيل بها عريانة والدمى والزهر نظم ونثير
أطبق البــاب فما خلفهما فهما كالسر يحويه ضمير
والكوى قد أغمضت أجفانها حينما ضمت عليهن الستور

وهذه المعانى الصريحة فى ألفاظ جريئة ترسم أبعد ما وصل إليه الخليل فى نهاية السكر ، فإذا الحبيبان يتمنيان أن يعيشا كذلك إلى يوم النشور ، وفى هذه الصورة أوصاف دقيقة قل أن برع فيها وصاف فالباب أطبق خلفهما فما ليضم السر ويخفيه والكوى أغمضت أجفانها . ولعل الشاعر تأثر بالغرب فى هذه المعانى وأفاد من مقامه بلندن فكان منه هذه الصورة البعيدة فى التحليق .

والقصيدة التى ذهب فيها إلى أبعد حدود التصوير والوصف هى قصيدته فى الرقص ، ولعلها من أحسن ما نملك فى الرقص لعصرنا الحديث فقد وصف الفتاة فى لبسها والفتى فى جماله ورسم اعتناقهما خلال الرقص فقال :

كل الفين انضوى شملهما أقبلا فاعتنقا أى اعتناق
لو صببت الماء ما بينهما لم يكد يخلص من فرط أعتلاق
علقت كف بكف منهما شركا واختلفت ساق وساق
ودنا الخدان من بعضهما حينما الجيدان هما بالتلاق
وعلى الأنغام كانت لهما خطوات باتزان واتساق
رقصا شتى ضروب وفنون من دبيب خافت أو ذى صرير
بينما عومهما عوم السفين إذ هما بالحجل كالطير الكسير

وهذا هو الرقص فى صورته المادية ، رآه الشاعر ونقله إلى القوافى فلم يفته النغم ولم ينس الخطوات واقبال الراقص وادباره ، وامساك الراقص بفارسته كما يقولون ، ودورانهما فى حلبة الرقص وقد جعلت ذراعه زنارا واعتمدت على عاتقه حتى انتهى إلى شبه ما قال بشار ، فختم القصيدة :

كل صعب فهو بالرقص يهون وعسير فيه كاليسير
رب جد كامن طى مجون وكبير مبتداه من صغير

وهكذا فاز الخليل فى صوره وهو يرسم الجمال والهوى فى الطبيعة الميتة والطبيعة الحية ، عند الطير والزهر والشجر ، وعند الماء بالنهر والبحر ، عند الأنوار بالشمس فى المغيب والشروق ، وكان رائده فى ذلك حب وجمال يرى الطبيعة فى عشق أبدا وفى هيام أبدا ، تتعانق ، وتشكو الهوى حزينة أو فرحة تعكس صورة الشاعر حين أنشدها فالخليل شاعر روما نطيق تأثر بأدب الغرب فى هذا ، وهو فى الشعر الغنائى هذا لايكاد يبكى إلا قليلا ، فى أوقات معلومة ، وفى أكثر شعره يبلغ إلى التوفيق والصيد الناجح ، فهو فى هذا الشعر وصاف كما هو فى شعر الطبيعة ، لا يشبه الشعراء فى وصف النسيب فلا يرسم الحسناء رسما هزيلا . فى جسدها فحسب وإنما يرسم مشاهد العشق ، فكأنه يقص الهوى فى حكاية حب لا فى تحبب واشتياق، وفى رواية غرام لا فى هيام ونسيب ، ويعمد فى ذلك كله إلى صور وألواح ، فكأن ديوانه فى جملته وصف من هذه الناحية ، يختار الأرض أو المسرح ويرسمه واصفا ثم يختار الممثلين فيعرض لهم من ذكر وأنثى ، ثم يدير الشريط فإذا هو يصور ما يقوم بينهما من مشاهد تخيلها أو وقعت له ، فى ظلال بردى وفى سفح قاسيون أو فى عش الغوطة الحسناء ، على قبل طويلة تشبه ما ذهب إليه العباس ابن الأحنف حينا أو ماذهب إليه شوقى أحيانا ، يتلاقى المنقار والمنقار كزوجى حمام هذا يزق ذاك ، فى عطش والتياح لا يشبع فى الشعر ولا يرتوى ، حتى ليخيل للدارس أن حياته كانت لوصف الحب والهوى فحسب .

* * *

الوطنيات :

ولكن هذه الحياة كما رأينا لم تكن لوصف الحب والهوى فحسب إلا إذا كان هذا الحب فى عشق بلاده كذلك ، فقد قسم قلبه بين غايتين ، الجمال والوطن . فوصف الأرض ومن عليها وما عليها من جمال ، فى تصوير للطبيعة ورسم للهيام . ثم انصرف إلى بلاده فوصف كذلك مواقع دامية ومآسى حمراء وهذا ما نسميه الشعر الوطنى الذى برع فيه الخليل كذلك . فقد رأينا ونحن نعرض لحياته أنه ما نسى الوطن ساعة وإنما أعطاه كل ساعة من دقائق عيشه ، فناضل وناضل ورسم الأحداث والكوارث ، وكم مرت بلاده بالكوارث والنكبات حين تقلبت فى مراحل عسيرة ، وتخلصت من الأتراك لتقع بين أيدى الفرنسيين ، وقامت حربان عالميتان ، عاصرهما الشاعر فوصف ما كان منهما ، كما قلنا .

وهو فى باب الوطنيات أعمل ريشته فى الوصف مهاجما أو مثيرا ، فكانت منه ألواح تقف لأختها فى الطبيعة والحب . بل إنه استعان بالطبيعة للاثارة والحماسة وصدق العاطفة فأشركها فى الثورة ، وجعلها تئن وتبكى وتشكو حزينة مجروحة ، كأنما الدوح ثواكل نشرت أشعارها كمدا ، وكأن الطل والأوراق ترسل الدمع من آماقها ، وكأن بردى قد نضب أسىء والأطيار تتفجر بالشكوى والدمع .

والشهداء على الجذوع وصفهم وصفا بعيدا ، فجعلهم كالشلو وقد حنت عليه الأشجار كما تحنو الضلوع ، بل كما تحنو الأم على وليدها . ووصف دمشق فى الخطب كأنها على طوفان من لهب ، والقذائف هطالة يرفدها النار والنفط والتهديم ، ومشاهد الأطفال والنساء ملأت ألواحه حزنا وأسى فقربت البعيد ووضحت المشاهد . فكان لشعره الوطنى تأثير المشارك فى المعركة لا المشاهد ولا القاص ، وكأنه خاض غمارها مع الأحرار المناضلين بجسمه

ويده لا بلسانه وشعره . ويخيل إلينا أن ألواح الخليل عن الوطنية كانت لهبا مستعراً كلها ، لا هوادة فيها ولا بكاء كبكاء النساء ، وإنما هى تحترق وتموج بالدخان وتغلى بالحقد والثأر . ولسانها هذا الشعر الذى اختار صاحبه له ألفاظا قويه مجنحة ذات أصوات هادرة وروائح عبقة ، فالرجل فى كل هذه الصور يدافع عن الأرض ضــــد الغازى الوحش الذى يصب الحمم والنيران ، فيشتعل الشاعر مع الشجرة والبيت . ويهب مع الجندى والرصاص، ويحبب النضال بنضال .

والقصائد الوطنية انقلبت بين يديه إلى قصائد سياسية هاجم بها الخونة فى صور مخزية لهم ، ورسمهم كأشباه البشر ، بل كتجار الأعراض فى سوق النخاسة يبيعون الأرض والحمى . وهذه القصائد السياسية تدور منذ صدر هذا القرن حول العروبة والعرب ، فكأن الشاعر من أوائل من حملوا النزعة العربية فى جوانحهم وفى قريضهم . فما تكاد قصيدة تخلو من ذكر عدنان وقحطان وقريش ، وما تكاد تخلو من وحدة عربية كبرى يعدد حدودها دائما ، ويتمنى أن تمحى بينها السدود فالحمى واحد والعرب أمة واحدة منذ القديم حتى اليوم . ومتى ارتضى العربى الذل والهوان وأخلد إلى السكينة والخضوع ؟

أتحكمنا الأعلاج فى عقر دارنا　　　فيا لإباء العرب من ذل أعجمى

وكم سخر الخليل من تقطيع المملكة الواحدة إلى دويلات لا تزيد الواحدة على البيت الصغير ولا تبعد عن أختها إلا بمقدار الفتر أو طرف البنصر .

وقد بسطنا نماذج منها حين الحديث عن حياته فلا نعيد فيها القول .

ونحن عرفنا أن الشاعر انصرف إلى الجمال فوصف مشاهده الصماء والمتحركة جميعا فوفق فيها . ولكنه حين أقبل إلى النسيب أخفق فى النظرة

والفكرة ، فسار منذ صباه فى طريق التقليد واحتذى حذو الشعراء الغزلين ، فشكا وبكا ، وقاسى الجوى وتجلد وصبر وأرسل الزفرات والعبرات والحسرات ، وردد النوح الحزين ، فأيقظه الحمام ورق له كما رق القدماء سواء بسواء وهو حين يبكى الفتاة الهاجرة ويشكو قسوتها ويموت وجداً للقائها لا يصنع شيئاً جديداً ، فليس فى الداء والدواء والعهد والوعد وجمرة الحب وحرارة الاشتياق كبير أمر .

وإننا لنرى فى نسيبه قصائد قالها حوالى العشرين من سنيه ثم ردد بعض معانيها فى قصائد بعد هذه السن ، ولكنها لا تشبه شعره الذى صور فيه مشاهد الطبيعة وألواح الجمال والجلال . ولعل شعره فى النسيب خاصة ينخفض عن سائر شعره فى الإطار الذى رسمه والأسلوب الذى طرقه . وذلك لأنه لم يندمج فيه على حكاية وقصة كما فعل فى ذلك الشعر الذى عرضنا له منذ قليل ، وكما فعل قبله خليل مطران فبلغ الروعة أو كاد .

ويكاد الديوان يخلو من مدح على طريقة القدماء فمدحه كان فى بطولة الحسين وأولاده والأبطال المظفرين من رجال الوطنية والشجاعة ، لا يقصد فيه إلى كسب أو تقرب ، ويكاد كذلك يخلو من هجاء إلا فى الخونة المارقين . وبذلك يبتعد الخليل عن الأبواب المعروفة قبل زمانه ويصح أن يعد فى الشعراء المجددين فى الإقليم السورى ، وهو فى ذلك على رأس المدرسة التى مهدت لهذا الخير الذى تحول إليه الشعر فى الإقليم السورى تحولا نرجو أن يؤتى ثماره فى التجديد إلى متانة الأسلوب وجزالة البيان وقوة اللفظة .

مختارات

من شعر خليل مردم

الرقص

نفخ الصور فهبوا مسرعين   مثل ما نفرت طيراً بالصفير
وعلى الصهباء كانوا عاكفين   من رأى سرب مها[1] حول غدير

* * *

كم فتاة فتنة بالمقلتين   واعتدال القد والجيد التليع[2]
جمت الشعر إلى السالفتين   فاستبدت بابن هانى[3] والصريع[4]
أخذت من ذيلها للركبتين   ومن الطوق إلى أقصى الضلوع
ومن الكمين حتى المنكبين   فبدت فى درعها غير المنيع
من عراء واكتساء بين بين   بل من الحسن بجلباب بديع
وفتى من حسنه ملء العيون   حسن اللفتة كالظبى الغرير
هو لو لم يتخذ زى (الذين)   عد من حزب (اللواتى) فى الاثير

* * *

كل الفين انضوى شملهما   أقبلا فاعتنقا أى اعتناق
لو صببت الماء ما بينهما   لم يكد يخلص من فرط اعتلاق
علقت كف بكف منهما   شركا واختلفت ساق وساق
ودنا الخدان من بعضهما   حينما الجيدان هما بالتلاق
وعلى الأنغام كانت لهما   خطوات باتزان واتساق
رقصا شتى ضروب وفنون   من دبيب خافت أو ذى صرير
بينما عومهما عوم السفين   إذ هما بالحجل كالطير الكسير

* * *

(١) البقر الوحشى .
(٢) الجيد التليع : العنق الطويل .
(٣) هو أبو نواس الحسن بن هانى .
(٤) صريع الغوانى هو مسلم بن الوليد

خلت ثدييها إليه انتقلا   فرط الحلح بضم واقتراب
لم أجد صدر فتى قد حملا   قبله فيما مضى نهدى كعاب
كيف ترجو صحو من قد ثملا   بمدام وغرام وشباب
أى نجوى وحديث أرسلا   همسها همس دلال وعتاب
وهو لا ينفك يروى العللا   وله غنة رجعى ومتاب
أخذ أيسرها سحر مبين   هى ما بينهما أوحى سفير
تبعث الشوق وتغرى وتلين   وتثير الوجد فى القلب وتورى

* * *

سكران وسكرى

لو رأيت الكأس والوجه الصبيحا   لم تلم فى الراح من يعصى النصيحا
تركت فى كأسها لى قبلة   طابت الراح بها طعما وريحا

* * *

أرسل الابريق شؤبوب سنا   فإذا أقداحنا قوس قزح
كشعاع الشمس لألاء فهل   بعث النور أم النار قدح
صعد الزفرة حرى وبكى   حينما أهوى على ثغر القدح
كمحبين فم زق فما   علت الانفاس والمدمع سح
غص بالشهقة لما ارتد عن   شفة الكأس وبالدمع الملح
راعف المنقار خفاق الحشا   من رآه خاله طيراً ذبيحاً
وهى كالجذوة تنزو مرحا   فذر الماء يرض منها جموحا

* * *

رامها ابن المزن فاستحيت فما ... مسها حتى تغشاها[1] حجاب
صافيان امتزجا فاستترا ... هكذا الماء على الشمس سحاب
هل رأيت النار يعلوها دخان ... أبيض والشمس يغشاها ضباب
بسمت حتى ثناياها بدت ... لا تخل أن الذى يطفو حباب
أصبحت بابن السما مثل السما ... كوكب يبدو وينقض شهاب
عبقت فى الكأس من أنفاسها ... نفحة تهدى إلى الندمان روحا
وهى قبل المزج تحكى رقة ... أدمع(العذراء)إذ تبكى(المسيح)

الفراشتان

تسر الناظرين فراشتان ... بروض ناعم تتغازلان
تبرجتا بنفض من سواد ... على أعطاف حلة أرجوان
يلوح على حواشيها بياض ... كما نصلت أصول الزعفران
إذا ما ثارتا فشرارتان ... وإما قرتا فشقيقتان
زوت كلتاهما قرنين دقا ... كما يزوى لغمز حاجبان
وضمت من جناحيها فكانت ... كعرف الديك أو حرف السنان
وأرخت منهما فبدت كحلى ... تلألأ فوق لبات الحسان
أفانين من الحركات زاغت ... لها عينى وعى بها بيانى
فمن ضم إلى نشر لوثب ... لرفرفة إلى حرب عوان
تواثبتا مثاقفة فيامن ... رأى الديكين إذ يتساوران
ورفرفتا مهاداة كما فى ... مهب الريح رفت وردتان
ورفرفتا نخلت لهيب نار ... ينضنض[2] بالفروع وباللسان
ودومتا صعودا أو هبوطا ... كأنهما هنالك مغزلان

---

(١) تغشى بثوبه تغطى به .
(٢) يضطرب والنضاض حية لا تستقر فى مكان .

فما يرتد طرف العين إلا دراكا تعلوان وتهويان
كما اندفعت مياه ثم عادت وقد قذفت بها فوارتان
تحيرتا هنا وهناك طيشا كما فى الريح حارت ريشتان
إذا ما هبتا لبلوغ قصد بدا لهما فوجهتا لثان
وإن إحداهما انطلقت فجدت بمتن الريح مطلقة العنان
ترى الأخرى تزاحمها اعتراضا أفى رحب الفضا تتزاحمان
كئوس الزهر وردهما فلم لا بأجواز الفضا تترنحان

غزل الحمام

حمامتان

ساجع حن إلى ذات جناح والدجى فى الأفق كالستر المزاح
صفقا بشرا وطارا فرحا بسنا الفجر وريعان الصباح
لمعت فى الشمس من طوقيهما درر تزرى بأطواق الملاح
لم تجد عينى أحلى غزلا لا ولا ألطف من ذاك المراح
ما بدت غنى لها مغتبطا فان استخفت شجاها بالنواح
لو ترى منقاره يعبث فى جيدها طلقا برفق وسراح
خلته ثغر محب دغدغت شفتاه نحر غيداء رداح[1]
طالما طاف بها يدعو وكم ملك السبل عليها والنواحى
يسحب الذيل ويرخى طرفا من جناحيه مدلا بالوشاح
هادرا يخفق بالرأس كمن يقرأ آلاى بتقوى وصلاح
خلته لما ربا[2] حيزومه[3] زامرا ينفخ زقا فى سماح[4]

---

(١) المرأة الثقيلة الأوراك .
(٢) انتفخ .
(٣) ما اكتنف الحلقوم .
(٤) السماح نوع معروف من أنوع الرقص .

مشرف طوراً وطوراً مقمح   يتنزى هائجاً صعب الجماح
خافض آنا جناحاً لترى   أنه ألقى إليها بالسلاح
لم يزل يفتل حتى استسلمت   فإذا زيافة (١) تعطو لشاح
رفرفا والتحما واختلجا   رب رقص كان فى زى كفاح
كلما قبلها من فمها   قبلة أودعها تحت الجناح
ظامىء لا ترتوى غلته   لاب كالهيمان من فرط التياح (٢)
يتهادى مستزيداً وله   حولها ضوضاء عربيد وقاح
أتراه عل من ريقتها   أم تراه عب فى خمر صراح

ولد الولد

يشغلنى بحبه   (أحمد(٣)) عن كل أحد
إذا تناغينا معا   لم تدر من منا الولد
أعيد ما يقوله   وإن أقل شيئاً يعد
مصغراً مرخماً   ويكتنى ويقتصد
وإن رآنى مقبلا   رفرف زنديه ومد
ولم يزل مزقزقاً   كأنه طير غرد
ضممته وضمنى   حتى التقى فم وخد
فباسنى واحدة   فبسته بلا عدد
يريد ما أرى وما   طالت يداه أو وجد
حتى إذا ما ناله اسـ   ـتولى عليه واستبد
نظارتى أو ساعتى   يأخذها ولا يرد
وربما اغتاظ إذا   منعته شيئاً وصد

---

(١) الزياف المتبختر .
(٢) يعنى العطش .
(٣) أحمد هو حفيد الشاعر ، والده السيد وائل قدرى ووالدته مامة ابنة الشاعر .

بينا تراه وادعا إذا به ظبي شرد
عوذته بالسورتيـــــن وقل هو الله أحد
أحب أولادك من أنت له أب وجد
أسبابه أكثر فى الـــــقربى وأعلى وأشد
أعرفهم بنـوة أعلقهم بالقلب يد
ليس أحب من ولد للأب إلا ابن الولد

واهاً لأيام الشباب [1]

واهاً لأيام الشباب الغض[2] ما كان أهنا العيش لو لم تمض
نعمت فى ظلالهـا زمانا نشوان من سكر الصبا ريانا
أرود ما زها من الرياض وأورد العذب من الحياض[3]

* * *

ورب شقراء حكت شمس الضحى تختال فى برد[4] الشباب مرحا
بيضاء مثل الدرة الفريدة أنفاسها طيبـة برودة
هيفاء لفاء[5] نحيل خصرها ناعمة المتنين غض ظهرها
ممشوقة لينة الأعطاف ميادة[6] مرتجـة الأرداف
جبهتها وضـاءة كالبدر إذا بدا لأربع وعشر
وشعرها كالذهب الوهاج وجيدها وصدرها كالعاج
عينان خضراوان كالزبرجد تأتلقان كائتلاق الفرقد

---

(١) هذه القصيدة هى آخر مانظم الفقيد القارى، من الوصف البارع .
(٢) الغض : الطرى الناعم .
(٣) الحياض جمع حوض وهو مجتمع الماء .
(٤) برد ثوب .
(٥) لفاء ملتفة .
(٦) ميادة كثيرة التمايل .

لا تفتران تغزلان السحرا حبائلا تكثر فيها الأسرى
والهدب فينان مريع أوطف(١) وفوقه مزجج(٢) ومرهف
وخدها مورد أسيل ولحظها مهند صقيل
أما الثنايا فلها بريق من مبسم كأنه عقيل
كالدر لماحا(٣) إذا الدر اتسق أو كائتلاق البرق من خلف الشفق
أنفاسها يصحو بها المخمور كما يفوح الزهر الممطور
كأن بين سحرها والنحر لجة ماء أو بياض زهر
يسطع من ثمة طيب ريا أفعل فى النفس من الحميا(٤)
كأن صدرها فدته نفسى لجة ماء فى شعاع الشمس
نهدان بارزان للتصدى دأبهما الإغراء والتحدى
رأيت منها معصما وزندا يقتدحان للغرام زندا

يوم الفزع الأكبر

أمده الدمع حتى غاض جائده(٥) فمن بأدمع عينيه يرافده(٦)
الروح والدم والأحداق ود لها لو تستحيل إلى دمع يناجده
مشرد النوم ما قرت مضاجعه وهل تقر بموتور(٧) وسائده(٨)
باتت دمشق على طوفان من لهب يا دين قلبى من خطب تكابده
موج من النار لا تهدا زواخره يمده آخر ما ارتد وافده
وبل القذائف هطالا له مدد والنار والنفط والتهديم رافده

(١) أوطف مخصب كثير الخير.
(٢) مزجج : ذو أرماح .
(٣) لماح أبيض يقق .
(٤) الحميا : الخمرة .
(٥) جاد المطر غزر فهو جائد .
(٦) رفده أعطاه ، أعانه .
(٧) الموتور من قتل له قتيل ولم يأخذ بثأره .
(٨) وسائد جمع وسادة وهى المخدة .

ترى القباب به غرقى فتحسبها سفنا تهاوى ببحر ثار راعده
فى ذمة الله والتاريخ ما لقيت وفى سبيل الأمانى ما تصامده
أمسى الذى كان فى جنانها بهجا [1] بمارج من سعير فار واقده
النار من فوقه والنار دائرة به فإن فر أردته رواصده
فى كل زاوية رام ومن نفروا شيبا وحورا وأطفالا طرائده
ورب مكنونة كالدر ضنّ به على العيون فصانته نواضده [2]
تخطت النار ليلا وهى حاملة طفلا قضى برصاص القوم والده
فما تناءت به حتى أتيح له شظية بان منها عنه ساعده
ضمت إلى صدرها شلوا يسيل دما كالطير هاض [3] جناحا منه صائده
ياهول ذلك من مرأى شهدت وقد وددت لو كنت أعمى لا أشاهده

* * *

لوجه الوحدة

فيم التقاطع والأرحام واشجة والدار جامعة والملتقى أمم [4]
الله فى قطع أرحام وفصم عرى عهدى بها وهى وثقى ليس تنفصم
تأبى وشائج من قرباكم اشتبكت أن ينقض العهد والميثاق والذمم
أواصر عندنا من وصلها نعم بقطع أسبابها تستنزل النقم
حصن من الشمل إن يفرع [5] فليس لنا والله من بعده ياقوم معتصم
أفى الصحافة صدع الشمل فى زمن ونحن أحوج ما نضوى ونلتئم
وهل ترى فئة فى أمرها انقسمت إلا وأصبح عقبى أمرها الندم

---

(١) بهج أى مسرور .
(٢) نواضده : نضد المتاع جعل بعضه فوق بعض .
(٣) هاض : كسر .
(٤) أمم : قريب .
(٥) أفرع : انحدر .

ماذا عسى أنكرت من (جلق) (حلب) بل ما عسى أهل لبنان يريبهم
بلادنا ويد التقسيم تعلقها كأنها رقعة يتناها جلم
أكل حاضرة دار لمملكة أبعاد ما بينهن الفتر والبصم[1]
لمفحص من أفاحيص[2] القطا[3] حرج حامت على سمته العقبان والرخم
أبق وأوسع عند الظن من دول يحصى مساوفهن الشبر والقدم
وكل مملكة ضاقت بساكنها ليست بمملكة بل إنها رجم[4]

الشرط أملك

يا من يعيد ليالينا التى انصرمت بما يشاء من الأعوام من أجلى؟
إذا خلونا جعلنا شرط ليلتنا : من نام ، نبهه اليقظان بالقبل
فكنت أنوم من فهد[5] بيقظتها كيما تقبلنى علاً على نهل
وإن غفت أو بدت فى عينها سنة[6] أهويت ألثمها ــ والشرط أملك ــ لى
فيالها ليلة معسولة ضمنت ألا تزال من التقبيل فى شغل

* * *

ياليتنى

ياليتنى لما شربت الكأس صرفاً لم أثن
أو ليتنى لما انتشيت من المدامة لم أغن
أو أننى لما وردت صدرت قبل نضوب[7] دنى[8]

---

(١) البصم : ما بين طرف الخنصر الى طرف البنصر .
(٢) أفاحيص جمع أفحوص وهو الوضع الذى تفحص القطاة التراب عنه لتبيض به .
(٣) القطا جمع قطاة والقطاة طائر فى حجم الحمام .
(٤) الرجم : القبر .
(٥) الفهد : نوع من السباع .
(٦) سنة : غفوة .
(٧) النضوب الجفاف .
(٨) الدن : وعاء الخمر .

أو أنني لما ارتويـــت تركت شيئاً للتمني
بل ليتني لما شممـــت الورد لم أقطف وأجن
أو ليتني لم أنتقل في الروض من غصن لغصن
فلقد جريت مع الشـــباب مشمراً ثوبي وردني
وطويت كشحاً (١) عن مقا لة عاذل وسددت أذني
ما كان أحوجني على خوض الغمار (٢) إلى التأني
لم أنتفع يوماً بعلـــمي في العواقب أو بظني
حتى صحوت قرعت من ندم على الإسراف سني

ألم الجرح حين يبرد (٣)

لزوال جميع ما أنت راء فاعتبر بالظلال والأفياء
ما اختلاف النهار والليل إلا كاختلاف السيوف في الهيجاء
تطلع الشمس ثم تغرب في أثـــواب جان مخضوبة بالدماء
وكأن السماء تخشى الليالي حين تبدو بنثرة (٤) حصداء
وكأن الحياة جرم وما للـــحي إلا ورد الردى من جزاء

* * *

(١) الكشح ما بين الخاصرة إلى الكتف .

(٢) الغمار جمع غمر والغمر معظم البحر .

(٣) بهذه القصيدة رثى الشاعر الأستاذ خليل مردم بك ولده هيثم الذي توفي عام ١٩٤٢ ولم يبلغ العشرين من عمره ، وقد ترك موت هيثم في نفس الوالد الفجوع جرحاً عميقاً لا يندمل ، جعله ينطوي على نفسه ويزهد بكل شيء وقد ظل الشاعر رحمه الله طوال أيام حياته حزين النفس منقبض السريرة يكتم حزنه في طيات نفسه ، وقد أعرب الشاعر عن حزنه العميق سنة ١٩٤٨ في قصيدته هذه وعرف الفقيد هيثم بسرعة الخاطر وتوقد الذكاء وقد نظم الشعر في سن مبكرة ونشرت بعض قصائده الشعرية في صحف دمشق وله ديوان شعري مخطوط محفوظ عند صديقه المقدم تاج الدين خالد بك .

(٤) النثرة : الدرع .

حسرات تحت التراب ظماء   فجرت في الصفا [١] عيون الماء
كل غصن في الأرض ينبت رمز   لبلى كل قامة هيفاء
والأزاهير بهجة وسناء   من وجوه تحت التراب وضاء

* * *

وكأن الزمان كير [٢] وأنفا   س الورى بين أخذه والعطاء
تتكافا الحياة أخذا وردا   فنفوس الورى بهذا الهواء
هو لو لم يأخذ نفوس البرايا   ضن حتى بالنفحة الشجواء [٣]

* * *

مبتغي أسوة [٤] بكل حزين   مستعين بالداء لا بالدواء
يأمر اللب بالتصبر لكن   ليس يقضي بسلوة بلهاء
ربما يصبر الحزين ولكن   صبر عين على القذى رمداء

* * *

طال صمتي حتى لقد ظنه النا   س عزاء ولات حين عزاء
إن للحزن غصة تمنع البا   كي من رفع صوته بالبكاء
طول عيش المفجوع مهما تأسى   بعد فقد الأحباب طول عناء
ألم الجرح حين يبرد والمذ   بوح آلامه بطول الذماء [٥]

* * *

دم قلبي وفيض دمعي وأنفا   سي تجارت قصيدة في الرثاء
هي عذراء من ملائكة الشـ   ـعر بنات الإلهام والايحاء [٦]
أرسلت دمعها سخياً وما يشـ   ـجي ويبكي كأدمع العذراء

---

(١) الصفا : الحجر .
(٢) الكير : زق ينفخ فيه الحداد .
(٣) الشجواء : اللينة .
(٤) الأسوة : ما يتعزى به .
(٥) الذماء : بقية الروح .
(٦) الايحاء : الالهام ، الفعل أوحى يوحي إيحاء .

القسم الثالث

خير الدين الزركلي

(١٨٩٣)

خير الدين الزركلى

(١٨٩٣)

ألف الأستاذ خير الدين الزركلى قاموساً سمّاه « الأعلام » جعله لتراجم الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، نشره للمرة الثانية موسعا ومفصّلا ، وكتب فى الجزء التاسع[1] منه موجزاً لترجمـــة حياته بقلمه فقال :

« خير الدين بن محمود بن محمد بن على فارس الزركلى (بكسر الزاى والراء) الدمشقى .

ولدت ليلة ٩ ذى الحجة ١٣١٠ (٢٥ يونية ١٨٩٣) فى بيروت ، وكانت لوالدى تجارة فيها وهو وأمى دمشقيان .

ونشأت بدمشق ، فتعلّمت فى إحدى مدارسها الأهليـة ، وأخذت عن علمائها ، على الطريقة القـديمة ، وأولعت بكتب الأدب ، وقلت الأبيات من الشعر فى صباى ، وأديت امتحان القسم العلمى فى المدرسة الهاشمية ، ودرست فيها » .

هذه بعض الخطوط الكبرى التى رسمها الزركلى لحياته بقلمه ، وهى تدل على أنه نشأ فى دمشق وترعرع فيها كما ترعرع إخوانه من شعرائها ، فشربت عيناه من جمالها ومشاهدها الفاتنة ، وتلقن آلات اللغة وعلوم العربية على مشايخها ، فأخذ عنهم حب العربية ، وعشقها صغيراً ، وفهم بعض أسرارها كما عشق العروبة ، فأولع بالتراث العربى الزاخر ، وتنفس بأريج الشعر منذ صباه ، لكثرة ما تداول لسانه من الشعر القديم ، ففعل كما فعل خليل مردم

---

(١) ص ٢٥٧ — ٢٦٠ .

وشفيق جبرى والبزم ، وصحب مخطوطات الظاهرية وكتبها الصفراء ، وظل يصحبها حتى الساعة لا يفارقها ولا تفارقه فكأنها جزء من نفسه أو كأنها علالة قلبه .

وقد بلغ به هذا الهوى أن أصدر مجلة « الأصمعى » واسمها دال على عشقه لهذا اللغوى العظيم والاخبارى المشهور ، فأراد أن ينشر على الناس ذوب تفكيره وخلاصة أدبه ، وأن يبث الروح القومية ، وأن يحث على حب العروبة وهو كردى الأصل ، فنشر صورة للخليفة المأمون اشارة إلى ولعه كذلك بأمجاد الأجداد ومفاخر ذلك العصر العباسى الذهبى . وكان ذكر ذلك فى تلك السنين الحالكة كافياً للتهمة والريبة ، فالسلطان العثمانى والرقباء الجواسيس يحصون على العرب أنفاسهم ويرون فى ذكر تواريخ العرب وخلفائهم نكولا عن الاعتراف بسلطان الأتراك وخروجا عليه . فأغلقت الصحيفة كما يقول الزركلى .

وهجر الشاب إلى بيروت فتعلم الفرنسية وأصبح فى « مدرسة اللاييك » أستاذا للتاريخ العربى والأدب العربى وهو لما يبلغ الخامسة والعشرين من عمره . فقضى بذلك مآرب نفسه وهوى قلبه ، واستطاع أن يتحدث عن هؤلاء الأجداد وعن أدبهم وثقافتهم وحضارتهم فى مدرسة فرنسية ، بقلب بيروت فكأنه بدأ شبابه مناضلا صحفياً على صفحات مجلة « الأصمعى » ثم أستاذاً فى تدريس التاريخ العربى ، ثم عاد إلى دمشق أوائل الحرب وقد بلغ الخامسة والعشرين ليكتب كما قال فى جريدته « لسان العرب » وعنوانها يكفى كذلك لبيان خطتها القومية وهدفها العربىّ ، فقد كان الرجل منذ نشأته يعمل لتراث العرب وتاريخهم وأمجادهم فى نثر وفى شعر . أما النثر فليس هنا مكان الحديث عنه ، وأما الشعر فقد نظم فيه خير الدين منذ تفتحت نفسه على البيان — كما قلنا — ، وقال فيه على أنواع وفنون ، جمعها الشاب فى مجموعة شعرية سماها « عبث الشباب » ولكنها احترقت والتهمتها النار . فأضاعت علينا كثيرا

مما كنا نود أن نتحدث فيه ، لنظهر نشأته وولادة الشعر عنده . ولسنا ندرى كيف احترقت ، ولا نعرف ما كان من أمرها فالرجل تحدث عن مئات ومئات من رجالات العرب وأغفل أمر الحديث عن مضمون هذه المجموعة وما كان فيها من أغراض وفنون .

ومهما يكن من أمر فقد قضى الرجل أيام الحرب العامة الأولى فى بلاده يناضل ويكافح فى سبيل العرب والعروبة وينظم فى هذه الأغراض وفى غيرها ، فقد وقعنا على قصيدة له مؤرخة بسنة ١٩١٤ ، أوائل الحرب العامة ، جعلها فى معارضة « ياليل الصب » نهض لها كما نهض غيره من الشعراء ، فصب فى معانيها وفى قوالبها ، فجاء صورة للشعر القديم مبنى ومعنى[1] .

ممشوق القامة أهيفها — معسول الريق مبرّده
صمّته الشمس تقبّله — والبدر تولى يحسده
لو أطلق سحر لواحظه — فى الأنجم همت تعبده
ما حيلة شاكى لوعته — والقلب رماه مقصده

وهذه الأبيات تدل على طريقة الشاعر فى الصيغ الجزلة والألفاظ الفخمة ، والموسيقا البحترية والشعر الغنائى العاطفى ، وتبشر مع ذلك بمستقبل كبير بسام وطبع قوى فى الشعر . ووقعنا كذلك للشاعر على قصيدة مؤرخة سنة ١٩١٥ والشاعر فى الثانية والعشرين من عمره ، يشهد كوارث العالم ويسمع بأنباء القتل والحرق والتهديم وويلات الحرب وفظائعها ، وفى هذه القصيدة يودع عاما ويستقبل عاما ، ويرسم آلام الحياة ويصور الآمال التى تحملها إليه الأيام ، فرأى أن الدنيا زلزلت بالشر ، وأن قذال الأفق قد شاب من رهج الوغى :

تغير شكل الأرض فى بعض حقبة — وبدل خير الأرض بالشر فى شهر
كوامن أحقاد أثيرت فهيجت — نفوساً لطلاب القديم من الثأر

---

(١) الديوان ، طبعة مصر ١٩٢٥ .

وهذا شعر متين قوى لشاب فى هذه السن يدل كذلك على براعة فى القول وتمكن من اللغة وطبع قوى فى النظم ، ولا شك فى أن المطلعين على الشعر يرون فى نشأة الشاعر قوة يهابها العدو ، ويهش لها الصديق ويرحب بها الأدباء ، وهذه القوة هى التى أخافت الفرنسيين ، وخاصة عندما قرأوا لصاحبها قصائده النارية فى الهجوم على المستعمر وفى حث قومه على العمل لخير وطنهم وفى بعث النخوة العربية ، ومنها القصيدة التى نظمها سنة ١٩٢٠ وقد بلغ السابعة والعشرين من عمره ، يقول فيها :

يجنى وأشكر فى الهوى يده وطن شقيت به لأسعده

ويتناول المستعمرين وأذنابهم بقوله :

يا عابثين بأمة نهضت للمجد تفنى أو توطده
الشرق أهرق بينكم دمه وأفتك مطلقه مقيده
ما راقنى إلا الزئير به يهتاج أرقه وهجده

ولعل هذا الزئير هو الذى كان يدفع الشاعر إلى القول والإكبار والتمجيد ، وهو نفسه الذى دفع الفرنسيين إلى الحكم عليه بالإعدام غيابياً سنة ١٩٢٠ ، إثر دخولهم دمشق ، بعد وقعة « ميسلون » هذه الموقعة التى قامت بين بقايا الجيش العربى فى الإقليم السورى ، وبين حشود الفرنسيين الذين تغلغلوا غدراً فى الجبال والهضاب وحملوا مدافع الميدان لتهديم البلاد وقتل الأحرار .

وفى صباح اليوم الذى كان الفرنسيون يدخلون به دمشق سنة ١٩٢٠ غادر خير الدين الزركلى دمشق ، إلى فلسطين ثم مصر ثم الحجاز ، ليلحق برجال الثورة العربية وليكون فى ركب التحرير العربى ، فهو لا يطيق أن يعيش فى بلد يرفرف فيه علم الاستعمار .

وكان خير الدين يؤمن بالوحدة الكبرى ، ويرى أن كل بلد عربى

هو بلده وهو وطنه ، لذلك تجنس بالجنسية العربية فى الحجاز سنة ١٩٢١ وانتدبه الملك حسين بن على لمساعدة ابنه « الامير عبد الله » وهو فى طريقه إلى شرقى الأردن فعاد الشاب إلى مصر ، ثم دخل القدس ، وسافر إلى « عمان » مع جماعة من إخوانه العرب ، ليمهدو السبيل لدخول عبد الله إلى عمان ، وإنشاء الحكومة الأولى فيها .

ولبث الشاب فى عمان عامين كاملين (١٩٢١ — ١٩٢٣) يعمل فى هذه الحكومة الفتية ، مفتشا عاما للمعارف ، ثم رئيساً لديوان رئاسة الحكومة مخلصا لقوميته ينظر إلى الأمور نظرة شاب طامح إلى المثل العليا . فكان يهوله ما يرى من إنحراف الأمير ، ومن أخطاء بعض الشخصيات فى الحاشية ويريبه اتصال الأمير بالغربيين وتغلغل الانكليز فى إدارة هذه الإمارة الصغيرة ، وكان على ذلك يرثى لسقوط الأخلاق ، وكثرة الرتب ، ومبلغ الانتفاخ فى الحكم ، وكذب بعض الحاكمين ، ولا يرى فى هذه الدويلة العربية الصغيرة صورة لما كان يحلم بها من عزة وكرامة واستقلال ونخوة عربية ، وحين نطالع كتابه الذى وصف فيه مقامه بعمان وجعل عنوانه : « عامان فى عمان » نفهم الحكم الذى طاف بأرجاء هذه الأرض العربية على حدود فلسطين الكريمة ، وندرك بعد ذلك سبب ضياعها .

والأمر الهام فى هذا الموضوع هو خبرة الشاعر وتجربته الشخصية فى الحكم ، ووقوفه على السياسة بين العرب والانكليز ، وفهمه لنفوس بعض الحكام من العرب ، ودراسته لهذه البقعة من الوجهة التاريخية والجغرافية والاقتصادية والسياسية مما أسدى إليه يداً عظيمة فى تكوين ثقافته وعقليته وفهمه للسياسة العربية عند الحاكمين .

ويقول الشاعر فى ترجمة حياته تعليقا على هذه الفترة التى قضاها موظفا فى هذه الحكومة بشرقى الأردن وما بعدها : « وانكشفت سياسة الأمير عبد الله ، فكنت أول من نبه إلى إتقائها . وعصيت من كتب لى بأنه

من هذه الأمة ، ويدك منك وإن كانت شلاء . وقصدت مصر فأنشأت المطبعة العربية فى القاهرة أواخر ١٩٢٣ ، وطبعت فيها بعض كتبى ، ونشرت كتباً أخرى . وثارت سورية على الاحتلال الفرنسى سنة ١٩٢٥ ، فأذاع الفرنسيون حكما ثانياً غيابياً أيضاً بإعدامى . وساءت صحتى فى عملى بالمطبعة فبعتها سنة ١٩٢٧ . واستجممت ثلاث سنوات ، زرت فى خلالها الحجاز ، مدعوا بعد أن تسلم آل سعود مقاليد الحكم فيه ، وأصبح رعاياه ، — وأنا أحدهم — متمتعين برعايتهم . وذهبت إلى القدس ١٩٣٠ فأصدرت مع زميلين جريدة « الحياة » يومية وعطلتها الحكومة الانكليزية . فاتفقت مع آخرين على إصدار جريدة يومية أخرى فى يافا ، وأعددنا لها مطبعة ، وأصدرنا العدد الأول منها .

وكنت قد فوتحت فى أن ألى عملا فى الحكومة السعودية الفتية وأجبت بالشكر » .

وهكذا عين الرجل مستشاراً للعربية السعودية فى مصر سنة ١٩٣٤ ، فترك الجريدة ، ودخل فى المناصب السياسية ، وما زال يترقى من منصب إلى منصب حتى أصبح اليوم سفيراً لبلاده فى المغرب .

وقد اختير عضوا للمجمع العلمى العربى بدمشق سنة ١٩٣٠ ثم عضواً لمجمع اللغة العربية بمصر ١٩٤٦ . وأخرج للناس خلال هذه الفترة كتابه «الأعلام» ١٩٢٧ وأعاد طبعته مفصلا شاملا كتاريخ واسع لأسماء الرجالات والعلماء والأدباء الذين خدموا العربية . ولكن هذا لا يعنينا فى هذه المحاضرات . وإنما الذى يعنينا هو شعره .

شعر الزركلى

بين أيدينا للشاعر الزركلى ديوان واحد طبعه سنة ١٩٢٥ بالمطبعة العربية التى أنشأها بالقاهرة فى ٩٦ صفحة فحسب ، لا نملك غيره فى الحكم على شاعريته ، فقد وقف الرجل عن نشر الجزء الثانى من شعره الذى نظمه بعد هذا التاريخ والديوان المطبوع يحتوى شعر الشباب حتى الثانية والثلاثين من عمره . ولا شك فى أنه نظم بعد هذا التاريخ شعراً كثيراً قبل أن يدخل فى غمار المناصب السياسية سنة ١٩٣٤ ، حين بلغ الأربعين من عمره ، وبذلك ضاع علينا شعره خلال عشر سنوات فى شبابه ، كما ضاع شعره فى صباه .

وهذا الشعر القليل الذى نظمه بين سنة ١٩١٤ — ١٩٢٥ ، يمثل فى رأينا شعره كله . بل يمثل الشعر الشامى خلال هـــذه الحقبة ، فهو يحتوى على الأغراض التى راجت صدر هذا القرن ، وعالجها شعراء دمشق زملاؤه ، وتكاد لا تخرج فى جملتها عن شعر الطبيعة والشعر الوطنى والشعر الاجتماعى فقد قلنا إن شعراء دمشق فتنوا بالاقليم وجماله ، وأخذوا بروعة الجنائن والحدائق والرياض ، فصبوا شعرهم فى وصف الغوطة وبردى ودمشق وقاسيون ، ورأينا أن هؤلاء الشعراء أحبوا هذه التربة ودافعوا عنها بشعرهم ولم يفتروا عن التحمس لقضيتها والهجوم على أعدائها ، ولو ذاقوا فى سبيل ذلك مرارة السجن وقسوة النفى والابعاد والتعـذيب والحكم بالأعدام ، كما وقع للشاعر الزركلى . وسنرى إلى طريقة الشاعر فى التعبير عن كل من هذه الأغراض .

الشعر الوطنى والسياسى :

دخل الشاعر خير الدين الزركلى كما رأينا حين رسمنا حياته من باب السياسة الواسع ، فخاض غمار الصحافة والنضال ، وانضم إلى رجال السياسة ،

فابتعد فى الشام عن التعليم والتدريس . ولم يصنع كما صنع زملاؤه ولم يكن موظفاً فى بلاده . لذلك لم تحجبه الوظيفة ولم تقعده عن السير فى صفوف الثوار من قومه فى سبيل الوحدة العربية الكبرى وفى سبيل استقلال بلاده ونحن لا نعرف شعره الذى قاله فى وصف الأتراك واضطهادهم وسياستهم خلال صباه فقد احترق هذا الشعر ، ولكن الذى بقى منه فى الديوان المنشور قصيدة نظمت فى الشهداء الذين أعدمهم الأتراك ، وأخرى قصيرة مؤرخة بسنة ١٩١٨ ، وسنه فى الخامسة والعشرين ، قالها خلال الحرب والسيف مصلت على الرءوس . والجوع يهدد العرب ، فرمى أحفاد جنكيز بالظلم والأرهاق ، وشكا عتوهم وسوقهم سلائل يعرب سوق العبيد فقال :

عتا أحفاد جنكيز فساقوا سلائل يعرب سوق العبيد
وأمعن منهم فى التيه رهط فما جنحوا إلى الرأى السديد
هم عقدوا العهود على ولاء وهم عمدوا إلى نقض العهود
فكم قتلوا من الأخيار صبرا وكم ساموا المهانة من عميد
وكم حملوا على الأعواد ظلماً وكم سقوا المنية من شهيد

وهذه أبيات تصور حال العرب من قومه وظلم الأتراك وأعمالهم الإجرامية ، تصويراً لا يخلو من بساطة وبعد عن التكلف فى لغة سلسة سهلة لينة ، ولكنها لا ترقى إلى الشعر الرائع فى تركيبها وفى معانيها وإنما تقرب من أسلوب النثر ، والمهم فيها جرأة الشاعر ووطنيته وعاطفته بل المهم فيها تلفته إلى مكة حيث يصف خفق البنود وعدو الخيول تهيئة للثورة العربية ، يختمها بقوله :

بروق فى الحجاز ومض وهنا فكان « يحلق » قصف الرعود

وهذه البروق التى يرقبها الشاعر من بعيد حققت بعض الأمانى فحملت إلى الإقليم ثورة أعقبتها هناءة مؤقتة واستقلال قصير . وفى العام نفسه كانت

قصيدته التى ألقيت بين يدى الملك الحسين بمكة ، وفيها وصف لآلام الأمة كلها وما تحملته من عنت وارهاق وظلم يقول :

إنّ فى الشام أمة لا تطيق الضيـ ـم تأبى لها العلى أن تطيقا
أوسعوها تعلة ووعوداً وسقوها من الخداع رحيقا
أنذرونا بالموت ما أعذب المو ت إذا كان للحياة طريقا

والشعار الذى اتخذه الشاعر فى الأبيات هو شعار الأبطال الميامين ، ذلك أنه جعل الموت طريقاً إلى الحياة . فاستعذب الردى منهلا ومراداً ، ووصف ما قاسى أهله من وعود كلها خداع وكذب ، واستفزقومه إلى الجلى فان العدو يمكر بالبلاد ، ويفرقها شعوبا وقبائل ، لذلك نادى الحسين بأن يورى بمكة شعلة القتال ، وأن يقيم فى الشام سوقا للطعان وأن يمطر المستعمر صواعق تهدم البغى وتحطم العبودية .

وأحسّ الشاعر خلال الحرب . بأن الغرب يسعى من جديد لتقسيم بلاده ، وتفريق شملها ، والعدوان عليها كما عدا خلال الحروب الصليبية ، فصاح سنة ١٩١٩ :

فيم الونى وديار الشام تقتسم أين العهود التى لم ترع والذمم
هل صحّ ماقيل من عهدو من عدة وقد رأيت حقوق العرب تهتضم

وتساءل الشاعر هل للعصور من ثأر على أبناء آسية ، تريد أن تخضعها لحكم أوربة ؟ وعرض للظلم الذى يصيب العرب بقوله :

نسام خسفا ونقصى عن محجتنا ويوثق الفم حتى تخفت الكلم
نسجو على الضيم والأطماع حائمة ونكظم الغيظ والأكباد تضطرم

ثم تناول وعود « ويلسن » وهى كاذبة خادعة أضلت العرب وأساءت إلى الشام ، فادعى الغرب أن لهم فى مواطننا حقوقا وهم كاذبون كذلك ،

وهدد الشاعر بالسيوف العربية . وعاج إلى الحماسة يذكى بها الأفئدة والقلوب ويدعو إلى الحرب والقتال :

يا نابضاً فيه عرق من بنى مضر أسرج جيادك ولتطلق لها اللجم
واشحذ غرارك لا يعلق به صدأ فإن يجرحكم فالصارم الحكم
كفكف دموع فلسطين وجارتها بيروت واكفف يداً فى بسطها النقم

فهو يطلب إلى العرب أن يشحذوا السيوف وأن يسرجوا الخيول وأن يتأهبوا لقراع الطامعين الغادرين . وفى هذا الشعر صورة للشعر الحماسى القديم فى معانيه وفى مبانيه . يتخذ السيوف والخيول واسطة للقتال ، ويستعمل الصور الشعرية فى استنفار القبائل وفى إثارة الحمية والنخوة . فهو يفكر ويدعو ويهب على صيحات الشعر العربى القديم لا يجد له غيره ركوباً ولا طريقاً .

وفى غير هذه القصيدة أبيات ينبه فيها الراقدين من قومه ويدعوهم إلى أن يتجلببوا بالأدراع والأكفان فالبلاد تباح والدور تجتاح وليركب العربى خيله الجياد العتاق ويمحو عن دياره العار والخذلان ، فهو من عدنان ، ولا يصبر آل عدنان على ذل أو هوان .

ولكن الكارثة حلت بالشام ، ودخل الفرنسيون أرضها سنة ١٩٢٠ غدراً وحيلة ، وأعملوا فى بقية الجيش العربى بها قتلا وفتكا وسقط وزير الحربية العربى ، فصوّر خير الدين الزركلى هذه الفاجعة وسقوط ميسلون بشعر رائع لا نكاد نجد له مثيلا فى شعر الشام ، بل يكاد ينفرد بروعته وبيانه لوصف تلك الساعات الحرجة من حياة أمة صغيرة مدت يدها إلى الحلفاء صادقة فأعطوها المواثيق باليمين ، ورموها بالنار بالشمال ، ففضلت الموت على الحياة ، وسقط أبناؤها فى المعركة ليسقوا الأرض من نجيعهم الطاهر ، وليشهدوا العالم أجمع على غدر الحلفاء وليمكنوا قومهم من المطالبة

بحق الوطن فقد استبيح حماه حرباً ، ولم يستسلم ، وكانت دماؤهم وأشلاؤهم الوثيقة الفذة التي أنقذت الوطن من براثن الانتداب فيما بعد.

قال الشاعر يصف المعركة الحربية غير المتكافئة وصفاً بليغاً أرسله من قرارة نفسه دمعاً وأسى وحرقة ، وتدفق به على الغادرين حقداً ونيراناً ، مطلعها :

الله للحدثان كيف تكيد   بردى يغيض «وقاسيون» يميد

ثم قال :

لهفي على وطن يجوس خلاله   شذاذ آفاق شراذم سود
أبرابر السنغال تسلب أمتي   وطني ولا يتصدع الجلمود
شر البلية والبلايا جمة   أن تستبيح حمى الكرام عبيد

وقد تصور الشاعر عظم الكارثة ، فجعل بردى يغيض ماؤه ، وجبل قاسيون يميد لهولها . فالوطن العربي يجوس أرضه شراذم سود من السنغال ، يسلبون العزة ويختلسون الاستقلال وهذه شر بلية يصاب بها وطن ، حين يهب المستعبدون لنصرة المستعمرين في سلب وطن آخر ...

ثم وصف المعركة نفسها فبلغ الذروة في تصويرها حين قال :

غلت المراجل فاستشاطت أمة   عربية غضباً وثار رقود
زحفت تذود عن الديار وما لها   من قوة فعجبت كيف تذود
الطائرات محومات حولها   والزاحفات صراعهن شديد
ولقد شهدت جموعها وثابة   لو كان يدفع بالصدور حديد

واستطاع الشاعر أن يستحضر صور الزاحفات والطائرات وهي جديدة في شعرنا . جديدة في حياتنا ، فاستلهم المعركة كأنه يراها ورسم لوحة لها

ما تزال أصدق لوحه فى وصف معركة ميسون . فى الشعر السورى الحديث . على الرغم من قصورها عن بلوغ التفاصيل ، ووقوفها عند حدّ الألفاظ والمسميات ، ولكنها على كلّ حال وحدها فى هذا الميدان الأدبى لم نقع على مثلها لغيره من الشعراء

وتابع الشاعر فى وصف الجناة ، ووقع نكبتهم على أهل الشام ، فقد سقطوا على البلاد كما يسقط البوم والجراد . وعمد إلى مناجاة الحمام وهو فى الغم والأسى . وأبلغها التحية وهو عن دمشق بعيد ، منفىّ يعيش فى مصر ، ويتحسر على وطنه وبيوت أهله ، ويتمنى أن يعود إليها وهى فى أجمل عيش وأنضر سعادة ، ولكنه هجرها بعدا عن الهوان فقال :

نذروا دمى حنقاً علىّ وفاتهم أن الشقى بما لقيت سعيد
الله شاء لى الحياة وحاولوا ما لم يشأ ولحكمه التأييد

وفى هذا إشارة إلى حكم الفرنسيين عليه بالإعدام غيابيا كما قلنا قبل قليل ، ولكنه سخر منهم فعاش إلى اليوم معززاً مكرما وهم نزحوا عن بلاده يجللهم العار ويزدريهم الشعراء ويسخر منهم التاريخ . وناجى الحمام ثانية لحملها أساه وشكى إليها بلواه ونذر دمه لأهله ووطنه فى قصيدة سائرة كذلك :

عصفورة « النيربين » غنى وأروى حديث الأنين عنى
أنا المغنّى وما المغنى غير حنين أذاب منّى
شغاف قلبى وحسن ظنى

والأبيات موسيقية اللفظ ، بحترية التركيب ، تكاد تغنى ، سار بها الشاعر على سجع الحمام فلقن طيور بلاده أغانى قلبه وأناشيد روحه القلقة المعذبة فى سبيل أمته ووطنه ، فهو فى طليعة الشعراء الرومانتيكيين ، قد تأثر غير شك كما نرى بعد قليل بشعراء المهجر كما تأثر خليل مردم .

وليس شعره كله سواء فى حديث بلاده ورزئها ونكبتها فمنه بكاء وشكوى. ومنه نصح وحكمة وسياسة، وفى قصيدته التى قرأها للأمير عبد الله حاكم شرقى الأردن نفثة مصدور كما سماها. لم يتناول فيها الغرب فحسب كما كان يفعل وإنما تناول فيها أمراض الزعماء من العرب وأخذ عليهم شقاقهم وتفرقهم، وبرم بهذه الحال فقال:

ولم أر قبل العرب فى الناس أمة سواء عليها خسرها ورباحها
ترجى فلاحا والشقاق حليفها وكيف يرجى فى الشقاق فلاحها
وما برزت فى عالم الله أمة ولا كان إلا بالوفاء نجاحها
أتصحو ومن خمر النكوب اغتباقها ومن سكرات النائبات اصطباحها

ولعل هذه الصيحة أيقظت كثيرين ونبهت راقدين، وأفهمت الشعب العربى أن الداء مبعثه هؤلاء الحكام الذين كانوا يتقاسمون الحكم ويتنافسون من أجله لا يعبئون بما يعد الأجنبى وما يفعل. فهو على الحدود وله عين فى كل قصر من قصور الحكم والإمارة تكاد تسير الأمور بمشيئة الغرب وهواه لا بمشيئة الشعب وأمانيه.

وهذا الشعر الذى قاله الزركلى كان شكوى وكان بكاء على ربوع بلاده وقد فشلت فيها ثورة الحسين، وزحزح فيصل عن عرشه، فنزح الشاعر كما قلنا إلى عمان، وفيها راح يقاسى ألم الحنين إلى دمشق، فأنطقه الأسى شعراً جديداً، لم يكن يعرف إلا لشعراء المهجر فى أسلوبه وفى معانيه وفى بحوره وقوافيه، ففتح فى الشام فتحاً جديداً، إذ أنشد الشعر على موسيقا جديدة، فكأنه نقل مدرسة المهجر إلى بلاده: ولكنه ظل يبكى وينوح على دياره فيقول:

أبكى دياراً خلقت للجمال — أبهى مثال
أبكى تراث العز والعز غال — صعب المنال

أبكى نفوسا قعـــدت بالرجال — عن النضال
أبكى جلال الملك كيف استحال — إلى خيـــال

* * *

ضاعت بلادى يا زمان الصغار — والإندثار
الناس يبنون وما فى الديار — غـــير الدمار
أما ترى الغرب تعلى وطار — فوق البحـــار
وأمتى هاوية فى إنحدار — بئس القـــرار

وهذا التجديد فى بحور الشعر لقى رواجا فى السوق الأدبية على مافى بعضه من ضعف فى التركيب وانحدار إلى مستوى النثر الفنى ، وعلى مافى بعضه من بعد عن الخيال الرفيع المبدع ، ولكنه يدل على أن الشاعر كان موصول النفس بقومه فى المهجر ، يتطلع إلى الشعر الوافد الجديد ، ويحب أن يقلد الرابطة القلمية وقد راحت تغذى الشعر العربى بغذاء جديد ، ظنه بعض قليل الدسم وآمن به بعض على أنه انطلاقة من رحاب الكلاسيكية التى سدّت على كثير من الشعراء سبيل الإبداع . والمهم أن الزركلى ركب إلى هذا الشعر قوافيه وألفاظه على بكاء وشكوى ، فأنحى باللائمة على الزمان المشئوم الذى سقى الشام كأس حمام . وختم هذه القصيدة بقوله يناجى الزمان :

إلى متى نبقى أسارى انقسام — ونستضام
مصر تناجيك ودار السلام — ملّ المقام

وظل الشاعر يحث قومه إلى إقتفاء آثار الأمويين والعباسيين ويدعوهم إلى اليقظة ونبذ الخمول والشقاق ، ويختلس الفرص لإنشاد الشعر فى عمان أو فى القدس خلال هاتين السنتين ١٩٢٢ — ١٩٢٣ — فتجمع شعر كثيراً

ظهر منه فى الديوان ما يكفى لفهم حال الشاعر وقلقه ، ونفوره من هذه المملكة الأردنية ، وسموه إلى مثل عليا يريدها للعرب فما عرف لهم تاريخا يشبه فى فرقتهم هذا التاريخ إلا قبيل رحيلهم عند الأندلس ، فهل هم مؤذنون بالزوال عن هذه الربوع العزيزة ، واسمعه يصف الأحزاب والانشقاق والعدو على الصدور جاثم بآلاته وطرقه الدنيئة ، فيقول :

وما شكواى أو شكواك إلا ... لفوضى فى المجامع وانقسام
ترى كلا له أمل وسعى ... وما لاثنين حولك من وئام
وأحزابا إن التأمت فليست ... تدور بها الأمور على التئام
وتجتمع الجسوم على تراض ... فتفترق القلوب على خصام

وهذا وصف واقعى لحال القوم آنذاك ينذر بشر العواقب . والشاعر يحس بأنه فى سجن كبير فيقول فى وصف عمان :

من مبلغ عنى ديار صبابتى ... وأحب ما أحببت تلك الأربع
أنى سئمت إقامتى فى موطن ... ذل الأعز به وعز الأوضع
بلد أحيط بشامخات صعد ... نحو السماء هى الجهات الأربع
ترد القلوب عليه وهى خوافق ... وتعود وهى من الأسى تتقطع

ولقد أصبحت البلد فى عينيه كالسجن بل كالقبر ، والقبر مع ذلك أوسع وأرحب فى نظره ، وذلك لما رأى من موت أمانيه وآماله ، فأحس باليأس وأدرك أن حال القوم فيها تشبه حال الموتى ، فلا حياة هناك ولا عزة ولا كرامة ، وإنما يدير البلاد العربية منتدب هنا وحام هناك . هنا « فيلبي » وهناك « غورو » .

. .

وحين هجر الزركلى « عمان » لجأ إلى مصر — كما قلنا — وهى ملجأ الأحرار وملاذ اللاجئين من العرب ، يجدون فيها الفىء الظليل والعيش الواسع ، وفى أرض الكنانة راح يتغنى بحرية بلده ، ويناجى أهلها بشعر

سار فى كل مكان ، وأضرب الأحرار ، وأعجب الأدباء فأنشد قصيدته السائرة سنة ١٩٢٤ يقول فى مطلعها :

العـــين بعد فراقها الوطنا لا ساكنا ألفت ولا سكنا

ويرسم بكاءه وحزنه فى أنات متصاعدة وحسرات متعاقبة ثم يقول :

يا موطنا عبث الزمان به من ذا الذى أغرى بك الزمنا
عطفوا عليك فأوسعوك أذى وهم يسمون الأذى مننا
وحنوا عليك فجردوا قضبا مسنونة وتقدموا بقنا

وهذا شعر رقيق فى الحنان والحب والوطنية ، يدل على اليأس بعد الأمل وعلى الهدوء بعد تلك الثورة ، يتغنى به المهاجر الغريب ويردده لوطنى المخلص كلما اشتاق إلى ملعب الصبا ، ومسرح الشباب ، ومراد الأمانى والكرامة . وهو فى لفظه ومعناه يشبه بكاء الثاكل وحزن المفجوع وحنين الغريب فلا تكلف ولا صنعة ، وإنما حسرة تنطلق من القلب ويخرجها الشاعر فى القوافى ، ولعل بيته السائر فيها من أجمل ما يتغنى به النازح وهو قوله :

لو مثلوا لى موطنى وثنا لهممت أعبد ذلك الوثنا

وهذا شبيه بقول شوقى حين نزح إلى الغرب وحن فى الأندلس إلى مراتع صباه وشبابه فقال :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

وكم أوحت الغربة والنفى والبعد إلى الشعراء النوابغ ، وكم أسالت على ألسنتهم أصواتا ملائكية فى الحب والتقديس ، يسميها الناس شعراً ، ولكنها فى الواقع نفحة من نفحات الوحى الجميل قد صيغت فى بيت وقافية .

بل إن هذا الشعر الوطنى الذى كان يرسله الشاعر هو أقرب إلى السياسة

من شعر زملائه ، وذلك لأن الزركلى اختلط بهؤلاء الحكام من العرب فى عمان وفى مكة ، فرسم لنا حالهم وأخطاءهم ، فلما خرج «الحسين» من مكة واستولى النجديون عليها ، كتب الشاعر قصيدة حام فيها حول هذا الملك العربى ، وصور الأخطاء السياسية ، وعرض لابنه فى الأردن ، وتحدث عن ظلم الأب والولد ، وسعيهما للملك ، ثم شمت بهما كما فعل شوقى حين تحدث عن سقوط عبد الحميد فى قصيدته عن «يلدز» وما كنا نريد أن نقف طويلا عند هذا الشعر لولا أن شعراء دمشق قد اختلفوا فى النظرة إلى الحسين ، فقد قرأنا قصائد خليل مردم ورأيه فى حكم فيصل بدمشق ، وسنرى إلى سيرة الحسين فى رأى الزركلى حين يقول فيه :

ريع الكرام بقصرك الـ . عـالى فذق روع الكريم
إسمع أنين «القبو» ويح «الـ قبو» من حنق كظيم
أعددت للأحرار فيه عقاب منتقم ظلوم
أكلت حياة القبو من أرواحهم ومن الجسوم

* * *

طال انقيادك للخصو م وأنت أدرى بالخصوم
الانكليز وما أرا ك بأمرهم غير العليم
مافى جموعهم وإن حدبوا عليك سوى غريم
ذؤبان واديك الفسيـ ح وآفة الملك العقيم
قد يستنيم أذاهم حينا وليس بمستنيم
كالنار تذكيها الريا ح فكيف تطفأ بالنسيم

ثم يقول له واصفا سياسة ابنه عبد الله :

هذا وليدك فى «الرقيم»[1] يعيش فى أهـل الرقيم
يحبو «يهوذا» ما حبو ت وليس غيرك من ملوم

(١) الرقيم : قرية أصحاب الكهف وكانوا بعمان (عاصمة شرقى الأردن) .

وهذه أبيات صريحة واضحة تتهم الأب وتفضح الابن وتسجل على الرجلين مآسى كانت سبباً فى تفرقة العرب وفى خذلانهم ، وهى بعد هذا تعين المؤرخ على فهم الزمان والعصر والسياسة إن كان الشعر يدل على شيء من هذا أو كان يصلح كوثيقة للتاريخ . وقديماً نظر الناس إلى شعر الأدباء السياسيين كالأخطل ومروان والمتنبى نظرة الحذر كما نظروا إلى كتابات المؤرخين سواء بسواء . والزمان نفسه كفيل ببيان الحق وكشف الفضائح . والزركلى لم يقف عند هذه الأبيات وإنما نظم قصيدة أخرى فى الموضوع نفسه وفصّل الأمر فى حال النجديين والحجازيين ، وتحدث عن الأردن ، والقصيدة مؤرخة بالسنة نفسها (١٩٢٤) ، فقد كان هذا الأمر يثيره ويهمه لشدة قربه من الملكين ، واختلاطه بالعرب فى القطرين ، اختلاطاً لم يتح لغيره من الشعراء ، وهو أبدا يرجو وحدة العرب ونبذ الشقاق وطرد الجواسيس والمستعمرين .

وقد كنا نود أن نقع على شعر الرجل كاملا فى السياسيات لنرى ما كان من أمره مع السعوديين ، بعد أن دخل فى السلك السياسى ، وتقلب فى السفارة والوزارة . وأصبح يلى أمرهم فى عواصم الغرب وحواضر العرب . ولكن هذا الشعر وقف عند سنة ١٩٢٥ ، فاستعنا بديوان الثورة السورية وفى هذا الديوان قصيدتان للزركلى أنشد إحداهما فى حفلة إعانة المنكوبين التى أقيمت بمصر (يناير ١٩٢٦) ، وتبرع فيها كرام العرب بمصر لإخوانهم فى الشام ، وأنشد فيها شوقى قصيدته السائرة القافية (سلام من صبا بردى أرق) ، وقصيدة الزركلى فى هذه الحفلة كانت موفقة فى روعتها وصدقها ووصف الفاجعة افتتحها بقوله :

الأهل أهـــلى والديار ديارى ... وشعار وادى النيربين[1] شعارى

ثم رسم فيها النيران التى أحدقت بدمشق وانسابت فى الأحياء ، فأصابت

(١) وادى النيربين : موضع فيه بساتين ورياض كان مدخل دمشق للقادم من غربيها .

الطفل والشيخ والفتاة ، وغدا الناس يترقبون الموت فى الغدو والآصال والثوار السوريون يقومون بالدفاع والقتال فتصلى مئة منهم آلافا من الغربيين حتى أعاد الزركلى إلى الذاكرة يوم ذى قار فقال :

ان أنصفت أيام ذى قار لنا	سلفا فنحن اليوم فى ذى قار
طارت بألباب الفرنجة صيحة	فى الشام فاندفعوا إلى الأسوار
واستهدفوا الأطفال فى حجراتها	والمطفلات وهن فى الأخدار
عموا بمضطرب القذائف كل ذى	ضعف وخصوا كل ذات أزار
ستروا بضرب الآمنين فرارهم	فاعجب لعار ستروه بعـــار

والحق أن هذا الشعر شبيه بالشعر العباسى فى وصف الحروب لا يكاد يختلف عنه فى الديباجة والصنعة ، بل يرقى إلى الشعر الموسيقى فيه ويتقرب من شعر البحترى فى وصف المعركة . وهو فى الشعر السياسى لا يكاد يعلق بوحدة للقصيدة ، فما عرف الزركلى فى الحماسة طريقة مطران معرفة متينة ، ولم يتعلق بها ، وإن كان قد أصاب فى بعض قصائده وحدة المعنى والموضوع ، وبقيت الأبيات منفردة لا تتماسك غالباً . وذلك لعكوف الشاعر على شعر القدماء وكلفه بالفحول منهم . ولولا أن شعره تطرق إلى مستحدثات العمران والحضارة ، وتعابير الدهاء والسياسة للصق أكثره بالشعر القديم فى معناه وفى مبناه ، وفى ذلك اطراء به من وجه واحد وهو براعته فى الصيغة العربية وتحليقه فى موسيقا اللفظ وصحة التعبير ورشاقة التصوير وخفة الظل .

شعر الطبيعة والغزل :

هذا هو شعره فى الوطن والوطنيات والسياسيات ، وأما شعره فى وصف الطبيعة ، فهو لا يتغلغل فى وصف التفاصيل كما نقول اليوم ، وإنما يقف عند الأوصاف العامة ، فريشته لا تبلغ إلى ما بلغته ريشة خليل مردم من كثرة الألوان والظلال واصطياد التشابيه والألواح ، وإنما كانت ريشة

سطحية غالباً ترسم المدن والأنهار فى الشام فتعدد الأماكن ، وتحنّ إليها كما فى قصيدته التى قالها فى بعلبك سنة ١٩١٥ . وفى قصيدته التى قالها بدمشق بالسنة نفسها يصف بها الشلال، ففيها موازنة بين حاله وحال الشلال ، ولكنه رسمه بقوله :

ويروقنى الشلال منحدرا هوى نحو البسيطة من أشمّ عال
يغلى كأن النار بين ضلوعه ويثور مندفعاً إلى الأدغال
شابت غدائره فأرسلها على وجه الرمال وهمّ بالأعوال
ولقد دنوت مقبلا قطراته فرميت من قطراته بنبال

فهو قد عمد إلى ثورة الشلال ، ورسم غدائره فحسب وصور صوته بالأعوال وما نراه فعل كبير أمر ، وذلك كوقفته على الشاطىء فى حيفا سنة ١٩١٩ ، حيث عرض للبحر فى سعته وثورته ووازن بينه وبين ثورات قلبه . وأما وصفه للفجر ونشيده للصباح فقد أبان عن عجزه فى تصويره وقال ، سنة ١٩٢٣ :

انهض ومتع نظرا فى أسطر
تعجز عنها ريشة المصوّر
تلألات فوق جباه الأبحر
سطّرها الفجر فلم تستتر
واتل بها : ويحي الخليّ الناعم
أما لغرقى لجج المظالم ... ياقوم عوم
ابتسم الفجر فقل للنائم : حسبك نوم

وهو فى هذا عاج على تجديده فى أسلوب الشعر ، وقلد شعراء المهجر ، ولكنه لم يخض فى رسم الظلال والألوان ، وفى اصطياد الألواح ، فلم يكن

كالقدماء فى هذا الباب ولم يفعل كالمحدثين وإنما تخلف عنهم فى ذلك ، وقد تخلف فى الغزل كذلك، فلم يكن له فيه ابداع وابتكار وإنما قلد الشعر الموروث فقال فى بعض قصائده يتغزل :

أنا فى حبى سكران ، ومافى الكأس خمر
وبجنبى حـــريق ، وعلى قلبى جمر
فاض دمعى فتلظت مهجتى ، يا دمع رفقاً
إنما أنت على الخدّ من الوقد أحرّ
زعم الواشون أنى صابر فى الحب ، ويحى
فنى الصبر ، وهل للعاشق المكلوم صبر

وهذا الموشح قديم فى صوره ، ولكنه رقيق فى وزنه موسيقى فى قوالبه . ويكاد يكون وحده فى الديوان دالا على غزل الشاعر . فقد تلفت الرجل إلى معالى الأمور ونظر إلى نضال قومه نظرة الجدّ فعكف على رسم النضال والكفاح وعاف مادونهما من غزل ونسيب وهوى وغرام .

الشعر الإجتماعى :

أصاب الشعب العربى خلال حكم الأتراك من الفساد ما لم يصبه من قبل خلال العصور ، فقد فشت الدنايا وعمت الرشوة والفساد والجاسوسية والنميمة ، وسقطت الأخلاق عامة وغدا للمال والمنصب والرتبة واللقب مكان فوق مكان الشرف والخلق الرفيع . فلما قامت الحرب العامة الأولى زادت الفساد فساداً لشدة الحاجة وانتشار الجوع وظلام المصائب ، فأصبح العاقل يرى الأمراض الاجتماعية فتاكة تكاد تأتى على ما بقى للشعب من إيمان بالمثل العليا . لذلك عكف الشعراء على وصف هذه العلل الاجتماعية ، وكان خير الدين قد تأثر أيما تأثر بما أصاب قومه ، فعمد إلى الشعر يبثه شكاته وتسلق منبره يخطب عليه ، ودلف إلى القوافى يصور بها مآسى الشعب

فى شعر قصصى برع فيه الزركلى غالباً ، فقد أرسل قصيدة عنوانها « الفداء » رسم فيها امرأة عظيمة ضحت بنفسها فى سبيل أهلها ، وكانت تضحيتها بالغة العظمة ، فقضت ولكنها طهرت بالموت . ثم صور فى قصيدة أخرى صوراً من فجائع الحرب العظمى ، أهمها الجوع الذى أصاب الناس ، فقد ضاقت أم شريفة بوليدها وسامها نذل وضيع بيع أعزّ ما تملك المرأة فنزلت على كره منها وباعته بدراهم تقى وليدها الموت والعلة ، ولكنه سرق دراهمها وولى . فلا درهما نالت ولا نفسها وقت وما لقيت من الناس إلا الأذية : . . .

تصدى لها من سامها السوء باذلا ... لها مستجاب النقش يزهو ويبرق
فألقت على وجه السماوات نظرة ... تكاد إذا تلقى على الصخر تخرق
ومدت لحانيها العطية كفها ... تتابعه والقلب كالريح يخفق
وطال على ابنيها التخلف عنهما ... فباتا وداء الجوع لا يترفق

وهذه القصص الشعرية تشبه ما خلف خليل مطران من قصص البؤس بديوانه ، ولكن الزركلى متين التركيب موسيقى اللفظ يحسن اختيار كلماته ، فهو جزل مع الرقة ، وفى قصائده هذه وحدة وتماسك وتسلسل لو ألح عليها الشاعر لمشى إلى الفوز والتوفيق .

وفى قصيدة ثالثة صنع الزركلى ألواحا للبؤس مختلفة يبدو أنه قالها حين احترقت مكتبته ، فصب فى شعره ألوان المآسى التى كان يراها حوله ، فمن فتاة حسناء أفقرها الزمان ، وجردها من الجمال فتصرف بها القدر ساخراً هازئاً ، ومن نابغة طوته المنون ، ومن غريب عاش كئيبا مضطربا ، ومن جريح يطوى الليالى مسهداً ، ومن حروب تقوم بين الناس فتفنى كلا من الجانبين . . .

لم تبق أيدى الحادثات ولم تذر ... فعلام تضحك فى سمائك يا قمر

أرأيت تائهة على أترابها
فتانة بسفورها وحجابها
خلابة بدلالها وعتابها
غلابة بحديثها وخطابها
ذهب الزمان بمالها وشبابها
وتفردت بأنينها ومصابها

ناجتك شاكية تصاريف القدر وظللت تضحك فى سمائك ياقمر؟

وهذا موشح طريف عذب، فى معان بسيطة سلسة ولغة سهلة وقواف لينة تنسال انسيالا فى الآذان كما تنسال الموسيقا الهادئة. وقد وفق خير الدين فى وصف الحياة وصفاً فلسفياً على صور أخاذة. كما وفق إلى رسم الأخلاق فى المجتمع، بشعر بسيط كذلك. فرأى أن الحق لا يحترم وإنما تحترم القوة، وأن الكذب سائر مصدق، وأن الحرص على الجاه والمنصب والتاج علة الناس:

أية نفس من أسى ناجية والناس فى حالكة داجية
هذا ينادى: منصبي منصبي وذاك تاجى ويحكم تاجيه
وإنما الفوز لشعب صحا والخسر حظ الأمة الساجية

ولعله تأثر فى هذه الأوصاف الاجتماعية بشعر أبى العلاء، فتناول المفاسد، والأخلاق، ورسمها فى زمانه فكأن المعرى يصف زمانه، وكأن الأيام لم تتبدل والناس هم هم، وفى شعره الزهد بالمال ووصف الدهر ورسم الموت وعظة الحياة فقال يرثى الشيخ طاهر الجزائرى:

يزاحم مستعز مستكيناً وشأو كليهما دار الثواء
ويطمع فى الثناء بنا أناس وما فى الناس أهل للثناء
إذا عمر البناء أخو حياة فيا سرعان أقواء البناء

وقد نلمح فى هذا الشعر صورة للشعراء قبله . ولعله تأثر بمعانى الذين سبقوه فساقها فى أقواله فقد نجد أبياتاً تشبه شعر المتنبي أو البحترى أو المعرى، ولكنها تدل على اختلاط ما حفظ بما نظم، وهو كثير الوقوع، وشعر الزركلى متين جيد السبك . كان الشاعر يتروى فى نظمه وفى تنقيحه قبل عرضه ونشره وذلك ليكون أبدا فى مستوى الشعر الجميل الصحيح الموسيقى وقد كان له ما أراد .

وشعره الاجتماعى كثير فى هذا الديوان الصغير يدل على عمق وفلسفة وحكمة ، ولعلها من كثرة قراءته أو من وفرة اختلاطه بالناس، ودخوله فى السياسة وتنقله فى الأمصار العربية، والمناصب السياسية . فهو يصف الناس بقوله :

لا تأمل الخير من حىّ تيمّمه ... هيهات ما الخير من حىّ بمأمول

أو يقول :

أيضحك ذو اللب مما يرىٰ ... وفى عالم الأنس ما يضحك
عزيز يذلّ ، ودون يجلّ ... وفى كل أرض دم يسفك
برىء يعدونه فى الجناة ... وجان يبرأ أو يترك
رأيت سبيل الهدى وعرة ... ولم أر فى الناس من يسلك

ويغلب على هذا كله صورة اليأس من الناس والوجوم والحزن والتشاؤم سواء فى ذلك وصفه للحياة أو الأحياء فى عصره فلعله أخذ من الجو السياسى البغيض صورة للتفكير والحكمة بل لعل حال العرب وتفككهم هو الذى ساقه إلى هذه النظرة السوداء، وهو مايزال فى الشباب . ومهما يكن من أمر فقد نظم الزركلى فى أسرار الوجود وفى حقيقة الورى ، ولا نستطيع أن نقطع ببعده عن معانى القدماء وأخذه عنهم ، فقد تكلف أول الأمر بتقليدهم والسير على خطاهم ، وظهر أنه يحاول أن يكون شبيها بالفحول منهم،

فأخذ عن البحترى والمتنبي والمعرى ، حتى اتهمه بعض النقاد بسرقة تلك المعانى والعدوان عليها ـ كما قلنا ـ ولكن الرجل ما لبث أن استقل بمعانيه وألفاظه فأصبح على الزمان متمكنا من ناصية الشعر والمعانى ، يصول فيها ويجول ، لولا أن الوظيفة والمناصب السياسية استلبته من قصر الخيال إلى خيال آخر فيه أنماط من العيش لا يدركها الشعر ولا يطرقها ، فسكت كثيراً بعد هذا الديوان الأول ولكنه نظم فى معان عرضت له ومناسبات وقعت فى سبيله من غير شك ولعلها ما تزال فى جعبته فهو يعلن أنه سينشر الجزء الثانى من ديوانه ، وهذا الجزء الثانى إذا ما ظهر فسيبدل من وجهة النظر نحو هذا الشعر والشاعر ، تبديلا فى الفروع كما يقولون ، ويبقى الأصل وهو متانة التعبير ودقة التصوير وأصالة الشاعر وتعلقه بعمود الشعر فى كثير من قصائده ، وتوليده لأساليب فى النظم ، وطرقه للموشح وتقليــــده لشعراء المهجر أو شعراء العرب القدماء .

فهو من شعرائنا الكبار فى الاقليم ، كان يبشر بمستقبل عظيم لو لم ينقطع عن الشعر إلى السياسة وإلى التأليف العلمى فى تراجم أعلام الرجال ، ولكن هذا الانقطاع لا ينزع عنه صورة الأديب الفحل والشاعر الموفق والوطنى المخلص والعربى الأبى المناضل والسياسى المحنك .

مختارات

من شعر خير الدين الزركلي

فيم الونى؟

فيم الونى وديار الشـــام تقتسم — أين العهود – التى لم ترع – والذمم
هل صح ما قيل من عهد ومن عدة — وقد رأيت حقوق العرب تهتضم
ما بال بغـــداد لم تنبس بها شفة — وما لبيروت لم يخفق بهـا علم
ويلـمّها نـكبات كلها ظـلـم — وقد تنير صراط السالك الظلم
أللعصور على أبنـاء (آسية) — ثار . فتخشع للأعصـار تحتـكم
سل عهد (غسان) هل من عثرة لهم — ليست تقال ؟ – وما من عثرة لهم –
أ كان بالله جـــرما غير مغتفر — لآل (عدنان) أن سادوا وأن حكموا
من ذا كر لبنى (العباس) مثلبـة — والليل ان ذكر العباس يبتسم
أأســـلفتك قريش ياليالينـــا — سوءاً والا فضيم اليـــوم تتهم
ننام خسفا ونقصى عن محجتنا — ويوثق الفم حتى تخفت الـكلم
نسجو على الضيم والأطماع حائمة — ونـكظم الغيظ والأ كباد تضطرم
أنزدرى ونوارى فى عمايتنـــا — أيام تحترم العمال والخـــدم
وعود (ولسن) كم أضللت من فئة — لأنت أشأم ماسيست به الأمم
خدعتنا فانخدعنا فاستخف بنا — شمس عن الحق فى آذانهم صمم
أيدّعون حقوقا فى مواطننا ؟ — والمين أقبح ما يطوى عليه فم
ذدنا عن الملك بالأقلام معربة — عن القـــلوب وفى طياتها ألم
عسى يثوب إلى نور الهدى جشع — شكا الطوى ، فهوى كالموت ، يلتهم
وراية بسماء ظللت وطنى — وأنبتت عشبه بالغيث ينسجم
وبالرفات ، من الأجداد خالدة — بين الثرى حجبتها الأعصر القدم
لئن تولوا رعينا حسن ودهم — وصين منهم ومنا فى العروق دم
وإن تأبوا فان السيف ينصفنا — والسيف يبلغ مالا يبلغ القـــلم
انا لنقدم والأشـــلاء ناهدة — فى الجو تعبث فيها الريح والنسم
لا ننثنى عن منانا أو يحل ردى — لا شارخ منـه بالناجى ولا هرم

ان لم يكن فى حياة المرء من شرف · فانها بالردى قد تشرف الرمم
لا يطمع القوم فينا لين جانبنا · وليذكروا أن عقبى الطامع الندم
من حاول الأمر لم يسبر عواقبه · أصاب من لطخات العار ما يصم
ومن أغار على شعب ، ليملكه · قبل القلوب ، تولى وهو منهزم

عصفورة النيربين[1]

عصفورة النيربين غنى
واروى حديث الأنين عنى
أنا المعنى . وما المعنى
غير حنين ، أذاب منى
شغاف قلبي . وحسن ظنى

* * *

عصفورة النيربين — نوحى
يضمد النوح من جروحى
لم يبق لى الهم غير روحى
ما القلب ، ما الجسم ، بالصحيح
ما بى عرق بمطمئن

* * *

ألفت شجوى ، وعفت لهوى
فأين صفوى ، وأين زهوى
سكرت حتى نسيت صحوى
ومن كؤوس النكوب نشوى ،
ومن أجاج الخطوب. دنى . .

* * *

(١) النيربان متنزهان متقابلان فى دمشق على جانبى الطريق بين مرجها وربوتها .

إن أهو ، لا أهو غير آلى
دمى فداء لهم ، ومالى
أحسنت ظنى بهم ، فمالى
خابت أمانىّ فى الرجال ؟
ليت الأمانىّ بالتمنى . . .

لم تف ياقمر

لم تبق أيدى الحادثات ولم تذر فعلام تضحك فى سمائك يا قمر ؟
أرأيت تائهة على أترابها
فتّانة بسفورها وحجابها
خلابة بدلالها وعتابها
غلابة بحديثها وخطابها
ذهب الزمان بمالها وشبابها
وتفردت بأنينها ومصابها
ناجتك شاكية تصاريف القدر وظللت تضحك فى سمائك ياقمر

* * *

أرأيت بين مسارح الأقلام
مترّسلا أو مستجاد نظام
ما كاد يعرف بهجة الأيام
حتى رماه من الفوادح رامى
نهدت إليه قوارع الآلام
فبكى اليراع مودّعا بسلام
عهد النبوغ ، وصوغ آيات العبر ونعمت تؤنسك الكواكب ياقمر

* * *

أشهدت فى غسق الظلام غريبا
ملأ الفضاء تفجعاً ونحيبا
ناءى أحبته وعاش كئيبا
قلق الجنان ، على الزمان غضوبا
الشوق يذكى فى حشاه لهيبا
والدمع يجرى مقلتيه صبيبا
يرعاك مضطرب الجوانح والفكر وتتيه فى خيــلاء كبرك ياقمر

* * *

ومعاقراً خمر الصّبا يترنح
كالظبي،يسكن فى الرياض ويسرح
يلهو بزورقه الصغير ، ويسبح
فى سلسل كالنّور أوهو أوضح
قذفت به هوج العواصف تطرح
فهوى ، ووجه الموت أكدر أكلح
وله على صفحات جدوله أثر وعلوت تزهى فى نجومك ياقمر

* * *

أسمعت أنّات الجريح ممدداً
يطوى الليالى ، لايقر ، مسهداً
لاالعيش طاب له، ولا إشتاق الردى
يمسى ، ويصبح شاكياً متنهداً
ضعفت قواه ، فما يطيق تجلداً
وتعاصت الزفرات أن تتصعدا
غض الجفون ، وقال: حسبك ياغير وسهرت تبسم للكوارث ياقمر

* * *

أشهدت فى كرة الشقاء كتائباً
وأسنة وهاجة وقواضبا
جيشان : كل هب يحمى جانباً
يتطاحنان : تباعدا وتقاربا
هذا يئن ، وذاك يقضى صاخبا
ويح المطامع كم تجر معاطباً
تفنى النفوس وأنت تهزأ بالبشر ويغرك الألق المحبب يا قمر

* * *

أرعاك مبتئس ، شكا ألم الطوى
ومروع ، ضل السبيل وما غوى
ومتوج ، عنت الجباه له ، هوى
عن عرشه ، لا الملك دام ولا القوى
ومودع مستسلم لهوى النوى
ومعذب بغرامه بادى الجوى
وقسوت هل قدت ضلوعك من حجر لم تحتجب لم ترث ؟ لم تف ياقمر

الفاجعـــــة

الله للحدثان كيف تكيد بردى يغيض وقاسيون يميد
وفواجع الملوين ما لجماحها كبح ولا لجراحها تضميد
تفد الخطوب على الشعوب مغيرة لا الزجر يدفعها ولا التنديد
هل فى الشآم وأهله من نابس والنائبات لها عليه وفود
ما فى دمشق لناهض من عزة وبها سرادق غاصب ممدود
بلد تبوأ الشـــقاء فكلما قدم استقام له به تجديد
لانت عريكة قاطنيه وما دروا أن الضعيف معذب منكود

لمسوا حبال حقوقهم فتشبثوا　　والحق يعوزه قنا وبنود
ما تنفع الحجج الضعيف وإنما　　حق القوى معزز معضود

* * *

لهفى على وطن يجوس خلاله　　شذاذ آفاق شراذم سود
أبرابر (السنغال) تسلب أمتى　　وطنى ولا يتصدع الجلمود
شر البليـة والبلايا جمة　　أن تستبيح حمى الكرام عبيد

* * *

من للحمى ؟ أيقيه من عثراته　　طول الأناة ؟ وفى الأناة جمود
زعماؤه متنافرون وأهله　　متناظرون ، وللعداة وعيد
كم رددوا رأيا لعل به الهدى　　والرأى آفة نجحه الترديد
ورددوا به كدر الحياة وصفوها　　عبثا وليس على السراب ورود
وترجعوا يتقلبون على لظى　　وبكل قلب لوعة ووقود
غلت المراجل ، فاستشاطت أمة　　عربية ، غضبا وثار رقود
زحفت تذود عن الديار ومالها　　من قوة ، فعجبت كيف تذود
الطائرات محومات حولها　　والزاحفات صراعهن شديد
ولقد شهدت جموعها وثابة　　لو كان يدفع بالصدور حديد

* * *

ويح الجناة على الشآم جناية　　تيمور ضاق بمثلها ويزيد
جهروا بتحرير الشعوب وأثقلت　　متن الشعوب سلاسل وقيود
كم أنة بلغ السماء دويها　　من أمة تفنى أسى وتبيد
ريع القضاء لها لجلجل قاصف　　تزلزلت أرض وخر مشيد

* * *

خدعوك يا أم الحضارة فارتمت　　تجنى عليك فيالق وجنود
قرآن أحمد إن بكاك فقد رثى　　لك قبله الإنجيل والتلمود

ظلموه

لا التاج ينفعه ولا استقلاله إن لم يحلّ وثاقه وعقاله
ظلموه فاستبقوا إلى وكناته فسهوله محتـــلة وجباله
وعدوا عليه مع الزمان فخدّرت أعصابه وتزايلت أوصاله
وطن تزاحمت الخطوب ببابه وجفاه من عقدت بهم آماله
أنىّ أتحت رأيت أهبة مزمع هجران موطنه تشدّ رحاله
هل ينفع العلم المنيف ، حماته ناؤون عنه ، مشتتون ، وآله
إن اللواء إذا علاك فإنما يحميه ظلك لاتقيك ظلاله
مل المقــــام بمستناخ أهله ضلاله وســـواهم حلاله
شرق الشآم وغربه فى لوعة وجنوبه فى روعة وشماله
الجبر حلف شقائه وبكائه وأخو الضلالة لا يعاف ضلاله
يغريك منه مقاله حتى إذا هتف الصريخ جنى عليك مقاله

دمشق : ٢ / ٧ / ١٩٢٠

الشـــــهداء

نظمت على أثر اعدام الترك فريقاً من شباب العرب بسورية وقيام الثورة بالحجاز .

نعى نادب العرب شبانها لجدد بالنعى أجزانها
بكى كل ذى عزة تربه فهاج نزاراً وعدنانها
فمن للمدامع أن لا تفيض وتربنل كالسيل هتانها
ومن للأضالع أن لاتذوب وقد ناءت الروح جثمانها
وهان لدم الحر أن لايثور ويدفع للحرب فرسانها
لجائع ، هن بجديث القلوب وهيهات تسطيع سلوانها
وقفت أسائل أهل العراء حداة النياق وركبانها

علام الكواكب ما تستبين ... وقد غيّر الدهر ألوانهـا
علام تئن رياح الجنوب ... أنين المضيعة معوانها
وفيم تنوح حمام الشآم ... فتشجى وتقلق أغصانها
وممّ تلبد وجه السماء ... فصبت على الناس نيرانها
دعا موقد الحرب أبطالها ... حماة الديار وفتيانهـا
وثـوّب يندب للعالمين ... عيون الربوع وتيجانها
فأبكى على غرر المسلمين ... أباة المذلة قرآنها
وأبكى على آل عيسى المسيح ... شم العرانين صلبانها
نعت لغة العرب من أحكموا ... لسان قريش وتبيانها

جبار زمزم والحطيم

نظمت على أثر خروج الملك حسين من مكة واستيلاء النجديين عليها

صبر العظيم على العظيم ... جبار زمزم والحطيم
إن القضاء إذا تسلط ... ضاع فيه حجى الحكيم
والنفس جامحة فخذ ... ما اسطعت منها بالشكيم
انهض فقد طلع الصباح ... ولاح مجمر الأديم
ألق السلام على الطلول ... وحى شاخصة الرسوم
ودع قصور «أبى نمى» ... لست فيهـا بالمقيم
راعتك رائعة الملوك ... وتوت بالخطب الجسيم
سهم رماك الأقربون ... به فتغلغل فى الصميم
لم يجدك الحذر الطويل ... من الموالى والخصيم
أيام كنت تسىء ظنك ... بالرضيع وبالفطيم
ما كنت تحفل بالنصيح ... وكنت أحفى بالنموم
للنعميات يد الوشاة ... وللأباة لظى الجحيم

* * *

ريح الكرام بقصرك العالى فذق روع الكريم
اسمع أنين « القبو » ويح « القبو » من حنق كظيم
أعددت للأحرار فيه عقاب منتقم ظلوم
أكانت حياة القبو من أرواحهم ومن الجسوم

* * *

طال انقيادك للخصوم وأنت أدرى بالخصوم
الانكليز وما أراك بأمرهم غير العليم
ما فى جموعهم وان حدبوا عليك سوى غريم
ذؤبان واديك الفسيح وآفة الملك العقيم
قد يستنيم أذاهم حينا وليس بمستنيم
كالنار تذكيها الرياح فكيف تطفأ بالنسيم

* * *

عجبا لمن طلب الخلافة والخلافة فى النجوم
أين الخلافة ، لا خلافة فى الحديث ولا القديم
تلك التى ذهبت مع الأيام قبل ذوى « سليم »

نجوى

العين بعد فراقها الوطنا لا ساكنا ألفت ولا سكنا
ريانة بالدمع أقلقها أن لا تحس كرى ولا وسنا
كانت ترى فى كل سانحة حسنا ، وباتت لا ترى حسنا
والقلب لولا أنة صعدت أنكرته وشككت فيه أنا
ليت الذين أحبهم علموا وهم هنالك ما لقيت هنا
ما كنت أحسبنى مفارقهم حتى تفارق روحي البدنا

* * *

يا موطنا عبث الزمان به　　من ذا الذى أغرى بك الزمنا
قد كان لى بك عن سواك غنى　　لا كان لى بسواك عنك غنى
ما كنت إلا روضـة أنفا　　كرمت وطابت مغرسا وجنى
عطفوا عليك فأوسعوك أذى　　وهم يسمون الأذى مننا
وحنوا عليك فجردوا قضبا　　مسنونة وتقدموا بقنا

* * *

ياطائرا غنى على غصن　　و (النيل) يسقى ذلك الغصنا
زدنى وهج ما شئت من شجنى　　إن كنت مثلى تعرف الشجنا
أذكرتنى ما لست ناسـيه　　ولرب ذكرى جددت حزنا
أذكرتنى (بردى) وواديه　　والطير آحادا به وثنـا
وأحبة أسررت من كلفى　　وهواى فيهم لاعجا كنا
كم ذا أغالبـه ويغلبنى　　دمع إذا كفكفته هتنا
لى ذكريات فى ربوعهم　　هن الحيـاة تألقا وسنى

* * *

إن الغريب معذب أبدا　　إن حل لم ينعم وإن ظعنا
لو مثلوا لى موطنى وثنـا　　لهممت أعبد ذلك الوثنا

مصر : ١٩٢٤/١٢/٢٠

بين الدم والنار

الأهل أهلى والديار ديارى　　وشعار وادى النيرين شعارى
ما كان من ألم بجلق نازل　　ولوى الزناد ، فزنده بى وارى
ان الدم المهراق فى جنباتها　　لدمى وإن شنارها لشنارى
دمعى لما منيت به جار هنا　　ودمى هناك على ثراها جارى

* * *

ياوامض البرق أطمئن وناجنى | إن كنت مطلعا على الأسرار
ماذا هناك فان صوتاً راعنى | والصوت فيه جفوة الاذعار
النار محـــدقة بجلق بعد ما | تركت «حماة» على شفير هار
تنساب فى الأحياء مسرعة الخطى | تأتى على الأطمار والأعمار
والقوم منغمسون فى حمآتها | فتكا بكل مبرأ صـــبار
الطفل فى يد أمه غرض الأذى | يرمى وليس بخائض لغمار
والشيخ متكئا على عكازه | يرمى، وما للشيخ من أوزار
صبرت دمشق على النكال لياليا | حرم الرقاد بها على الأشفار
لهفى على المتخلفـــين برحبها | كيف القرار ولات حين قرار
يترقبون الموت فى غدواتهم | وإذا نجوا فالموت فى الأسحار
لا يعلمون أفى سواد دجنـــة | هم سهد أم فى بياض نهار
الوابل المدرار من حمم اللظى | متواصل. كالوابل المدرار
والظالم منطلق اليـــدين محكم | ياليت كل الحطب حطب النار

* * *

أمجالس السمار، ضاحكة بهم | ضحك الهوى. ما حل بالسمار
أمعاهد الأدب الطريف ثكلته | غض الصبا كتفتح الأزهار
أم القصـــور نواعما ربابتها | ما للقصور دوائر الآثار
أم الجنان، الكاسيات رياضها | حلل السنا، ما للرياض عوارى
أم الحياة، وللحياة نعيمها | هل فى ديارك بعد من ديار
زهو الحضارة أنت مطلع شمسه | أفتخشين وأنت دار بوار
ويح الحضارة كيف يمتهن اسمها | متكالبون على الضعاف ضوارى
هم أوردوك وأصدروك على صدى | فشقيت فى الإيراد والاصدار
هم أحرجوك فأخرجوك مهيجة | فصرخت فيهم صرخة الجبار
طالت لياليك الثلاث وإنما | فى مثلهن يلوح نهج السارى

وإذا الظـــلام عتا تبلج فجره ظلم الحوادث مطلع الأنوار
ما انهـار قصر فى حماك ممرد إلا ليرفع فيـــك قصر نخار
ما دمروك هم ولـكن دمروا ما كان فيك لهم من « استعمار »
حملوا عليك مواثبين وما لهم ثأر ، وثرت وأنت ربة ثار
ما ينقمون عليـــك إلا أنهم شهدوك غير مقودة لصغار
فاذا المنازل وهى شامخه الذرى منهار أطـــلال على منهار
وإذا المدينة « تدمر » أو « نينوى » أنقاض عمران ورسم دمار

* * *

قم سائل الأجيال يا ابن نسيجها واستوح غامض سرها المتوارى
فلعل عبرة مجتلى صـــفحاتها فيها محاه الدهر من أسطار
إن الشعوب لتستفيق ان انتشت والصحو غاية نشوة الاسكار
أرأيت كيف طغى الفرنج وأوغروا صدر الأسنة أيما إيغار
أرأيت كيف استهتروا بمطامع فيها المصارع ، أيمـا استهتار
الشرق بين قويهم وضعيفهم متداول الأنجاد والأغوار
وبنوه بين وعيدهم ووعودهم شتى المـذاهب شرد الأفـكار
لا تأمنن فأنت بين مكافح منهم وبين مخـــادع غرار
وانظر إلى الآلاف من بسلائهم يغزوهم مئـة من « الثوار »
من كل مغوار صليب عوده يقتاد كل مدجج مغـــوار
الواثبين إذا يقال تأهبـوا والقاحمين إذا يقال بدار
ان أنصفت أيام « ذى قار » ، لنا سلفا فنحن اليوم فى « ذى قار »
طارت بألباب الفرنجة صيحة فى الشام فاندفعوا إلى الأسوار
واستهدفوا الأطفال فى حجراتها والمطفلات وهن فى الأخدار
عموا بمضطرب القذائف كل ذى ضعف ، وخصوا كل ذات إزار
ستروا بضرب الآمنين فرارهم فاعجب لعار ستروه بعـــار

* * *

غضبت لسورية الشهيدة أمة ... في مصر تطفىء غلة الأمصار
ورعت لها ذمم الوفا. فلم يضع ... عهد تسلسل في دم الأعصار
لله والتاريخ والدم واللغى ... حق وللآمال والأوطـــار
تأبى الجماعة أن تهون لغاصب ... والفرد موقوف على الأقدار
وإذا العرى انفصمت تولى أهلها ... ضيم المغير بخطبه الكبار

* * *

يا ابن الكنانة ما الجراح دواميا ... في الشام إلا في طلى الأحرار
المشـــترين ديارهم بدمارهم ... وهم يرون به رباح الشارى
أنفوا حياة الشاء كل عشية ... وضحى تعيث بها يد الجزار
هلا نظرت إلى الشآم فانها ... ترنو إليك بشاخص الأبصار
ناءت بحمل نكوبها فتقلقلت ... موجا بأطفال هناك صغار
ليس الجوار إذا عدلت بمقنع ... يأبى الشقيق عليك حق الجار

القسم الرابع

شفيق جبري

(١٨٩٨)

شفيق جبرى

(١٨٩٨)

وهـــذا شاعر آخر من هؤلاء الشعراء الذين لمعوا فى صدر هذا القرن ، ونظموا الشعر فى أغراض شريفة ، فأسهموا فى النضال والكفاح . وعملوا للغة العربية وآدابها ، وتغنوا بالطبيعة والبطولة والعروبة فكانوا حرّاس الوطن وبلابله .

ولد الرجل — كما خط بقلمه — فى ١٤ شعبان سنة ١٣١٤ هـ الموافق لسنة ١٨٩٨ ، فأرسله أبوه وهو من تجار دمشق إلى كتاب الحى ، على عادة زمانه يتعلم القراءة والكتابة ، فدرس القرآن الكريم وتمرس فى الخط والحساب حتى بلغ السادسة من عمره فأرسله أبوه إلى « مدرسة العازاريين » بدمشق ، ودخلها صغيراً ، مع لداته ، وظل فيها تسع سنوات حصل فى ختامها على الشهادة الثانوية .

ولقد حدثنا هو نفسه عن شعره ونثره [1] ، وعن أثر هـذه الحقبة الدراسية فى أدبه فقال : « ولا تزال الكتب التى كنا ندرسها محفوظة فى خزانتى فهى كتب فى التصريف والنحو والانشاء والبديع والعروض والخطابة وكتب مختارات فى الأدب » .

ويرى الرجل أن أحسن مادة كان يتقنها معلموه الرهبان إنما كانت مادة النحو ، أفاد منها إفادة نفعته حتى ما زاد عليها توسيعاً وإضافة .

وأما الأدب الذى كان يدرسه خلال هـذه المدة فقد كان يقتصر على

---

(١) ترجم الرجل لنفسه ترجمة فذة سجل فيها تجربته الشخصية فى الشعر وفى النثر ، فأصدر كتابا عنوانه « أنا والشعر » ثم أعقبه بآخر « أنا والنثر » . وهما من مطبوعات المعهد العالى للجامعة العربية بالقاهرة .

« التحفيظ والتسميع » ويفتقر إلى بيان الفنون الأدبية ، والتحليل ، ولذلك كان جافا بعيداً عن هداية الطالب إلى مواطن الروعة والجمال ، واعترف الشاعر بعد هذا كله بأنه لم يفد قليـــلا ولا كثيراً من دروس الأدب فقال [١] :

« لا غرابة بعد كل ما تقدم إذا اعترفت من تلقاء نفسى بأن كتابتى فى المدرسة كانت من أضعف الكتابات ، فلم يقوم ذوقى الأدبى ، ولم أهتد إلى محاسن اللفظ وأسراره ، ولم أعرف مواقع الكلام ولا وقع الجمل ، فما كنت أفرق بين كلام وكلام وبين جملة وجملة وبين لفظ ولفظ . فإذا سمعت أسخف شعر كنت أعتقد أنه أبلغ شعر »

والذى دفعه إلى حب الأدب والتعلق به ، زميل له فى الدراسة صرفه إلى مكتبة صغيرة عامة ، أقبل إليها الفتى ينهل من كتبها مرة أو مرتين فى كل أسبوع فينسخ شعر المتنبى فى شرح اليازجى أو يعلق بمجلة الضياء لليازجى نفسه ، فيحفظ من هذا وهذا ويردده ويتقن تقليده حتى وقع فى حب الأدب وتعشقه مدى حياته .

وتخرج الفتى من المدرسة سنة ١٩١٣ وهو فى الخامسة عشرة من عمره غض العود ، رقيق العاطفة ، فتحمل مع أبيه إلى « يافا » بفلسطين وأبوه فى تجارته ، وانصرف الفتى من غير شك إلى جمال البحر والصخر ومزارع البرتقال، فتفتحت نفسه على تعشق المشاهد الجميلة وألف منذ صباه حب الرحلة، فما انصرف عنها كلما لاحت له فيها بوارق الجمال والروعة وكان يصب خواطره الفنية فى مقالات متفرقة تنشرها له جريدة المهذب بزحلة .

ثم سافر الشاب إلى الاسكندرية ، متنقلا مع أبيه من ثغر إلى ثغر ،

---

(١) أنا والنثر ، ص ٩ .

وفى هذه المدينة وقع على ديوان المتنبي بشرح اليازجي ، فاشتراه وروى غلة أحس بها فى صباه ، وراح يقرأ ديوان الشاعر الفحل ويردد صوره الضخمة وألفاظه العارمة ، فكان المتنبي أول الشعراء الذين خالطهم ومازجهم — كما يقول — ويبدو أنه حفظ شعر المتنبي، وبعض المعلقات وشعراء الجاهلية. وقرأ شعر البحترى والشريف الرضى ، وتمثل الشعر المتين ، واختزن منه فى ذهنه مادة دسمة كانت تنفعه وتعينه كلما ثار به شيطان الشعر إلى النظم . فقد أخبرنا أنه منـــذ عاد إلى دمشق سنة ١٩١٨ راح ينشر بعض قصائده فى الصحف ، وقد بلغ العشرين من العمر ، وكانت هذه القصائد فى أغراض ذلك الزمان من مديح أو رثاء أو غزل ، نستطيع أن نحكم عليها فقد أورد منها الشاعر فى كتابه أبياتاً قالها فى رثاء تاجر كان صديقاً لأبيه ، وجاء فيها :

أودى المنون بواحد الآحاد ... وعدت على ربع الكرام عواد
والدهر يعثر بالكرام وقلما ... عثرت صروف الدهر بالأوغاد
شلت يد الأحداث كيف تخرمت ... شرخ الشباب ونضرة الأعواد
لما دهى العلياء خطب معضل ... ضربت علىّ الأرض بالأسداد

وهذا الشعر على ما فيه من تقليد للشريف الرضىّ فى رثاء الصابى — كما يعترف صاحبه فهو فصيح جميل السبك لفتى فى العشرين من عمره والشعر آنذاك يتحلل من قيود الركاكة وتزيينات البديع والمحسنات اللفظية ، وهو على هذا يبشر بولادة شاعر شاب أتقن موسيقا الشعر ، وسلك سبيل القول فى تقليد أول الأمر لينتقل إلى الإبداع والابتكار بعد ذلك . وليس من العيب أن يقلد الشاعر الفتى ، فقد كان التقليد سبيلاً إلى نبوغ الشعراء فى القديم ، يحفظون ويروون ثم يقلدون ويتبعون ، وينفصلون بعد ذلك ويستقلون . فكأن الشاعر موصول النشأة بمن قبله موصول النسب بمن يقلده من الناشئين ، وكأن الشعراء سلسلة متصلة الحلقات ، يحكم وصلها

الفتيان فإذا اختمروا استقلت شخصيتهم ، وانتقلوا بالشعر إلى ميادين جديدة هى واسطة تقدم الشعر وسيره مع الزمان .

وطرق الشاعر الشاب موضوعات مختلفة استوحى بعضها من الشعراء قبله ، وبعضها من الكتاب ، فذكر أنه قرأ مقالة للمنفلوطى عنوانها « الغد » فسار على معانيها وأنشأ فى أغراضها فقال لتلك السن :

قد سقانا الزمان من مائه المـــر ومن مائه النمير الزلال
وبلونا ما كان عسراً ويسراً فى زمان الإدبار والإقبـــال
نعرف اليوم ما يكون وندرى ما جرى قبل فى القرون الخوالى
ذلل المرء معضـــلات جساما بذكاء فى عقـــله وصقال
خرق الجـــو كالرياح فباتت أنسر الجو منـه فى أوجال

وتمضى القصيدة على هذا النمط الجيد من المتانة والسلاسة معاً ، وكأنها تلخص فكرة المنفلوطى ، يتحكم الشاعر فى سوق معانيها فى برود من الألفاظ لا فضفاضة ولا مهلهلة وإنما هى على قدّ المعانى ، وقد أعجب بها القـــراء والأصدقاء وعلى رأسهم صديقه خير الدين الزركلى الذى كان يأخذ صديقه بالرعاية والعناية والتشجيع .

وذكر أنه استوحى قصيدته « الزمن » من عنوان قرأه لكاتب غربى فأنشأ يستعير من شعره المخزون ليكسو به ما ينظمه من معان مقلدة أو مبتكرة فقال :

يمشى الزمان فلا يرى متلفتاً فى مشيه عن يمنـــة وشمال
متحفز فى ســـيره فكأنه ســـيل تدفق من مكان عال
يمضى فلا تلويه عن منهاجه فى الخافقين قوارع الأهوال

وهذا الشعر كأخيه الذى قبله فى جمال نسجه وبساطة تركيبه ، وبعده عن التقعر ، وتعلقه بالموسيقا العربية ، وأخذه بعمود الشعر الفصيح كما فعل أصدقاؤه الذى تحدثنا عنهم سواء بسواء .

وفی هذه السن التی كان ينظم فيها هذا الشعر ، دخل الشاعر وظائف الدولة فأصبح رئيساً لديوان المعارف أواخر الحرب العامة الأولى سنة ١٩١٨ ، وبانتهاء الحرب خرج الأتراك من هذا الاقليم وامتدت أيام الحكومة العربية سنتين قاست البلاد بعدهما الأمرين من قلق بالغ وحيرة قاتمة، فقد كان العرب يؤمنون بالعهود والمواثيق التی عقدوها مع الحلفاء ويرون فی تحقيقها شرطا من شروط الاستقرار والحرية ، فلما رأوا نكث الحلفاء وتنكرهم للعهود وتجهم السماء بالوعود السوداء ، هبوا يوقظون الشعور العربی من جديد إلى استئناف النضال ضد الحلفاء ، وكان من مهمة الشعراء أن يكونوا ألسنة هذه اليقظة فقام شفيق جبری بمهمته وأصبح ينشد الشعر القومی ، وظل يحمل اللواء فيه حتى الساعة إلى جانب الفنون الأخرى التی سنتحدث عنها بعد قليل .

* * *

الشعر القومی :

انبرى الشاعر الشاب إلى شعر الثورة كما انبرى بعض زملائه فراح يجمع فی ألفاظه ومعانيه أمانی العرب جميعها ، لا يقتصر على اقليم دون اقليم ، ولا يقف عند بلد دون بلد ، وهذا شعار الثورة العربية ، والشعر القومی ، لا يسعى فی امتداح العرب والفخر بهم ورسم اليقظة الكبرى للوحدة الشاملة .. وكذلك كان شفيق جبری فقال آنذاك :

لله ثورات تبارك أهلها ... أثنى عليها الواحد القهار
فی النيل منها ضجة ميمونة ... حسنت بها من ربعه الآثار
ومشى الضجيج إلى الشآم فرددت ... أصداءه الأنجاد والأغوار
أكرم بوادی النيل ان رجاله ... كرهوا الخضوع فلم يعبهم عار

وهكذا جمع الرجل فى شعره ثورة الشام إلى ثورة مصر ، ورأى أن العرب فى الاقليمين ينهضون للفخار ودفع الذل ورفض القيود ، فى ثورة عارمة ملتهبة . ثم قال ثانية يعرض للعراق كما عرض لمصر :

أيثور أهل النيـل دون لهاذم وعلى الفرات لهاذم وصفائح
للدهر فى ظل « المقطم » مطمح ولأهله فى الذود عنـه مطامح
جاشت بربات الحجال نوائب ضاقت بهن ترائب وجوانح
بكت العذارى من ضياع خدورها ومن الدموع قلائد ووشـائح

وفى هذه الأبيات ألفاظ عباسية بحترية وأخرى جاهليـة تعتمد على الصفائح واللهاذم وربات الحجال ، لا صلة بينها وبين العصر فى صورها ولوازمها ، ولا رابطة بين الأبيات نفسها ، ولـكنها ثورة شاب رأى قلق تلك البلاد العربية بعد الحرب العامة ، وشهد خيبة أمانيها ، فصوّر ما صوّر من صراعها فى ظل المقطم وعلى شطئان الفرات . فلما أراد أن يرسم حال وطنه قبيل دخول الفرنسيين وصف الأسى والجزع وقال :

جرّت عليـه وباله أحزابه لولا التحزب ما استبان وباله
أنى أفقت رأيت فرقة آله لجموعه متقاطعون وآله
كم يستعين على الردى برجاله خارت قواه ولم يعفه رجاله
ما فى مرابعه سوى متلهف ذهبت أمانيـه فرّقت حاله

وهذه الصورة من تفرق الأحزاب وتقاطع الآل والأصحاب رسمها كذلك الشاعر خير الدين الزركلى حين عرض لواقعة ميسلون ودخول الفرنسيين والشاعران صديقان يستقيان من منهل عبقرى وشاعرية فذة ، قال خير الدين آنذاك :

زعماؤه متنافرون وأهله متواعدون وللعداة وعيد
كم رددوا رأيا لعل به الهدى والرأى آفة نجحه الترديد

وما أشبه الصورة بالصورة حين تصفان أمراً واحداً بريشة شاعرين وطنيين من بلد واحد فزعا لحاله وجزعا لتفرق زعمائه وتنافر أهله . وجزع شفيق جبرى لحال الشام كجزعه لحال مصر فهو يعتبر البلاد العربية بلداً واحداً ، وثورة المصريين بعد الحرب الأولى هزت شعراء الشام . وهزت شاعرنا فيهم ، فقال فى تحريض الناس على نصرتها والعمل لها والدعاية لقضيتها لأنها قضية العرب كلهم ، فقد ولدت القومية العربية — كما يقول الشاعر نفسه — منذ زمن ، وكان القرن التاسع عشر يغص بشعراء القومية . قويت على أيديهم ، فهم طلائع النهضة والوثبة .

ودخل الفرنسيون بلاد الشام شهر تموز (يوليه) سنة ١٩٢٠ ، وحلت الكارثة بالاقليم ، وضاع الحلم اللذيذ الذى حلمت به عيون السوريين ، وأفاق الناس على برابر السنغال يحكمون أحرار الرجال ، وهم أنفسهم مستعبدون يجرون وراءهم خزى السنين ، والمستعمر يضرب المقيد بالمقيد ليسكر بصوت القيود والسلاسل وينعم بمنظر هؤلاء المقعدين عن بلوغ الحرية كما ينعم الجزار بالطير الذبيح والحيوان الجريح والفريسة المنتظرة للأكل والربح .

والتفت الشعراء إلى قضية بلادهم على سبل مخالفة يبكون حالها ويندون بالتفرق والذل وشاعرنا يتلفت شطر لبنان فيبثه حزن السوريين، ويتمنى الوحدة :

تعالوا إلينا نجمع الشمل بيننا عسى ربعنا يعلو على الدهر سافله

والشاعر نفسه يعترف أن شعره غدا خلال هذه الفترة هادئا فى ظاهره ، ويضمر الثورة فى ثناياه ، فهو يصف الحال بعد ذلك :

أيهـــا السائل عن أربعنـا إنما الأربع صارت دمنا

ليس فى أفيائها غـــير فتى واجف الأضلع يشكو الزمنا
يرسل الأدمع من أجفنـه فيسلى بالدموع الأجفنا
فروج الشام تشكو ضيمها أين من يكشف عنها المحنا

ونلاحظ أن الشاعر مايزال يضع أمام عينيه قوالب الفحول من الشعراء وأوزانهم وقوافيهم ، ويصر على أن يتغنى فى أنغامها ، وهنا وضع قصيدة شوقى فى الغزل « علموه كيف يجفو فجفا » ولـكنه تأسى بالحزن وتفجع للواقعة والـكارثة ، فى صوت حزين هادىء علله بقوله :

اخفض الصوت ولا تجهر به ربّ صوت هاج فيك الظننا
عقدوا الألسن حتى صمتت ما ترى للقوم فينـا ألسنا

وهذا يشير إلى الـكبت والتضييق وكم الألسن ، ومراقبة الفـكر والجاسوسية المطبقة على الشعراء والأحرار ، حتى عمد الشعراء إلى التـكنية والتعمية والرمز ، فـكان شفيق جبرى يتحدث عن أحزان قومه فى ظبية عرضت له بالوادى ، وضاقت بها فلواتها فـكأن الأرض ضربت عليها بالأسداد . أو يتحدث فى صورة عندليب ناح فـكان نواحه دليلا على الأشجان والقيود وفقدان الحرية ، فقال سنة ١٩٢٤ :

أتبـكى العنادل أوطانهـا ولا ينـــدب المرء أوطانه

وإذا انقلب عن الظبية والعندليب ، التفت إلى أعلام الرجال ، فوجد فى حديثه عنهم متنفسا ينفذ منه إلى الـكلام فى وطنه وفى عروبته وفى الدفاع عن البلاد ، فقال ١٩٢٤ فى تأبين المنفلوطى :

ألم يكفنا أن نضيع الديار فرحنا نضيع رجال الفـكر

ثم قال فى رثاء الأستاذ أحمد كرد على شقيق محمد كرد على وكان من رجالات الصحافة أبياتا نفث فيها ما أراد فقال :

لكن جلق فى ازدحام خطوبها جبارة بكهولها وشبابها
لم تستتم لأذى فان هاجت بها دهم الخطوب أوت إلى أقطابها
عركت عروبتها السنين فأقلقت عبث السنين بجدها وبنابها
ظل العروبة وارف فى جلق متمكن فى أرضها وسحابها

ولعله خرج عن بعض هدوئه فى هذا الشعر ، فقد كان الاعتراف بالعروبة جريمة فى نظر المستعمر المنتدب . وعلى هذا ظل الشاعر رسول عروبة ووحدة قومية ، هادئا حينا ، عنيفا حينا آخر يشبه فى شعره صور القدماء أو صور معاصريه ، فكأنه شفيق خير الدين الزركلى فى قوافيه ومبانيه .

وقضى فوزى الغزى فقامت البلاد لتشييعه واستنكار اليد الأثيمة فى تدبير قتله ، فقال الشاعر :

بدمى وروحى الناهضين على الحمى الطالعين على العرين أسودا
الزاحفين إلى القيود وملؤهم عزم يحل سلاسلا وقيودا

وهذا الشعر ينظر إلى قصيدة شوقى حين يقول : « بأبى وروحى الناعمات الغيدا ، الباسمات عن اليتيم نضيدا » ، ينظر إليه فى البحر والقافية فحسب ولكنه فى وصف الاستقلال والوطنية :

أبت المكارم أن تذل رقابهم وأبت أمية أن تكون عبيدا

ولسنا ندرى سببا لهوادة الشاعر فى ألفاظه وهدوئه فى تعابيره السياسية والقومية بينما كان خير الدين الزركلى يرسل الشعر حمما على المستعمر ، وربما كان ذلك لشدة الرقابة ، ومكان شاعرنا من التدريس ، فقد عين سنة ١٩٢٨ أستاذا ومديرا لأول نواة لكلية الآداب بدمشق ، وغدا يحاضر فى المتنبى صديقه القديم وفى الجاحظ صديقه الجديد ، ويجمع من محاضراته فيهما باقتين زاهرتين .

ومهما يكن من أمر فقد كان شفيق جبرى يغتنم الفرص فى المناسبات الطارئة ليقول الشعر الوطنى، وينفس عن نفسه ، ويبث الوطنية والعروبة فى قصيده ، كما كان يفعل غيره من زملائه فالمناسبات وحدها كانت تبيح قول الشعر وخاصة فى القومية ، وذلك لأنها تجمع الناس للاستماع ، وتلم شعثهم لغرض واحد ، فينهض الشعراء السوريون وينشدون فى الجموع ماجاءوا لأجله وما لم يكن كذلك من أغراض المناسبة ، ليرسلوا مايريدون من وطنية فيثيرون الجماهير بأصواتهم وطريقتهم الشامية فى الإلقاء ، وفى التعبير والتصوير . وبهذا كان شفيق جبرى وكان بدوى الجبل ينهضان للقول ، أما شفيق جبرى فقد وقف فى حفلة هنانو بجامعة دمشق فراح يبكى الزعيم الراحل ، ويبكى الأمة الجريحة ويحث على التضحية :

أمة تنشـــد الحياة وماض ملأ الأرض من دوى وثابه
سحب المجد كالخضم على الأر ض فضاقت فجاجها بانسحابه
حاولوا صدع شملها واستثاروا كل جنس لصدعه وانشعابه
حجب الله كيدهم عن مغانيـ ـها فعاشت منيعة فى جحابه
خلق الله للعمارة قــوما واصطفاهم لهـــدمه وخرابه

ويبدو أن الناس هاجوا وماجوا لهذه الصراحة والجرأة بعد طول سكون ، وخرجوا يرددون الشعر الثائر ، فقد وقف لشعر شوقى حين يقول فى فيصل : أمة تنشىء الحياة وتبنى ... وكأن شفيق جبرى اتخذ من دنيا شعره قبسين يستضىء بنورهما وهما أحمد المتنبى وأحمد شوقى ، لا يكاد يجد غيرهما معينا لوحيه وبيانه ، ينافس قوافيهما ومعانيهما ، ويعلو فى سماء الشاعرية .

وقد وقف شفيق جبرى فى الذكرى الثالثة لوفاة سعد زغلول يبكى الزعيم بشعر رائع جميل ويشارك الشقيقة فى أساها بالوطنى الكبير الذى

رفع رأس الشرق والعرب جميعا فقال شاعرنا(١)، سنة ١٩٣٠ ، وقد تجاوز الثلاثين من عمره :

لا خير فى شعب يسا ق إلى الأذى سوق الضئين
من هان فى طلب الحقـــوق قضى بغصات المهين
عاشت لنا مصر وعــاش رجال مصر الأكرمين
الناهضـــون على شبا ب الدهر بالكنز الثمين
بالوارفات ظــلالــه للواردين الصــادرين
وطن بناه كل تر ب للمحامد أو خدين

وهو فى هذه القصيدة يسوق شعبه إلى الحمية والثأر والاستقلال ويهيب بالسورى أن ينهض كالمصرى لبناء الوطن ، فما يبنيه إلا أبناؤه وما يذود عن حماه إلا جنوده . وكان شفيق جبرى يرى كما يرى زملاؤه الشعراء أن يستقى السوريون من ماضيهم العربى وأن يبنوا مستقبلهم على الأمل والعمل والتاريخ ، فهو يستعيد ذلك الماضى فى شعره الوطنى ، ويتمثل تلك الصور الزاخرة بالأمجاد فيفرشها أمامه كما يفرش الزهر ويرويها بدمعه أسى ، فيقول فى حافظ ابراهيم بدمشق :

وقفت أنشد فى الأفناء أرسمهم لا الملك ملكى ولا السلطان سلطانى
لم يبق من عبد شمس غير خاطرة أروى مغارسها من ماء أجفانى
أشقى وأنعم فى أعطاف هبتها فيها الردى وبها روحى وريحانى
تكاد تومض فى جنبى خيالتهم ما كان أبعــدهم عنى وأدنانى
يبلى الجديدان ما تبلى مناقبهم فى النيرين إذ كر الجديدان

وهذا الشعر متين جزل جميل ، موسيقى ، قد استقام فى معناه ومبناه . فاحتل صاحبه بجدارة وحق مكانه فى الشعراء الكبار بالأقليم ، واستطاع هذا الشاعر بعد محاولات طويلة خلال خمس عشرة سنة أن يمكن لأسلوبه

---

(١) مجلة الناقد بدمشق ٢٢ آب ١٩٣٠ .

ومعانيه فى الفحولة والقوة والجودة ، وأن يسير مسير السابقين فى حلبة الشعر بمصر ، أمثال شوقى وحافظ ومطران ، وأن يكون مادة فخر لأدباء هذا العصر ، يجرى مع خليل مردم فى الإنشاد والروعة فيفضله قوم وينزل به قوم ، ويوازنون بينهما كما وازنوا بين القدماء فى كل عصر ومصر ، وما كان من همنا أن نقول رأينا فى الموازنة ، وأن ندلى بدلونا فى الأحكام ، فنحن لا نؤمن بهذه الطريقة من الحكم والدراسة ، بل نؤثر أن يوضع الشاعران فى فن واحد موضع الحكم على شاعريتهما وفنهما ونرى أن شفيق جبرى قد وقف للموسيقا الجميلة والصياغة الجزلة ، واستطاع أن يسمو وأن يحلق فى الشعر القومى الوطنى وخاصة بعد الثلاثين من عمره .

فقد كان الرجل لا ينسى دمشق وخلافة الأمويين ، وأمجاد العرب فيثير الذكريات الغالية بشعر رائع جميل . وقد سافر إلى بغداد سنة ١٩٢٧ ليشارك فى الذكرى الأولى لوفاة جميل الزهاوى فتلفت قلبه خلال القصيدة الجميلة إلى دمشق فقال(١) :

قد تبعد الأرض إلا عن جوانحنا ... فليس دون اهتزاز القلب مبتعد
مهلا دمشق فان أزحف إلى بلد ... يزحف إلى بنو العباس والبلد
أطوى السنين فتلقانى خيالتهم ... كأنى بينهم دان وقد بعدوا
أكاد ألمس فى جنبي خلافتهم ... كأنما الليل من لألائها يقد
وتوشك العين أن تلقى قصورهم ... يموج فيها الهوى والعيشة الرغد

ثم يقول فى الوحدة العربية على التاريخ :

ماض من الدهر لمتنا أواصره ... لا الغور يطرحه عنى ولا النجد
العندليب إذا غنى بدجلته ... غنى على برداه الطائر الفرد

(١) لم يطبع ديوان شفيق جبرى فجمعناه من أطراف الصحف ومن كتابه عن شعره وهذه القصيدة وردت فى مجلة الحديث بحلب ، نيسان ١٩٣٢ ، ص ٣٠٤ :

وهكذا غنى الشاعر على دجلة فردد بردى صوته ، وذكر الأواصر بين العرب فى الفرح والأسى والذكريات المشتركة ، فكان رسول السوريين إلى أهل العراق ، يغنيهم قومية العرب وحنين أهل هذا الاقليم إلى ذكريات الماضى وآمال المستقبل .

والشاعر يعترف بأن الشعر القومى كان أكثر زاده فى الأدب فقال يتحدث عن « على محمود طه »[1] .

« إننا معاشر أهل الشام ، نفضل الشعر الذى نرى عليه آثار القومية ، وآثار الوطنية . لأننا فى غلاب ونضال ، اننا نستخدم الشعر حتى يقوى فينا هذا الغلاب وهذا النضال » .

وقد ظل الرجل يفضل هذا اللون من الشعر ، فيشارك فى رسم البطولات ويتحدث عن الأبطال فى الأدب والفكر والتاريخ ، فيرسم لوحة رائعة للنبىّ الأعظم ويختمها بقوله :

فأين رسول الله يشهد أمة ... تئن أنين الطير من كل ذابح
تعالت فطاحت فاستكانت فأصبحت ... لاذلالها يلهو بها كل مازح
فلا ملكها فى الأرض مشتبك العرى ... ولا عيشها فى الخلق عيش الصحائح
على مثلها من ذلة بعد عزة ... تفيض جفون بالدموع السوافح
فهذى فلسطين تنوح من الأذى ... فما نضحت عنها عيون النوائح
فهل صيحة فى العرب تبعث ملكهم ... ألا ربما هبوا بصيحة صائح

وهذه الصيحة الجديدة فى فلسطين ، موضوع جديد لشعره فى الوطنية بعد صيحاته ضد الأتراك والفرنسيين ، حتى لقد أصبحت فلسطين شغله الشاغل فى شعره ، فأعاد القول فيها بقصيدته « ثورة العرب » ورسم اليهود هذه المرة كما يستحقون أن يوصفوا به فقال :

أيعيث اليهود فى حرم القد ... س فسادا والنوم يأخذ منا

(١) نشر الحديث تحت عنوان صور مصرية « بمجلة الحديث » يونيو ١٩٣٤ ص ٣٥٩ .

لفظتهم جوانب الأرض شذا ذا فتاهوا القرون قرنا قرنا
ضجرت منهم الشياطين والأنـــس فأنى نجنو عليهم أنى
أحصدوهم حصد السنابل حتى تتداعى صهيون ركناً ركنا

فهم شذاذ الآفاق لفظتهم الأرض فتاهوا وسيظلون تائهين أبد الدهر ، ولن تكون فلسطين موطنا لهم . فهو يدعو إلى طردهم وحصدهم حتى تتداعى بيوت الصهيونية ، وهى أوهى من بيت العنكبوت لوهن حجتها وظلمها للعرب أهلها الحقيقيين .

وبلغ الشاعر الستين من عمره وهو ما يزال يعتلى المنابر ليصدح بصوته الجهورى أغانيه فى بطولة العرب والأبطال ، فيهز قلوب الجماهير بانشاده الجميل ، وينسجم مع سعره ، ويتفاعل مع ألوان قصيده ، فيرفض عرقا وهو يرسل الوحى فى قواف جميلة موسيقية ، فكأنه يقول بكل جوارحه ما امتلأت به ضلوعه من شعر ومن نشيد . وقد أكرمته المناصب العلمية ، فكان عميدا لكلية الآداب خلال سنوات عديدة ، وهو عضو المجمع العلمى العربى بدمشق ملأ مجلته بالنقد والتحليل ، واختير عضواً للمجلس الأعلى للآداب منذ سنتين ، وهو فيه يرسل القصيد تلو القصيد فيهز جنبات وادى النيل وشطئان بردى بشعره ، فيقول فى مهرجان شوقى مباركا هذه الوحدة بين الإقليمين :

ارم عنك الأكفان واطرح ثرى القـــبر وشاهد ملكا على النيل رحبا
تلتقى الشام فيه تربا لمصر كل ترب يشد فى الملك تربا
وغدا تزحف الديار ديار العر ب تحت الدرفس روحا وقلبا
إنما العرب وحدة فاذا صا ل عدو كانوا عليه البا

ولم يقل الشاعر هذه الأبيات فى مهرجان شوقى ليثير الحماسة أو يتقرب من الجماهير ، وإنما هى عادته فى نداء العروبة وجمع الشمل ، وتقريب

الأقطار العربية رأيناها منذ شب ، وظل عليها حتى الساعة . وهو فى هذه القصيدة يستعيد ذكريات الماضى وأمجاد العرب فى المشرق والمغرب ، فإذا بلغ إلى حاضر العرب بارك الوحدة بين إقليمين وتمناها للعرب أجمعين وهى حلم الأجيال القديمة والحديثة ، تغنى بها الشاعر فكان لسان قومه ورسول أمانيهم يبلغها فى قصيد متين رائع منسجم ، كان يقتصد فيه فما يخرج على الناس بشعر إلا حين يجمع أنفاس المتنبى وألفاظ البحترى وعظمة الشعر القديم والحديث ، ولذلك نرى فى تعابيره قوة ندرت عند غيره ، وهذه القوة كانت فى الخيال الجامح وفى العبارة المجنحة والجملة المعطرة كما يقولون . وإذن فقد وفى الشاعر لأغراض وطنه ونهض برسالته الوطنية فى شعره ، فكان موضع التقدير وما يزال .

* * *

الشعر الغنائى :

اشتهر الشاعر شفيق جبرى بحب العزلة عن الناس ، فهو رقيق الشعور تؤذيه الكلمة النابية والنكتة الجارحة ، والألفاظ القلقة ، كأنه يحب أن يكون الكلام المرسل صورة للشعر الجميل فى وشيه ونمنمته وجميل تطريزه . فاذا لم يكن كذلك فهو فى غنى عنه ، لذلك آثر أن يحدّث الطبيعة وأن تحدثه ، فهى جميلة الوشى عظيمة التنسيق تبرز مفاتنها لمن يفهم المفاتن ، وشاعرنا صحبها طويلا فأعطته سر جمالها ومنحته أجمل مفاتنها ، فأخلص لها وانصرف إليها وعاف الناس ، فوجد عندها « راحة البال ومتعة القلب وهدوء الأعصاب[1] » . وكان يسرح بصره فى الوديان والجبال والسهول والأنهار يصغى إلى الحمام ، ثم يرتل فى صدره آيات السحر والامتنان ، وتبقى الآيات حبيسة فى صدره لا تكاد تنطلق إلا غرارا ، فشعره

(١) من كتاب « أنا والشعر » ، ص ٣٢ .

فى هذا الميدان نزر بخيل ، يعترف بذلك هو نفسه . ويعجب له ، ولكنه لم يعدم صوراً عن الطبيعة عرض منها فى كتابه عن الشعر نستعيرها فى الحديث عن شعره فى الطبيعة ، وقف على شواطىء بيروت فقال :

ماج الخضم وزلزل الصدر مالى ومالك أيها البحر
للعاصفات على شواطئه حنق على الأيام محمر
فكأنما هاجت بوادره أمم يهدم حوضها الدهر
الجزر يطوى من قلاقله والمد ينشر ما طوى الجزر
والموج يفصح عن لواعجه ولواعجى يوحى بها الشعر

وهذه الصورة فيها الثورة والعنف والهيجان نظر إليها الشاعر من خلال ظروفه وحال وطنه ، فرأى القلاقل والعواصف والحنق واللواعج ، وانصرف بذلك إلى أثر البحر لا إلى صورة البحر نفسه ، واتخذ العبرة منه ولم يقف عند الصورة ، فهو فى ذلك شاعر رومانتيكى غنائى يعير المشاهد من نفسه ما يثور فى نفسه . فإذا سمع هديل الحمام رأى فيه البكاء والأشجان فقال :

ناح الحمام على الغصون فأثار مكتمن الشجون
وصبا إلى مضض الهوى وأنا صبوت إلى العيون
لكنه حبس الدمو ع وماج دمعى بالجفون
وإذا بكيت فليس من يبكى على دائى الدفين
شتان ما قلبى وقلـ ـبك يا حمام الزيزفون

وصورة الحمام توحى إلى شعرائنا ذكرى الدمع والأسى ، والموازنة بين طير طليق وشاعر حبيس ، بل إن شاعرنا يعترف بأنه المبرح بالسلاسل مثل تبريح السجين ، فأى سلاسل كانت تكبل الشاعر فى وظيفة عليا بالمعارف وشهرة ذائعة فى الشعر ، إنها سلاسل النفس الشاعرة تقيد

صاحبها وتشعره بالضيق . فيحس أن الناس حوله قضبان من حديد ، وأن أقوالهم كأقوال السجان ترمى إلى التعذيب والتبكيت وإثارة الشجون ، فيظل ينطلق بالشكوى ولا يجد لها سلوى ، وكأن هديل الحمام لا يوحى السرور والإنشراح .

ودمشق الفيحاء على جمال غوطتها وأنهارها لم تجد فى شعر الشاعر لوحة بالألوان والظلال يقدمها إلى سامعيه صورة للفتنة والجمال . وإنما لقيت منه التحية بعد التحية ، والدعاء بعد الدعاء ، وكذلك لبنان الفاتن أثار دمع الشاعر فسفح العبرات فى أفياء الأرز ، واستروح النسيم ليجد فيه عزاء وسلوى لقلبه . ولكنه حين جاز الصحراء القاحلة أوحت إليه بصورة موفقة ، كأن الجمال فى لبنان والشام طغى على نفسه فشربت منه وارتوت وما تركت للشعر قافية تسيل فى مدحه ، فلما كانت الصحراء رواها بقصيدة لعلها تنبت الجمال فقال :

قالت دمشق وقد ناجيت غوطتها ... ومائج الدوح فى جنبى مطرد :
أتترك الروض والأنغام تملؤه ... وتنتحى البيد لا روض ولا غرد
ما أنت والبيد تطويها وتنشرها ... كأنها اليم منزوح به الأمد
ما تسمع الأذن حسا فى مسارحها ... كأنما الموت فى أطرافها كمد
كأنها سفن فى الجو لابدة ... تحدو بها الريح لا تجرى ولا تخد
خل الفلا والمها والشيح إن لها ... ركبا من الجن لا يأوى لهم أحد
فقلت : مهلا وراء البيد منحدر ... للرافدين عليه الأهل والولد

وهذه الأبيات تشرح نفسية الشاعر حين ينصرف عن الروض للأنغام وينتحى البيد فيرسمها بصورة بارعة ، فكأنها اليم منزوح به الأمد لا تسمع الأذن فى مسارحها حساً ، كأن الموت جثم فى أطرافها ، والسحب كمدت فى آفاقها فامتقع وجه السماء منها ، حتى خيل إليه أنها سفن فى الجو لابدة .

فهل تثير الصحراء شاعرية الرجل ولا تثيرها الغوطة ؟ أم أن نفسه العربية بمعانيها ومغانيها ومفرداتها عشقت الصحراء وألفتها فتشابهت نفسه ونفسها، وتجاوبتا، فغامت السحب فى آفاق روحه وامتقع وجه السماء فى حياته؟ إننا لنرى عشق الرجل للصحراء موطن الأجداد عشقاً لا نبلغ إلى تفسير مداه فالفيافى أنبتت نبوة فى القديم ولكنها خالية اليوم من البهجة والنغم، ولا يمكن أن تبعث الوحى إلا لتمجيد البطولة والعروبة . وقد انصرف إليهما الرجل بكل شعره . وحرم نفسه التغنى بصور الطبيعة . فخلت مختاراته من الوصف والتصوير لألواحها ، على شدة حبه لها وولعه بها وانصرافه إليها واعتزاله صحبة الناس وإيثاره صحبتها وحدها .

وإذا كان قد عشق الطبيعة ولم يبح فى شعره بهذا العشق وأثره ولم يترك لنا شيئاً نتغنى به ، فهو قد عشق المرأة وحاول أن يصفها وأن يتغزل بها ولكنه حين أراد أن يبوح سكت كذلك عنها وانصرف إلى عشق الوطن فقال فى ذلك (١) : « فما كنت غريباً عن هذا الحب . ولا كان هذا الحب غريبا عنى . لقد حاولت مرة أن أفصح عنه فى قصيدتى نوح العندليب ، على نحو ما تقدمت الإشارة إليه ، فانقلب الافصاح فى خاتمة القصيدة إلى شعور وطنى كادت عاطفة الحب تفرق فيه . وكثيراً مايسألنى بعض الصحاب عن شعورى فى الغزل فأخجل من نفسى كل الخجل، وأحس بشىء من الضعف وأنا أقول لهم : ليس لى شىء من هذا الشعر، فلا يكادون يصدقون ما أقول » .

ولسنا نضيف إلى هذا الاعتراف أمراً ، فهو يكفينا مؤونة التخمين ، ويقطع بأن الشاعر انصرف إلى عاطفته الوطنية كل الإنصراف ، فسدت عليه كل سبيل إلا الشعر الوطنى القومى .

ولكن الشاعر بعد هذا يعرض علينا نماذج من الشعر فى الغزل ، قلد فيها أشعاراً سمعها أوقرأها ، فدخل فى الغزل المصنوع كما يقول النقاد ،

---

(١) أنا والشعر ، ص ٣٨ .

وهو النسيب الذى كان يطلقه الشعراء فى صدر كل قصيدة ليبعث الشهية إلى الاستماع أو يثير الانتباه عند القراء ، فهو مقدمة أو مطلع ، وهذا الشعر نفسه تعلق بالأساليب الغزلة القديمة ، فتغلب المسموع على المحسوس ، وسار الشاعر فى درب الهوى منشداً ، لا متقيداً بلوعته فنشيده من اللسان لا من القلب .

قال إنه كان يقرأ فى كتاب الأغانى خفائف من الشعر الغزل فأوحت إليه ببعض الشعر ، فأنشد فيه :

وميض البرق من ثغرك　　فديت البرق والثغرا
وهذا الشعر من سحرك　　فمن علمك السحرا
بحار الدر فى نحرك　　فضحت الدر والنحرا
فما أسماك فى طهرك　　ملكت العف والطهرا

وهذا الشعر شبيه بالذى ينظم على قياس نغم معلوم ليغنى وليس فيه من صور العصر فى النحر والدر ما يستهوى القلب والضلوع ، وقد قال الشاعر نفسه : « لئن لم أباشر الغزل مباشرة ، لقد جئته من جهة ثانية » ، وهذه الجهة التى أشار إليها هى الناحية الاجتماعية . فقد تحدث عن المرأة بعقله وتفكيره لا بقلبه وهواه ، فأشار إلى ما كان يسمع من حوادث الطلاق والزواج ، وحال الأهل نحو الفتاة ، ومشاكل المرأة فى المجتمع ، فوصف سنة ١٩٢٨ حال فتاة عانس ، وقال :

نظرت إلى مرآتها　　والطير فى وكناتها
والشمس ضاحكة تنا　　جى الروض فى ضحكاتها
كتمت هواها فى الفؤا　　د فلاح فى لحظاتها
فتأوهت حتى حسبـ　　ـت الموج من أوهاتها

وبكت فكدت أخال أن الطل من عبراتها
الشمس توحشها إذا طلعت على شرفاتها
وإذا الضحى بسمت لها عبست على بسماتها
ما الورد ما المنثو ر ما الريحان فى جناتها
ما الدر ما الياقو ت ما المرجان فى جنباتها
لا تشتهى إلا القري ن يلم من شعثاتها

وفى سنة ١٩٥٨ أى بعد ثلاثين سنة ، علق على هذه الأبيات بقوله : (١) « فإذا كنت قد عبرت فى هذه الأبيات وفى القصيدة كلها عن وحشة الفتاة العانس فى دارها وعن حنينها إلى قرين يؤنس من هذه الوحشة فقد عبرت فى الوقت ذاته عن شيء نظير هذا فى بواطن نفسى » . وذلك أن الرجل حتى الساعة لم يتزوج ولم يختر قرينة لحياته ، فشعوره لم يتغير على مر ثلاثين عاماً ، إن لم يكن قد ازداد حباً لهذا الشعر .

وإذا كانت قراءة كتاب الأغانى قد أوحت إليه بالغزل التقليدى ، وسماع حكاية العانس قد أوحت إليه بالغزل اليائس فإن قراءة الشعر الفرنسى أوحت إليه كذلك بقطعة اقتبسها وصاغها شعراً مقال على لسان الشيخ يناجى نابليون :

فزعت إليك أبا الفاتحين أجر الستين وراء السنين
رسوم الليالى على مفرقى وآثارها الغر فوق الجبين
أمض ضلوعى عقوق البنين فأشكو إليك عقوق البنين
تخيرت زوجاً لبنتى فقا لت البنت : زوجى من الطاعنين
أحبت فتى من بنى عمها وقالت : فتاها من الساحرين
فأوح إلى البنت حب المسـ ن فأنت القدير على القادرين

(١) فى كتابه « أنا والشعر » ص ٤٢ .

ويجيبه نابليون بأنه قادر فى كل شىء يغلب الأمم ويطيح بالملوك ويزلزل الأهرام ولكنه لا يستطيع فى الحب أمراً، فيقول :

فما لى فى الحب أمر يطا ع وما أنا فيه من الظالمين
فأرخ لبنتك قيد الهوى وكن فى الهوى أرحم الراحمين
فدعها تجـل فى حمى العاشقيـ ن ذات الشمال وذات اليمين

وطبعى أن تصدر الترجمة والشعر عن شاعر ذاق ما ذاق فى هذا السبيل لحرم الحب والوحى، وصدف عن الغزل، وكان غزله على لسان غيره، كما كان بعض غزل شوقى، فقد نجح شوقى فى غزل مسرحياته على لسان عشاقه بما لم يتح له فى ديوانه عن غزل قلبه وضلوعه، وليس هذا بدعا ولا عجيباً حين يوغل الدارس فى علم النفس ويطبقه على الأدب .

والشاعر الأديب نفسه يتساءل فى دراسته لشعره عن هذا السبب، يريد أن يعرف لماذا لم يصغ شعوره الخاص فى شعره مباشرة ويستعرض شعره فى الصبا فيجد أنه ندب صباه وهو فى الصبي، وبكى شبابه وهو فى الشباب . وأنه أحب أمه حباً كان ملء قلبه، فلما قضت منذ ثلاثة أعوام، لم يفتح عليـه فى رثائها أكثر من أبيات ضئيلة وهو الذى رثى فأحسن وأجاد . ويجيب على ذلك كله : « فالألفاظ فى بعض الحالات عاجزة عن تصوير ما يشعر به القلب . ولولا هذا العجز لرثيت أمى قبل كل واحد من الناس » .

ونحن قبل أن نتحدث عن الرثاء فى شعره، نحب أن نختم حكمنا على وصفه للطبيعة وقوله فى الغزل أنه قصر فيهما عن طريقته فى الشعر الوطنى، ولم يصنع كثيراً فيهما مما يخلد له ذكراً فى هذين البابين .

شعر الرثاء

رأينا أن أكثر شعراء الشام كانوا يهتزون للحدث الجلل فينظمون فيه، وعرفنا أن البطولات كانت على رأس ما نظم فيها هؤلاء الشعراء، وذكرنا أن الشاعر شفيق جبرى وقف فى ذكرى الشعراء والأدباء والساسة والزعماء

فأشاد بالوطنية والقومية ، وكان منه شعر جميل عرضنا له فى اكبار وتقدير وكان هـذا الشعر يمتلىء بالأمل والنخوة والحث على العمل والنهوض بالمهمة والعمل للقضية ، فـكان أقرب إلى الحماسة والإثارة ، فهو من الشعر الحماسى الوطنى .

ولـكننا وجدناه يبكى الزعماء والرؤساء وأعلام الفكر بكاء كان أدخل فى باب الرثاء ، فعقدنا له هذه السطور لنبين عن عاطفته فى الحزن والأسى ، ولنرى أنه وفق فيها أكثر مما وفق فى عواطف الحب والطبيعة . فهو قد تأثر من غير شك بالحماسة والرثاء فى الأدب العربى القديم أكثر مما تأثر بغيرهما من فنون القول . فقد رثى ولى الدين يكن سنة ١٩٢١ فقال :

يا حاوى الآفاق فى آيـــة   كيف احتوتك رسومها وقبورها
وضحت لك الظلمات فى أجوائنا   فعلمت كيف تضيئها وتنيرها
بصحائف بيض تلألأ نورها   تجلو الظلام عن القبور سطورها

وهذا من المديح فى الرثاء مما عرفه العرب وحاموا حوله ، فهو فى شعره قد جمع المديح والبكاء معاً ، فصور المرثى فى أوج حياته ومجده ثم رسمه ميتاً قد خلف الأمجاد والمفاخر وقضى . ورثى أحمد كرد على فوصف حياته سنة ١٩٢٧ :

لم ألف وجهك فى الحوادث عابسا   تلهو وتضحك فى عنيف وثابها
لك فى عواقبها منى معســـولة   ما كنت تيأس فى كثيف حجابها
كنت الضنين بأن تفوتك لذة   لم تشرب اللألأ من أكوابها

وهذه الصورة صادقة قوية ، جميلة الرسم تحدث عن صفات الفقيد ، ومنها طلاقة الوجه واللهو والبعد عن اليأس والعكوف على اقتناص الفرص واللذائذ . ورثى الحسين بن على سنة ١٩٣١ كما رثاه الزركلى وبدوى الجبل ، فقال :

يا ابن النبي وما الآذان سامعة فهل تلبي زحوفا أنت داعيها
لما رأيت قلوب العرب واجفة من الشدائد ما تسجو سواجيها
وأهـــل جلق بالأعواد عالقة أعناقهم وسيوف القوم تفريها
مبعثرون عن الأوطان تلحظهم عين المنية ما تغفو غوافيها
بعثتها ثورة دهواء مائجــــة بالهاشميين مخضوبا حواشيها
حمراء أوقد جنبيها القنا وسقى فتيانها من نجيع الترك ساقيها
على الحطيم رفات من حصائدها وأربع الشام ريا من أضاحيها

وهذا الرثاء سار على أسلوب التقدير واظهار مزايا الميت فهو كما يقول النقاد : مدح الأموات . وصف فيه حال العرب فى الشام وقد علقت المشانق وشرد الأحرار ، فثار الحسين وبعثها حمراء دامية من نجيع الترك . وهـذا أسلوب أدخل فى باب الحماسة ووصف القومية منه فى باب الرثاء ، فهو يصور الحال السياسية والاجتماعية إبان الظلم التركى ، ويرسم الثورة العربية الكبرى ، وعلى رأسها الحسين ، الذى يرثيه الشاعر .

والشاعر فى مراثيه يعمد إلى تمجيد الفكر والبطولة فى الأشخاص الذين يرثيهم سواء فى حافظ أو شوقى ، فهو لا يرى الرثاء بابا إلى النواح والبكاء والدموع ، وإنما يرى أن يبعث الأموات من مدافنهم يختالون فى ثيابهم كيوم كانوا أحياء يسعون فى الناس على أمجادهم ومفاخرهم . فهو يفتش عن مزاياهم وصفاتهم ويتحدث عن أجمل صفحاتهم وما خلفوه من خير وفير . وكذلك رثى المتنبى سنة ١٩٣٥ فوصف تنقله فى بلاد العرب ودخوله شعب بوان وتغنيه بأمجاد سيف الدولة فقال فيه :

ونبا عن ملاعب الجن قلب لعبه المجد والدعاب جهاده
فتراه من العروبة ملآن هوى فهى دينـه واعتقـــاده
لقى الروم من قناها على الهيـــجاء طعنا مبرحا انفـــاده
فمن العرب وحيه وهـــواه وإلى العرب خالد اخـلاده

ويعود الشاعر أبدا إلى تمجيد البطولة فى رثائه ومديحه ، فكأن البطولة والتاريخ والأمجاد هى كل شعره ونظيمه وقوافيه ، لم يخرج عنها فى فنونه وأبواب قوله يتغنى بها أبدا فى كل قصيد ، وهذا الشعر وإن كان فى الأموات والرثاء فهو فى التمجيد والتخليد بل هو فى تقديس البطولة يطغى على كل شعره فكأنه باب واحد برّز فيه الشاعر وسحبه على كل ديوانه هو باب الشعر الوطنى القومى .

وقد رأينا أنه حاول وصف الطبيعة فانساق شعره إلى الوطنية وحاول فى باب الغزل فانحاز نظيمه إلى القومية . وما نظن إلا أن الزمان القلق والظروف الحرجة هى التى دفعت شاعرنا شفيق جبرى إلى أن يقف حياته ولسانه على التغنى بهذه القومية فبرع فيها وأخفق فى كل ما عداها ، وكان منه شعر متين موسيقى قوى التراكيب ، منسجم الأبيات فى وحدة متكاملة لا تعتمد على البيت الواحد وإنما هى كل متماسك ، دعا إليه الشاعر كل حياته واستمسك به فى أكثر شعره ، تتسلسل فيه الأبيات ، فلا يتقدم بيت ولا يتأخر بيت ، كما نستطيع أن نفعل فى أكثر أشعار القدماء . وهو على ذلك منسق الترتيب فى أجزاء قصيده ، وينتقل من مقطع إلى مقطع أى ينتهى من معنى متكامل ليطرق معنى متكاملا على عادة الشعر الغربى يكاد الناقد يرجع أكثر شعره الأخير إلى أجزائه التى تركب منها ، وهى ميزة كبيرة لم تتح لكثير من زملائه ، فهو فى هذا مجدد ، يسير مع الشعر الحديث فى وضوح أقسامه وفى معانيه ، ويختلف إلى شعره التصوير المجنح والعبارات الجامحة مما كان القدماء يسمونه بالاستعارات والمجازات وفى هذا يعير الألفاظ ظلالا وألوانا تخلد أقواله ، ويكسوها فى كثير من الأحيان بالطيب والعطر ، فتفيد منها الحواس الخمس وهو كل ما يطلبه النقاد الغربيون عند الشاعر المحلق .

ويمتاز شعر شفيق جبرى بأنه يسكب فيه روحه ويصور فيه نفسه

فلا يكاد يفارق الموضوع حتى يتمه فى تقسيمه وفى أجزائه وأكبر برهان شعره الأخير فى مهرجان شوقى منذ عامين ، وصف فيه الحب عند شوقى فى شعره ورسم كذلك آثار شوقى ولكنه عرض نفسه معه فكأنه ماثل كل بيت من أبياته ، قال :

قد ملأت الشباب حبا وفاضت   جارة الوادى فى فؤادك حبا
فإذا جفّ فى الشيوخ هواهم   هجت فيهم هوى الشيوخ فأبا
فتنادوا إلى الكئوس وصاحوا   هاتها يا نديم صرفا وصبا
أنت لا تدرى ما تكن الليالى   إن توالت وما تكون العقبي

ولن نعلق على الأبيات ، وإنما نروى ما قاله الشاعر نفسه عن قصيدته فقال « لقد فتح لى شوقى باب الغزل فألهمنى وصفه فتذكرت السن التى أنا فيها وتذكرت الأيام التى قضيتها فى نضارة الشباب فتحسرت عليها ، وألمت أشد الألم فلم أجد ما يخفف عنى هذا الألم إلا التعبير عن خوالج نفسى » .

وهذا تعليل ما قلناه منذ قليل بأن الشاعر يدمج نفسه فى الموضوع حين ينظمه ، ويندمج فيه حين يلقيه ، فلا يجرد الأمر تجريداً وإنما يجعل نفسه فى إطار الشعر والنظم ثائرا أبدا نشيطا فى ألفاظه ومعانيه كأنه فى الشباب الدائم على الرغم من ترديده آثار الشيخوخة وآلامها وحرمانها .

أدام الله عليه الصحة والنشاط فى القول ليمتعنا أبدا بالجيد الطريف من شعره » .

مختـــارات

من شعر شفيق جبري

فى سعد زغلول

نم فى ظـــلال الخالدين   جبار مصر على السنين
فى جانب الحـرز الحريـــــز وفى حمى الحصن الحصين
فى اللب من حرم القلو   ب وفى الصميم من العيون
فى حفظ جبار السماء   وحرمة الروح الأمين
العبقرية من شمالك   والخـــلود عن اليمين
يا مرسل السحر الحلال   يذوب فى القول الرصين
ومديح الخطب الطوال   تفيض من وضح اليقين
فى ثورة البحـر الخضم   وزأر ضرغام العرين
الكهرباء إلى الجنان   دبيبهـــا والى الوتين
تلهـــو بألباب الورى   لهو النسيم على الغصون
فاذا أشرت إلى المنون   تفيأوا ظل المنون
وإذا دعوت إلى السكون   مشوا إلى هدف السكون
إيماءة ترمى رجالك   بالسهول وبالحزون
يستقبـــلون حتوفهم   متهللين وباسمـــين
حتى يروا سعـداً طليق   الوجه وضاح الجبين
يا سعد كل فى الكنانة   باسمك الأعـــلى يدين
عقدوا القلوب على هواك   مـــدلهين مولهـــين
قتل الحنـــين نفوسهم   والنفس يقتلها الحنين
يترقبون عـــلى السبيل   رئيسهم متهللـــين
فاذا طلعت سعوا إليك   مزاحمـــين مدافعين
وإذا نفيت عن المرابع   ثار « بالبيت » الأنين
يا سعد والدمع الهتون   يموج بالدمع الهتون

«البيت» بعدك هائج بالأمهات وبالبنين
بالناهضات من الملاح وبالشباب الناهضين
بالذاكرات جهاد سعد فى الحمى والذاكرين
بالحافظات عهوده ريانة والحافظين
بالمخلصات لروحه محض الهوى والمخلصين
بالحائرات الذائبات من الأسى والذائبين
زحفوا إلى النعش الكريم متوهين مضللين
يتزاحمون على ضريحك راكعين وساجدين
قدس النصارى تربه أو كعبة للمسلمين
يا واردين على الدفين وصادرين عن الدفين
بالنرجس الريان والريحان أو بالياسمين
حيوا الضريح على إسم جلق هادئين وخاشعين
تلكم أمية فى دمشق تحار فى الجرح السخين
نبأ على الفيحاء هاج كهولها والناشئين
سلمت دمشق فلم تزل نهب الكوارث والشجون
إن كفكفت ماء الجفون جرى بها ماء الجفون
أثر الفواجع لا يزال على المنازل والوكون
لكنها يا سعد قد ذهلت عن الألم الكمين
وتذكرت ألما بوادى النيل هز العالمين
يا صورة الوطن الكريم ورمز معقله المصون
فى ذمة الأحقاب ما خلدت فى وجه القرون
طالبت بالحق المبين ففزت بالحق المبين
فى همة الحدث الغضيض وروعة الشيخ الرزين
يا سعد نجيت الديار من الزحوف الغاصبين

طمحوا إلى العلق المصون فغلت أيدى الطامحين
فلممت من شعث الهوى حتى انجلت ظلم الظنون
ونهضت للخصم الألد تكيد للمستعمرين
فبعثتها عمياء تسخر بالقلاع وبالحصون
الناشئون وقودها يوم الوغى والطاعنون
نهضوا وباسم النيل نهضتهم إلى حرب زبون
لم يشهد الهرم الجليل كفاءها فى الأقدمين
لا خير فى شعب يساق إلى الأذى سوق الضئين
من هان فى طلب الحقوق قضى بغصات المهين
عاشت لنا مصر وعاش رجال مصر الأكرمون
الناهضون على شباب الدهر بالكنز الثمين
بالوارفات ظلاله للواردين الصادرين
وطن بناه كل ترب للمحامد أو خدين
إن سيم خطة عاسف لا يستضام ولا يلين
فاهدأ أبا الأحرار فهو موطد لا يستكين
مصر تسير على لوائك فى كفاح الغاشمين
نم مطمئن البال فا لأخلاق مفزعها المكين
ملتفة الأهواء لم تعبأ بنزع النازعين
مرصوصة البنيان لا تخشى هجوم الهاجمين
درجت على سنن الهدى لله فى مصر شؤون
تمشى بسيرتك المضيئة فى دجنات الدجون
فكأن رسمك ماثل بضيائه فى الماثلين
وكأن وحيك لا يزال هدى لقلب المهتدين
فهو الضمين بأن يعز لواؤهم فهو الضمين

* * *

يا أم مصر والنداء نداء ملهوف حزين
عز النداء فلست أعلم ما أقول وما أبين
جرت القوافى بالدموع فما يجف لها معين
كاد القريض إذا ترقرق أن يسيل مع الشؤون
فمن الدموع قصائدى هيأتها للأربعين
صبراً فهاك لواء مصر فان جزعت فلات حين
ناجتك مصر فانهضى بلوائها النهض القمين
حاشا لعزمك أن يخور معاذ صبرك أن يخون
« أصفية » والنيل فيا ض بخطب ما يهون
لم يقض سعد نحبه لكنه فى الخالدين

فى ذكرى جميل صدقى الزهاوى

أحمرة الفجر بين النخل ما يقد   أم وجهك الطلق يابغداد منفرد
أم لفّنى الليل والأحلام فاختلجت   عيناى فى الليل ما أدرى الذى أجد
نفضت نوم الضحى عن مقلتى لأرى   هل ذكريات بنى العباس تحتشد
أعاد عهـــدك والدنيا تضاحكه   للعبقـــرية ، والتخليد ما يلد

* * *

قالت دمشق وقد ناجيت غوطتها   ومائج الدوح فى جنبىّ مطـــرد
أتترك الروض والأنغام تملأه   وتنتحى البيد لا روض ولا غرد
ما أنت والبيـد تطويها وتنشرها   كأنما اليم منزوح به الأمـــد
ما تسمع الأذن حسا فى مسارحها   كأنما الموت فى أطرافها لبـــد
إلا سحائب فى الآفاق كامـــدة   والأفق ممتقع من لونها كمد
كأنها سفن فى الجـــو لابدة   تحدو بها الريح لا تجرى ولا تخد
خلّ الفلا والمها والشيح إن لها   ركباً من الجن لا يأوى لهم أحد
فقلت : مهلا وراء البيـــد أودية   فى الرافدين عليها الأهل والولد
قد تبعد الأرض إلا عن جوانحنا   فليس دون اهتزاز القلب مبتعد
مهلا دمشـق فإن أزحف إلى بلد   يزحف إلىّ بنو العباس والبـــلد
أطوى السنين فتلقانى خيالتهم   كأننى بينهم دان وقد بعدوا
أكاد ألمس فى جنـــبى خلافتهم   كأنما الليل من لألائها يقـــد
وتوشك العين أن تلق قصورهم   يموج فيها الهوى والعيشة الرغد
كأننى وحمى المـــأمون مزدحم   أرى الوفود إلى أفيائه تفـــد
ماض من الدهــــر لمتنا أواصره   لا الغور يطرحه عنى ولا النجد
العندليب إذا غنّى بدجلتـــه   غنّى على برداه الطائر الغـــرد

تألفت فيهما الذكرى على وطن كما تألف روح المـــرء والجسد
أيوجع الجرح فى بغداد مهجتها وتجمد الشام لا تبكى ولا تجد

* * *

يانائح النخل غنّ القوم إن هجعوا لحناً يفيض على أنغامـــه السهد
واسكب على دجلة قلباً تموج به قلبى على دجـــلة كالموج محتفد
كانت عليه جــراحات مضمّدة لله ما جرحوا منه وما ضمدوا
أين الذى وسع الأفلاك خاطره وفتحت لجوانى فكره السدد
ياحاشد الأرض فى شعر تضيق به هـذا الفضاء فأنت اليوم مقتصد
وكان شعرك دنيا فى عوالمها ينأى القريب ويدنو النازح البعد
طاولت كل سماء ما يطاولها فكر يغطى عليـــه الوهم والفسد
حتى تقحمت بالأسراز فانكشفت لذهنك الفرد وانقادت لك الشرد
لو صور الكون فى شعر نزوقه رفت تصاويره كالروض تزتئد
كأن كل بعيـــد من غوامضه دان يمـــد إليه ناظر ويد
لما رأوا منك ما أعيا قرائحهم قالوا : ضلال ، معاذ الله بل رشد
ما كان شعرك إلحاداً ولا أوداً وإنما فهمنا أودى به الأود
أغاية الدين تكفير وألســـنة ترمى الذعاف فما يجرى به السدد
لو أدرك النقد ما تحويه من طرف ما عاب شرعتك الفيحاء منتقد
تركت كل عتيق فى مدافنـــه ينبو به الذوق أو آثاره الجدد
هذا « الجحيم » وقد ألهبت ثورته تكاد من هولها الأفلاك ترتعد
ماذا لقيت من الموتى وعالمهم فهل حمدت جوار القوم أم حمدوا
هل استرحت من الدنيا وزحمتها أم راحة البال بعد الموت تفتقد
قالوا : غداً . وحياة اليوم مثل غد شبيه أمسك يوم دارج وغد

* * *

ياويح قلبك إن هاجت بجانبه ريح على دجلة هاجت بك الكبد
كنت النجى لموج الماء تؤنسه يشكو فتنصت للشكوى وتتئد
إذا طغى الماء حول النخل من غضب غنّت على شعرك الأمواج والزبد
لو بكرت نحلة فى قطف زهرتها لذاب منها على أبياتك الشهد
أو داعب الطير فى فجر خمائله كنت الصدى فتسلى الداعب السدد
أو الخريف تعرى فى منابته لكمدة الموت أضنى شعرك الكمد
أو الربيع تهادى فى بشاشته سالت معانيك بالريحان تنجرد
أرى الجماد على شعر تفيض به يكاد ينضر منه اليابس العكد

* * *

هذا هو الشعر لا جرداء ممحلة من القوافى عليها الموت ملتبد
تفنى كما فنيت أجلاد صاحبها للعبقرية هذا الخلد والأبد
غمست قلبك غضا فى هوى وطن يؤذى فتحرد ، عاش الشاعر الحرد
غضبت للدم يجرى فى أباطحه وغضبة الشعر تعطى الملك أو تعد
سل « الرميثة » عن شعر تردده كأنه فى حماها النار والجمد
على الرميثة أشلاء مبعثرة لله من درجوا فيها ومن رقدوا
تكاد تسمع أذنى همس هامسهم وتأخذ العين موتاهم وإن همدوا
لم ينشأ الملك فى بغداد عن عبث الصولجان حماه الثائر النجد
دم السيادة مصبوغ بحمرته هذا الفرات وهذا السهل والجلد
سقى النخيل ولم تظمأ مغارسه فى كلّ جذع شباب عوده حصد
الملك ما ماجت الهامات فى دمه والملك لولا دم الهامات معتبد
لولا دماء يسيل الرافدان بها لناء بالعنق هذا القيد والصفد
ساد العراق ولم يحمل عبودته هيهات ما تستوى السادات والعبد
ولو سبكت قيود الأسد فى ذهب ما كان يغضى على اقياده الأسد

* * *

هذى دموع دمشق جئت أسكبها ... فى دجلة وفؤادى بينها فـرد
لله من شردت بغداد نومته ... وكان يعوزه الإغفاء والسهد
قضى الليالى لم يهدأ له خلد ... أيهدأ اليوم فى ليلاته الخلد
خلوا هواجسه فى الخلد ساجية ... كفى الهواجس ما ألوى بها الجهد
يحيي العراق رجال الفضل إن درجوا ... والشام تقتل أهل الفضل أو تئد
عاش العراق وغازيه ولا برحت ... روح العروبة فى بغداد تتقد

صيحة النبي

سرت فى بطاح البيد صيحة صائح فماجت بمسراها بطون الأباطح
ترامت فدوت فاستطال بها المدى وقد طرحتها البيد أقصى المطارح
فمرت على الركب الحيارى فأمسكوا بحمر المطايا بين غاد ورائح
وألقوا بآذان إليها طليحة وقد صعقوا فوق الركاب الطلائح
تراهم سكارى فى الفيافى وما مشت حميا كئوس فى خلال الجوانح
مضوا يسألون الريح عن صيحة الفلا فما الصوت فى عصف الرياح ببارح
ينادى مناديهم هل الأرض زلزلت فأجفلت الآرام ملء المسارح
أم الملأ الأعلى تدلت نجومه فكل سبيل فى الدجى غير واضح
أصيحة أنس فى الجبال دويها أم الجن صاحت فى رحاب الصحاصح
فلا الصوت صوت الأنس فى كل هضبة ولا الحس حس الجن فوق الصفائح

* * *

ولما ألح اليأس فى الركب أدلجوا يطيحون فى الظلماء كل المطايح
ومال بهم غمض الليالى من الونى وما النوم فى جنح الليالى بجانح
فناجى خليل فى الشجون خليله مضى الليل فى نجوى الشجون الفوادح
فبينا رجال الركب فى غمرة السرى وأجفانهم تهفو إلى أى سانح
إذا الفجر فى البيداء قد زحزح الدجى وهب نسيم الفجر دون اللوافح
ولاح خيال يقطر الأنس طيفه فدب دبيب الروح فى كل طافح
ملامح نور فى العراء رفيفها ومطلع وحى من رفيف الملامح
تصيح بهم أنى النبي محمد بعثت ولم أبعث إليكم بفادح

* * *

حملت الهدى أجلو بضوء سراجه عن العرب ما أعيا ضياء المصابح

أضمدمن جرحى السيوف جروحهم وأمسك ما ناءت به كف ماسح
تعالوا ، تعالوا أجمع الشمل بينكم فلا كاشح يعدو على حوض كاشح
تسيح دماء العرب من كل نخوة لقد ملئت منها صفاح المسايح
أروح على جهد من الهم جاهد وأغدو على برح من الحزن بارح
أما ضجت الأخلاق من ظلم أهلها أما رزحت فى الظلم بين الروازح
فما نفرة تلوى بأعناق رهطكم وما وحشة تخنى على كل زائح
فأين قلوب كالغصون التفافها إذا سامحت غالت بروح التسامح
تعالوا ، تعالوا أملأ الأرض بالهدى وأزحف بقرآنى إلى كل نازح
فهذا بيانى كالضحى غير زائف وهذا شعورى كالصبا غير جارح

* * *

تمهل هذا الركب فى الوحى برهة وأمعن فى وجه من الظن طالح
أتنبت فى هذى الفيافى نبوة وأفق الفيافى كالح أى كالح
فلا الرمل ريان يسح به الندى ولا الترب خفاق بظل الدوائح
فما تدرك الأبصار فى البيد بهجة ولا تسمع الآذان صدح الصوادح
فما فى سواد الليل أنس لمقلة ولا الأنس باد فى بياض الصبائح
فكيف يجيش الوحى فى ظل قفرة فما ظلها للوحى يوما بصالح

* * *

لسرعان ما جلى اليقين ارتيابهم فهشوا إلى طيب من الوحى فائح
مشى الوحى فيهم مشية البرء فى الضنى فأى فتى من سحره غير طافح
فطاروا إلى الدنيا بدين محمد وقد فتحوا الدنيا كلمحة لامح
كأن الرياح الذاريات مطيهم يلفون وجه الأرض لف الوشائح
فما عاقت الصحراء عن طى رملها ولا ردت الأمواج خوض الجحاجح
تجوز بهم رمضاء كل تنوفة سوابح خيل تهتدى بسوابح

ففى كل بر منهم زحف زاحف ... وفى كل يم منهم سبح سابح
كأن دوى النحل مثل دويهم ... إذا ارتفعت أصواتهم بالفواتح
يجول بهم اسلامهم كل جولة ... ويلق بهم إيمانهم فى الطوائح
فما الموت فى الإيمان مر مذاقه ... ولا الحتف فى الاسلام صعب الجوائح
فقادوا على أرماحهم كل مصعب ... وراضوا على أسيافهم كل جامح
فلا قيصر يزهو على الشام تاجه ... ولا تاج كسرى كالنجوم اللوامح
تناثرت التيجان تحت خيولهم ... وأهوى إلى أقدامهم كل طامح
رواشح بالموت الزعاف سيوفهم ... مضى مابنوه بالسيوف الرواشح

* * *

فأين رسول الله يشهد أمة ... تئن أنين الطير من كل ذابح
تعالت فطاحت فاستكانت فأصبحت ... لاذلالها يلهو بها كل مازح
فلا ملكها فى الأرض مشتبك العرى ... ولا عيشها فى الخلق عيش الصحائح
على مثلها فى ذلة بعد عزة ... تفيض جفون بالدموع السوافح
فهذى فلسطين تنوح من الأذى ... فما نضحت عنها عيون النوائح
فهل صيحة فى العرب تبعث ملكهم ... ألا ربما هبوا بصيحة صائح

شاعر العرب

في مهرجان شوقى فى القاهرة

ما الذى هيج الحمى والعربا   أنسيم من شاعر العرب هبّا
غمشوا فى مواكب الفنّ زهوا   وتهادوا على المواكب عجبا
أخذت فيهم الأغاريد واللحـ   ـن فراحوا منها نشاوى شربا
سائل العرب يوم كان دوىّ الشـ   ـعر يزجى إلى المعالى العربا
كتبوا المجد بالسيوف وبالشعر   فكان القريض أخلد كتبا
لغـة القلب طالما خاطب القـ   ـلب فهزّ الشعور جنبا جنبا
تارة يملأ المدارك جدا   وتراه يفيض حينا لعبا
يبسط السلم أن أردت سلاما   ويشب الحروب إن شئت حربا
قد تحول الصحراء فى روعة الشعـ   ـر فتغدو منه حدائق غلبا
كرّم الله دولة كرّمتـه   فنما فى ظلالها واستتبا

* * *

إيه شوقى لو كان للشعر رب   جعلتك الأذواق للشعر ربا
ياغذاء القلوب إن تجدب الأر   ض فلسنا نظن فيك الجدبا
شاعر العرب كان شعرك حينا   كنسيم الصبا وحينا عضبا
كلما طال عهده وتراخى   رفّ فى مسمع الزمان وشبّا

* * *

كم هززت الرجال فى ثورة الشـ   ـام فثاروا ولم يبالوا الخطبا
نفخت فيهم القلائد روحا   جعلت فى الشدائد الموت عذبا
فاستطاروا مثل الرياح إلى المـ   ـوت فكانوا فيه رياحا نكبا
فنفضنا عن المرابع ضيما   سال فيه النجيع مزنا وسحبا

غصبوا الشام واستباحوا حماه ثم طاحوا وما تملوا غصبا
كيف ننسى فى غوطة الشام يوما كنت فيه نورا وكنت اللهبا
جلت بالشعر جولة فحسبنا طيف مروان فى التواظر دبّا
وكأنا نرى الخـلافة تختال وملكا مع الخلافة صلبا
هكذا الشعر ثورة كلما هاجـت شعوب أوحى إليهم غلبا

* * *

ضحك الشعر فى بيانك وابيضّـت حواشيه ما نشاهد كربا
فغـدا مسرح الظباء إذا عا ندّ سرب فتنت منها سربا
غزل ينفـذ القلوب فتلقى بهواها فيصبح القلب صبّا
فتظل العيون تغمز غمزا وتظلّ الشفاه ترضب رضبا
ويكاد النسيب ينطق سحرا ويكاد الهوى يشقّ الحجبا
وترى قبلة الثغور على الخد وتلقى مزاحها والدعبا
يتلاقى العناق والضم والشم وهدب يلزّ فيها هدبا
لا تلم الشباك من كل درب لم تغادر فى غمرة الحب دربا
لو يسيل الهوى خلال القوافى سلسبيلا غمرت منه الهضبا
قد ملأت الشباب حبّا وفاضت جارة الوادى فى فؤادك حبا
فإذا جفّ فى الشيوخ هواهم هجت فيهم هوى الشيوخ فأبّا
فتنادوا إلى الكئوس وصاحوا هاتها يانديمْ صرفا وصبّا
أنت لا تدرى ما تكن الليالى إن توالت وما تكون العقبى

* * *

أدموع بأرض أندلس جـدت بها روّت روضها والتربا
فكأن العيون تلبح شجوا وكأن الآذان تسمح ندبا
أم غناء كالعندليب طوى الأر ض فخلنا بعد المنازل قربا

فكأن السنين لما ترامت وثبت نصب أعين القوم وثبا
فرأينا القصور تلمع فى الليـ ل فتهدى فوق البطاح الركبا
وقطعنا الرياض بين رفيـ ـف الدوح نجتاز سروه والدلبا
ولمسنا النعيم فى جنة الأرض يرى الشعاب شعباً شعبا
فبكينا ملكا قذاف[1] الليالى غرسوا فوقه القنا والقضبا
ركبوا الموج والعباب وطاروا يقطعون العباب كثبا كثبا
رفعوا الملك والحضارة والفن وكانوا الرحى لها والقطبا
فهوى الملك والدموع ترويه وساءت تلك الأوائل غبا
وكذاك الأيام تعصف بالنا س ويبقى ما أودعوه الكتبا
صور تقطر البلاغة حتى تحسب الصدق فى البلاغة كذبا
كلما رث أو تقادم عهـد جدّد الشعر وشيه والعصبا

* * *

كذب الدمع ماوفى حقك الدمع وأن ماج كالخضم وأربى
قد حبوت التاريخ ما ليس يبلى لؤلؤا من لآلى الشعر رطبا
فشهدنا فرعون قد نفض القبـ ـر وهزّ الأحقاب حقبا حقبا
وأتوه بالأكل والشرب حتى رأت العين أكله والشربا
لبست مصر من بيانك بردا لم تزده الأيام إلا رحبا
هدرت كالعباب تحطم قيدا أنقض الظهر حمله والصلبا
فتغنيت بالهـدير فهاجت لم يفل الحـديد منها غربا
وقفت كالأهرام فى ثورة الضيـ ـم وطالت سماءها والشهبا
وانثنى الضيم عن حماها ونالت من رقاب العدو طعنا وضربا
ثورة فى الديار غنى بها الشـ ـعر وألقى غراسها والحبّا

---

(١) القذاف : ما قبضت بيدك مما يملأ الكف فرميت به .

فزكا غرسها وطاب ثراهـا   وسقاها الإيمان هطلا وسكبا
أكلتك الذئاب إن لم تـكن فى   ثورة العرب والعروبة ذئبـا

* * *

إيه شوقى اسامع صيحة العرب   وقد دوى الصوت شرقا وغربا
ما دعونا الهامك السمح ألا   حشد السحر والبيان ولبى
ليتك اليوم فى الجماهير والشعـ   ـب تغنى جمهورنا والشعبا
فإذا ما سجا فؤاد ولب   هجت منا فؤادنا واللبـا
ارم عنك الأكفان واطرح ثرى   القبر وشاهد ملكا على النيل رحبا
تلتقى الشام فيه ترباً لمصر   كل ترب يشد فى الملك تربا
وغداً تزحف الديار ، ديار العـ   ـب تحت الدرفس روحا وقلبا
إنما العرب وحدة فإذا صال عـ   ـدو كانوا عليـه البـا

* * *

درجوا حقبة وأوطانهم أيدى سـ   ـبا والخيرات فى الأرض نهبا
وعليهم سلاسل من حـديد   تمنع الأسـد صولة ومهبا
فـكأن التاريخ لم يملأوه   روعة أو لم يملأوا الدهر رعبا
لا تعد السيوف غير فتوح   لهم فى مناكب الأرض ذنبا
صحبوا اليم والبطاح وهموا   أن تـكون الجوزاء يوما صحبا

* * *

سيد الشعر ، هل ترى ربعك اليو م يشق الحديـــد اربا اربا
بعثوا من مدافن العزّ تاريخا نمـــا عـزّه غنـــاء وخصبـــا
فكأنا نرى ابن حمدان يثني الـــروم جرا عن الحمى أو سحبا
هكذا المجد هبّة سلك العرب اليهـــا دربا على النـــار صعبا

* * *

نم هنيئا يامرسل الشعر نورا شبع القلب من سناه وعبّـــا
أرأيت البيان والسحر منـــه أي مجـــد بني وجيـــل ربى

القسم الخامس

عمر أبو ريشه

(١٩١٠)

عمر أبو ريشة

نشأته وشبابه

كانت مدينة حلب تعتز بالشعر الحمدانى وتشرب من مفاخر عصرها الذهبى كلما حنت إلى الشعر ، وتنظر إلى حماة وحمص ودمشق ولبنان نظرة فيها كثير من الحسرة والأسى ، فلما نهض فيها عمر أبو ريشة فى ريق العمر زحفت إليه تباركه وتصفق للشعر الجديد ، وتضحك فى فرح واعتزاز كما ضحكت قبل ألف عام ، فقد وفد إليها الشاعر من منبج كما وفد إليها البحترى وأبو فراس وغيرهما ضيوفاً فأحسنت وفادتهم ، وأرهفت آذانها لشعرهم ، فدوت فى جنباتها القوافى الجميلة ، وتغنت جدرانها بالشعر الفحل .

كذلك فعلت حلب حين أقبل إليها هذا الشاب مع أبيه ، فقد كان أبوه شافع أبو ريشة من أبناء الأمراء فى عشيرة الموالى ، وهم أصحاب مجد مؤثل وبأس شديد ، انحدروا من آل حيار بن مهنا بن عيسى ، وهم من سلالة فضل بن ربيعة من طيء[1] ، نبت فيهم الشعر الخصب الجميل ، فى القديم ، وكان لهم فى عهد العثمانيين صولة ودولة يحكمون أطراف المعرة إلى حماة ، فأرسل العثمانيون أحد أبنائهم « شافع أبا ريشة » إلى الاستانة ليتلقى العلم فيها ويعود إلى أهله على خير ما يعود الأبناء .

ودخل الشاب « شافع » فى وظائف الحكم والإدارة ، وتنقل فى المناصب مزهواً بعراقة أصله ونسبه وشدة ذكائه وثقافته ، وتزوج من بلدة « عكا » بفلسطين فتاة من أعرق الأسر فيها ، وهى على ذكاء شديد وثقافة وورع ، حتى بلغ الرجل إلى أن يكون قائمقاماً بهذه المدينة « منبج » .

---

(١) ورد ذكرهم فى التواريخ المتفرقة — أنظر « عشائر الشام » لوصفى زكريا ج ١ ، ص ٩٤ .

وفى منبج . سنة ١٩١٠ أو قبلها بقليل ، ولد له فتى غيّر وجه الشعر فيما بعد سماه « عمر » تيمناً بأحد الرجلين الفاروق أو ابن أبي ربيعة ، فقد أحبهما معاً ، فدخل فى الشعر ونظم فيه كما دخل فى القضاء والفصل بين الناس . وفى « منبج » درج الفتى ، من غير أن يعلم أن جدرانها رددت أبيات البحترى ودوقلة وأبى فراس ، فقد انتقل صغيراً مع أبيه إلى حلب ، فدخل فى مدارسها الابتدائية ، وتعلم فيها ما يتعلم أنداده ، ثم أدخله أبوه فى الجامعة الأمريكية ببيروت يتم دراسته الثانوية . وكان الشعر العربى يغلى فى صدور الشباب حماسة وغزلا ، وكانت الشبيبة تتأثر بالأحداث المعاصرة ، وتثور للمعارك الدائرة فى سبيل الاستقلال والقومية العربية ، وتنهض لنصرة الشام وكانت تعانى ظلم المستعمر ، وقذائفه ، وتكتوى بنيرانه ، فيرسل الشباب بالجامعة مقالاتهم وقصائدهم ، ويقف « عمر » خطيباً وشاعراً ومؤلفاً مسرحياً فى هذه السن الصغيرة قبل أن يبلغ الثامنة عشرة من عمره . فقد أحس برسالته فى نصرة العرب والدفاع عنهم ، وعرف أن أهله من طيء وأن أمه من « عكا » وأن أمجاد العرب تسرى فى دمائه ، فسال الشعر على لسانه ، وانطلق يقلد الشعر الفحل حيناً ويسير فى طريق شعراء المهجر أحياناً ، وهو بعيد عن حلب ، يشرب من شموخ الجبال اللبنانية ، ويعب من عظمة البحر المتوسط ، بين أنين الرياح الهائجة ، وصخب الأمواج الهازجة ، فأعجب به الصحب وطرب له الأصدقاء .

وكان للفتى شعر كثير مختلف ألوانه فيه ما يرضى وفيه ما يقنع ، وقعنا على شيء منه يمثل هذه السن ، قبل أن يستقر الفتى فى ميدان القول ، يدل على حب للشعر العربى ونجاح كبير فى قوافيه وأوزانه ، سواء فى الغزل أو فى الحماسة .

وقد طبع بعد ذلك مسرحية شعرية سماها « ذى قار » أنشأها قبيل العشرين من سنيه ، وجعلها فى أربعة فصول ومناظر متعددة وساق حوارها

الشعرى على أنماط مختلفة من الشعر . وموضوع هذه المسرحية بسيط لا تعقيد فيه ، فهو يدور حول أمر معروف هو الحرب بين العرب والفرس . فقد خطب كسرى إبنة النعمان « الحرقاء » ولكنها أبت أن تكون تحت علج أعجمى ، ووقف الأب دون ذلك ، ولقى فى المعركة مصرعه فاستنجد العرب بالمنذر ، واشتبك هذا مع الفرس فى « ذى قار » وكان النصر للعرب ، فانتقموا لعرضهم وشرفهم وكرامتهم .

وقد وضع الفتى فى المسرحية آراءه لتلك السن ، ونظرته إلى الشعر وموقفه من العرب والأعاجم ، متأثراً بالمعركة الدائرة بين العرب والغرب . فأثار الحماســة ورسم البطولة العربية ، وحث الهمم على عشق المفاخر والأمجاد .

ومثلت هذه المسرحية مراراً بعد ذلك ، فهى من أوائل الشعر المسرحى فى بلده ، وصفق لها الشباب فى حلب وحمص وحماة وبيروت . وهى فى ١١٦ صفحة صغيرة أهداها إلى رجل العراق العالم الكبير الأستاذ حبيب العبيدى مفتى الموصل ، والرجل قد اشتهر بأسلوبه وقوة عقيدته ، وبسالة نضاله فى سبيل العرب والإسلام ، فألف فى جناية الانكليز على البشر والمسلمين ، وأخرج كتابه « النواة فى حقول الحياة » فدلل « عمر » على وعى وفهم ، وحب للعرب وتفان فى العقيدة وكره للاستعمار .

والشعر فى هذه المسرحية الصغيرة بسيط سهل كذلك فهو يقول على لسان « عمرو » :

هاك ياورق قصيدى وانشديه — إن فيه
نغمات وقعتهــا الزفرات
عصفت فيها أكف الحسرات
فاستحالت نغماتى لأنين — وحنين

حطمت ياورق أوتارى الهموم — والكلوم
فتلاشت بين طيات الأثير
لم يعد فيها سوى النزر اليسير
أنشدينى آه ياورق نشيدى — أنشدينى

ونحب أن نلفت النظر إلى الشعر الحزين والنبرة الباكية ، فقد كثر فى شعره بهذه السن ، ولعله تأثر بالروح المهجرية السائدة فى زمانه ، وقد أخذ عن هؤلاء الشعراء العرب بأمريكا أساليبهم وبحورهم وقوافيهم ، وقد ألح على الحزن فقال فى المسرحية على لسان عمرو :

خفى الوطء ياهموم فإنى ما وطئت العشرين إلا قريبا
أنت أضنيتنى بميعة عمرى أنت علمتنى البكا والنحيبا

وقد كثرت هذه الألفاظ الحزينة على لسان شخصياته فترددت كلمات السعير واللظى وتباريح الهوى وبحور التعس ، كما كثرت ألفاظ الاعتزاز والفخر والعنفوان والاباء ، فهو يقول على لسان جساس :

لا عتب إن جرت عليك يراعيتى وملاك شعرى قام فى شيطانه
فالشعر طوعى ماغمزت عصيه إلا جرى كالماء فى جريانه
ما البابلية مع تقادم عهدها أشهى وأذكى من عتيق دنانه

وهذا فخر عمر بنفسه لاشك فى ذلك أعاره إحدى شخصيات المسرحية وهو فيها لا يكاد يغيب عن عقله الباطن ، فى انتقامه وفى ثأره وفى تصوير حياته . فيتناول شاعراً فى بلاده كان يلقب بالطبيب الشاعر ، ويقول على لسان دعبل :

إنى لأعجب من طبيب يدعى فهم العروض
يا من يقضى العمر ما بين جروح ورضوض

ويبيت يحلم فى المريـ ض وفى مداواة المريض
من أين يحسن ذوقك الشعـ رى فى فهم القريض

فلما احتج الطبيب الشاعر قال دعبل :

لم ألق أحمق شاعر من الطبيب الشاعر
أهنتنى ألم تهب يا شاعر المقابر

كذلك كان قلم عمر فى السخرية وفى النقد واللوم ، يسعى إلى تعريف الشعر الرفيع ، ويتناول غيره مما ينحط فى نظره عن مستوى الشاعرية الحقة ، فكأنه يتبع الطريقة العقادية فى كتاب « الديوان » ، وقد ساقه ذلك كما نرى بعد قليل إلى وضع مسرحية خاصة بالشعراء ، تناول فيها المعاصرين بالعراق والشام وغيرهما سماها « محكمة الشعراء » وهذه خطة كتاب المسرح فى الغرب .

وفى مسرحية « ذى قار » انتقم من الفرس ونصر العرب بعد أربعة عشر قرناً ، فقد جاء على لسان كسرى قديماً وصف للعرب شعوبى مدسوس فرد عليه « عمر » بعد أن خطب كسرى ابنة النعمان فقال :

فمن كسرى أنو شروان حتى تزف له المكرمة العروب ؟
إباحىّ غصوب مزدكى فبئس الدين والقدم الغصوب
وما النعمان إلا نفس حر لها للمجد والعليا وثوب
لعمرى لن يلبى أمر كسرى وفى أعراقه نبض يجوب !

ثم يلتفت الشاعر إلى الفخر بالعرب ، فيثير ذكرى القومية والمفاخر ويفخر بأجداده على لسان « عصام » :

يفرقهم إذا نصروا سلام وتجمعهم إذا قهروا حروب
هم الغر المطاعين الدواهى إذا ناداهم اليوم العصيب

هم الفرسان إن جهلت صَهَات وإن عضت على الشكم النيوب
لهم من كل مكرمة نصيب وما للجبن عندهم نصيب

وهذا من الشعر التقليدى الجميل ، نسج فيه شاعرنا الفتى على غرار الفخر القديم فوفق فى تقليده أجمل التوفيق ، فبسط الشجاعة والعدالة والمساواة ، وأوغل فى تقمص ثياب العرب ومعانيهم ومبانيهم ، فصنع قصيدة على لسان النابغة الذبيانى ليوهم أنها له ، فأجاد تمثل روح العصر وقال :

فككت عن ساق القلوص إباضها فجرت رسيما فى بطاح قتاد
وقطعت فيها كل قفر قردد مستوحش القصاد والوراد
قد صوحت فيه المياه فلا ترى فى الجفر غير العفر والأعواد
وتخال عصف الريح فوق هضابه هزج السميذع صيد فى المرصاد
والذئب مطوى الحوايا لم يجد فى الحى معطن ما عز للزاد
قد حدثته النفس فى مهريتى فدنا على كبر به وعناد
قد خالنى جبساً تهز فرائصى ومعرراً من سفلة الأوغاد

ولن نتابع رواية الأبيات ، فالشاعر يقد الذئب بسيفه ويعاجله بحد مشطب كما فعل شعراء العرب مع الذئاب . وقد روينا هذا لندلل على قوة الشاب فى الشعر ، وتمثله الشعر العربى القديم ، واجادته وتقليده ، لعل الذين كانوا فى شك من قدرة « عمر » على صوغ الألفاظ القاموسية أو اللحاق بالقدماء ، يؤمنون بأن الرجل كان يستطيع كل شىء لو أراد أن يسير على سنن القدماء ، ولكنه أراد أن يبتكر فى قوافيه وألفاظه ومعانيه . بل لعلهم يؤمنون بأن الشاعر يستطيع أن يفعل كما فعل كتاب المقامات فى اختراع الشعر والشعراء ، فدلل على قوة فى العربية وفحولة وجزالة منذ مطلع شبابه .

وكم فعل «عمر» مثل هذا ، حين كنا نخلو إليه فى جلساتنا بحى قريب من قلعة حلب ، يهدر بالشعر القديم ويقلده متندراً ساخراً . ولن أنسى أنه كان يخدعنا عن أنفسنا ونحن فى مطلع الشباب فنحسب أن الشعر قديم حقاً ، ويلهو بنا زمناً نفتش فيه عن صاحب الشعر ، ونعود إليه لنقرأ فى ثغره ضحكة الشباب المنتصر القادر !

ويصف الشاعر فى مسرحيته معركة الفرس والعرب ، ويجرى على حوار عجيب فيه السهل وفيه الوعر ، فكأنه يتقمص ثياب الممثلين والأدوار التى يقومون بها ، أو كأنه جاهلى ، ولكنه كان يصنع مسرحية فى نصرة العرب على الفرس فى ذى قار يخرج منها براية النصر ، وساعده الشاب يحملها فى قامته الطويلة ليبشر بمستقبل عظيم للشعر وللمسرح .

وقد قرأ هذه المسرحية مارون عبود ، وهو من نقاد العصر ، فأشاد بها ، وعاهد نفسه على أن يقرأ لعمر بعد ذلك فقال[1] :

« كان ذلك فى حلب ، ومنذ بضعة عشر عاماً ، يوم سمعت بشاعر اسمه عمر أبو ريشه ، دلنى عليه تلميذى يومئذ وصديقى فيما بعد الأستاذ أورخان ميسر أثنى على صاحبه وسماه فى ذلك الوقت شاعر الشباب ، وقدم لى تمثيلية نظمها الشاعر الشاب عنوانها (وقعة ذى قار) فاستبشرت بما فيها من وثبات تدل على الشاعرية العتيدة ، وصرت كلما وقعت على قصيدة له أقرؤها وأرجو » .

وإذا كنا وقفنا عند المسرحية زمناً غير قصير ، فلأنها وجدها ديوان شعره المطبوع ، يمثل صباه والطور الأول من حياته الشعرية ، صبّ فيها مختارات شعره لتلك السن على شكل حوار ، أجل إننا نظرنا إليه كديوان لا كمسرحية ، ففيه ألوان مختلفات من الأدب فى الوصف والغزل والهجاء ،

---

(١) مارون عبود — مجددون ومجترون ، بيروت ١٩٤٨ ، ص ١٧٤ .

وقدساق أحدالنقاد(١) من أصدقائه فى ختام المسرحية مختارات من شعر الفتى، حاول بها أن يسترشد وأن يدلل على شاعرية عمر ، واختلاف طبعه ، فهو طوراً حزين باك ، وطوراً مرح فرح عابث ، فوقفنا عند هذه المختارات كذلك نحاول أن نعرض منها نماذج لنكمل الصورة التى أردنا أن نرسمها لشاعرنا فى هذه السن . فقد جاء فى هذه المختارات قول عمر فى عزلته :

أجد السلامة فى الخمائل تحت أنات الغصون
وحيال نهـر جللت مجراه أسجاف السكون
وإزاء واد زلزلت أركانه كف القرون
وأمام قفر عصّبت فكيه أظفار المنون
وبقرب نبع مهمل قد فجرت منه العيون
وبمنزل ناء وحيـ ـد ضَلّ عنه القاصدون
هذى مواطن للسلا مة من حسود أو خئون
أما إذا ما مت يا قلبى فأسلم ما يكون

فالشاعر رومانتيكى يحب السلامة حيث الهدوء والنهر والجدول والظل والخميلة ، لينجو من الحساد والخونة ، كما أحبها قبله شعراء الغرب ، وشعراء المهجر ، وهو بعد ذلك يتمنى الموت لأنه أسلم ما يكون ، فما هو السر يا ترى ؟ إنه تمنى الموت كذلك فى صدر مسرحيته فقال :

يا فؤادى ألا تزال كئيباً شاكياً باكياً على غير جدوى
لا تكن ظالماً فإنك إن مـ ـت تركت الآلام من غير مأوى

وأىّ آلام لفتى فى مثل سنه وشبابه وجماله وقوته وشاعريته ؟ أهى أحلام الشباب لفت رأسه وعبثت بقلبه وخياله ، فأراد تحقيقها جملة وفى لمح

---

(١) نشرت ختام المسرحية « على شكل دراسة تحليلية لشعر عمر ، كتبها صديقه الأديب حمدى كامل ، من باريس .

الطرف ، فإذا لم يستطع بلغ إليه اليأس والحزن وبكى وتمنى الموت ؟! لقد قلنا حين الحديث عن شباب خليل مردم إنها الرومانتيكية التى ظهرت كذلك على ألسنة شعرائنا الشباب مثل فوزى المعلوف وأبى القاسم الشابى وغيرهما من شعراء المهجر ، فقد مال هؤلاء إلى الحزن ، وقصدوا إلى الغابة والعزلة والوحدة كما ذهب شعراء فرنسة وألمانيا أمثال لامارتين وفينى وموسة وشاتوبريان ؟! إننا نجهل كل شىء عن حياة عمر فى الجامعة الأمريكية من حيث الهوى والحب ، ولا نعرف له فشلا يوحى بهذا اليأس .

ولكننا نعرف أن أباه كان يردد علينا هذين البيتين الباكيين فى صدر مسرحيته على حذر وتشاؤم ، ونعرف أنه قرر أن يبعده عن حلبة الشعر والنثر فسارع فى إرساله إلى انكلترة لكى يتم دراسته فيها ، واختار له « النسيج والصباغة » فى بلدة مانشستر ، فقد كان بيت عمر يضج بالأدب والأدباء ، كان أبوه يقول الشعر[1] ، وكانت أخته تقوله ، وكان أخوه « ظافر » يقوله . فضاق الأب ذرعاً بهذا حتى وفق إلى إبعاد عمر عن هذا الميدان ، وسافر عمر إلى انكلترة سنة ١٩٣٠ وهو بعيد العشرين من سنيه ، بعد أن بذل محاولات موفقة فى الشعر ونظمه ، وأثبت أنه كان يسير بخطوات سريعة إلى الشاعرية ، فقد كان لفظه متيناً ، وقوافيه مستقيمة ، وكانت معانيه تهدف إلى ميادين مختلفة ، تحاول التجديد وتنزع إلى الإبتكار ولكن السن لا تعين على مثل هذا كله ، وصباه انقضى على خير ما يكون للشعر ، فسجل فيه صوراً وقصائد ومقطعات كانت ركيزته فيما بعد ، وكانت منطلقة ، ولذلك وقفنا عندها غير قليل لنشير إلى نشأته وأوائل خطاه فى الشعر ،

---

(١) كنا نود أن ندرس شعر الأسرة ، فنورد شعر الأب وأبنه ظافر ، وهما منشوران معروفان ، لنوازن بينه وبينهما ، ولكننا خفنا الإطالة فنكتفى بايراد بتين روى فيهما الأب تأثير المرضع فى نفسه لاقاصيص الخوف التى كانت ترويها ، نشرتهما مجلة الجامعة الإسلامية بحلب :

جاوز الستين عمرى وأرى ... دهشة الرعب بنفسى لم تزل
كلما جاء مع الأبان لا ... ينثنى عنها إلى حين الأجل

لا إعجاباً بالشعر نفسه ، بل إعجاباً بالشاعر الجرىء والأديب المتوثب قبل العشرين ، وهو فى الشام .

* * *

انصرف الشاب فى انكلترة إلى جامعته ، ولـكننا كنا نقرأ له مقالات وقصائد كثيرة ، فـكأن الدراسة ما صدته عن الأدب أو كأن الأدب ما أتاح له أن ينصرف انصرافاً كاملا إلى غيره من أعمال . فقد نشرت مجلة الجهاد بحلب فى ٩ يناير ١٩٣٢ ، قصيدة طويلة أرسلها الشاعر من لندن وجعل عنوانها « خاتمة الحب » وإذا هى تتحدث عن فتاة أحبها وأعجب بها وأرادها زوجة ، وقدم حلب من أجلها ليحمل إليها هدايا أهله ورضاهم بالزواج ، فلما عاد إلى لندن عرف أنها ماتت ، فتحطم أمله ، وهدّه الحزن ، فنظم فى ليلة واحدة رثاءها ، وصور فيها حبه العنيف ، وهى فى رأينا من أجمل الرثاء فى الشعر السورى المعاصر ، بل فى الشعر العربى المعاصر كله ، لفتت إليه الأنظار ، وتناولها النقاد وأذكر أنى أرسلت دراسة فى إحدى المجلات[1] سنة ١٩٣٢ توقعت فيها للشاعر مجداً كبيراً ، فى معانيه وابتكاراته ، ورأيت فيها خطوة جامحة نحو الشعر الغربى ، من غير أن يسىء إلى عمود الشعر العربى أو يبتعد عن الذوق العربى الأصيل . وما أزال بعد ربع قرن أجد فيها ما وجدته آنذاك من روعة وجمال وشاعرية . فهى فى مقاطع تختلف قوافيها ، فى صدر كل مقطع بيتان من الشعر على طريقة شعراء المهجر ، نعرض لها هنا لأنها تفصح عن شاعرية عمر ، وتقفنا على ما كان منه فى انكلترة ، يصف فى مطلعها يأسه بعد الفاجعة ثم يبلغ إلى وصف الفتاة ميتة فيقول :

عفة البرد ما عهدت بك الصمـ ـت قبيل اللقاء فى كل حال

---

(١) مجلة الدليل العربى ، أنطاكية ٢٥ يونية ١٩٣٢ ص ٤٥٢ — ٤٥٩ ، وفيها أثبت القصيدة كلها مع الموازنة والتحليل .

طوقيني بساعديك فلا خو ف علينا من أعين العذال
ما أرى الموت مطفئاً شعلة الحسـ ن ولا بالمزيل سحر الجمال
جفنك اليوم مثل جفنك بالأمـ س كساه الفتور يتم المثال
فكأن الأغماض فيه نعاس أو حياء أو نشوة من دلال
زادك الموت فوق حسنك حسناً وكساك ببردة من جلال
مثل ورد يرف بعد قطاف وشهاب يشع إثر زوال

ولعل هذا الشعر فى الرثاء المعاصر ، وحده الذى يصف الميتة فى مثل هذا التفصيل والخيال ، فكأنها قربه يتغزل بجمالها تحدثه ويحدثها ، وتفهم عنه ويخاطبها ، فيعتب عليها مغادرة العالم ونسيان الحبيب ونومها على الرغم من بكائه وزفراته واضطرابه ، بل إنها عشقت عالم الروح فلم تشفق عليه للحال التى وصل إليها من بؤس وألم :

أحتسى الكأس من عصارة نفسى حين أفنيت أكؤس الأوصاب
وبرانى الشراب حتى لو انى جئت ربى ما اسطعت حمل كتابى
زودينى بقبلة منـــك تبقى فى فمى بسمة ليوم الحساب

وهذه الصور الحزينة فى رثاء الحبيبة وبكاء الزوجة بارعة جميلة لسنا ندرى موقعها من شعر الرثاء إذا قورنت بالشعر الذى أرسله عزيز أباظة فى «أنات حائرة» أوعبد الرحمن صدقى فى «وحى المرأة» فهما افتقدا وبكيا وسال فى شعرهما أسى وحرقة ودمع ! أجل ما ندرى هل يستطيع شاعر شاب أن يصف الرمس ومنكراً ونكيراً ، وأن يتصور ما تصوره عمر ، وفتاته مقبلة على عالم آخر يرسمه بقوله :

أم تمثلت هوة الرمس ديراً ودمى الطهر سجداً حول رأسك
ورأيت العشاق شمعة إثم تتلاشى على مذابح قدســـك
وتصورت منكراً ونكيراً وقفا يقرآن صفحة أمسك

فتغنيت فى ضميرك جـــذلى وحسرت الشفاه عن سن أنسك
اهمسى ردك الوجيز فإنى لم أزل صاغياً لرنة همسك

لعل الشاعر وقف منها كما يقف شعراء الانكليز بعد هول الصدمة وشدة النكبة فترسم خطاها وسعى وراءها ليلقاها جميلة ساحرة بعد الموت كما كانت جميلة ساحرة فى الحياة ، وقد خلت من كل ذنب إلا الحب والهوى. بل لعله لم يصدق أنها ماتت فلما تحدث إليها ولم تجب وناداها ولم تلب ، اتجه إلى الله فآمن بحكمته فى عباده وتصوّف كما تصوّف أبوه قبله ، وعاد إلى القضاء والقدر مسلماً مؤمناً فى عقيدة صادقة ، منذ صغره حتى الساعة .

وأبيات القصيدة رويناها فى المختارات لمن يريد أن يدرس الرثاء فى الأدب العربى أو لمن يريد أن يدرس الصورة الشعرية عند عمر ، ولكننا نحب هنا أن نعرض لحياته فى انكلترة ، فقد عكف على الأدب ، وركن إلى الحزن والعزلة والهدوء ، بل إنه تعلق بالدين الإسلامى ، وأراد أن يعمل للدعاية له فى لندن ، فكتب مقالة نشرتها مجلة الجهاد بحلب فى ٦ مارس ١٩٣٢ عنوانها «التبشير الإسلامى وأثره فى بلاد الغرب» وقد ذكر فيها أنه زار جامع لندن ، ولقى الهنود المسلمين ، وتحدث إليهم ، وعرف ما يصنع التبشير فى آسيا وإفريقية ، وكان لهذا اللقاء أثر فى حياة عمر نراه فيما بعد ، ولكننا نحب أن نورد عبارة من كلام عمر تدل على شعوره آنذاك قال :

«وليعلم اخواننا المبشرون المسيحيون أن الدين الإسلامى هو دين هداية وأخلاق لا دين تضليل ونفاق» ثم أرسل قصيدة فى الرثاء كتبها فى ٢٥ فبراير ١٩٣٢ نشرتها الجهاد كذلك ، وهو يبكى فيها الشيخ مصطفى نجا المفتى الأكبر فى لبنان ، كشف فيها عن عقيدته الإسلامية ، وتعلق الشاعر بالتصوف والحكمة والقضاء ، وتأثره بموت الشخصيات الإسلامية وخسارة المسلمين بفقدها ، ونحن نذكر أن مسرحيته قدمها إلى مفتى الموصل حبيب العبيدى ، وأنه هنا يبكى مفتى بيروت ، ويقول فى خاتمة رثائه :

كرام العرب صبراً كل حى سيثوى فوق ترب الهامدينا
وكل مصيبة مهما ادلهمت على غير التصبر لن تهونا
تناسوا إمرة الدنيا فانا إلى الديان يوماً راجعونا

وهذا الشعر الدينى لا يقوله شاعر فى مثل سنه إلا متأثراً ببيته وبيئته وتربيته ، أو بظروف عيشه وحياته ؛ وهو إلى هذا يتشح بالحزن والأسى ، كأنه لا يمر فى الهايدبارك أو حدائق لندن ولا تستهويه الحياة الهادرة بألوان الفتنة والسحر ، وكذلك ظل عمر يقول الشعر القانط اليائس ، ويبكى الحب والأموات ، ويرثى قلبه ، كما يرثى أعمال المسلمين ، فكأنه تعلق بالدين والتصوف والعزلة ، فلجأ إلى جامع لندن وإلى زواره يصاحب منهم من يصاحب ، وينظم فى موضوعات الحب الضائع ، والمفتى الراحل ، والدين المهدد بالمبشرين ، وكذلك عاش هذه الفترة قبل أن يسافر إلى باريس .

* * *

فإذا انقلب عمر إلى باريس انطلق بشعر جديد لم نكن نسمعه عنه من قبل هو شعر الحسان والغيد واللهو والعبث ، شعر المرح والابتسام والأمل البسام ، فكأنه شخص آخر ولد ولادة جديدة فراح يتغنى بالقنص المترف والحب العنيف فيقول :

أفدى الحسان وأى صـ ـب لا يكون فداءهنه
اللينات قدودهن المضرمات خدودهنه
النافرات الواثبات الناهدات نهودهنه
المسبلات شعورهن السود فوق نحورهنه
الساحرات بطرفهن وذاك أضعف ما بهنه
المحييات بوصلهن القاتلات بصدهنه
اللابسات من الحياء وروعه جلبابهنه
ما سرن إلا والفؤاد سرى وصفق إثرهنه

(باريس) لن أنسى مهاك ولا الكواعب من (فينة)
حيث الهوى فرض على وقبلة الوجنات سنة
أغويننى بعد المتاب عن الهوى فتبعتهنه
ورتعت فى نعم الشباب وما ثنيت له الأعنه

وهذه الأبيات وغيرها من لداتها ولدت فى حياة عمر وشبت فأثارت عنده لوناً جديداً من الشعر فى المرأة ظل يعالجه حتى الساعة فى أنغام مختلفة من التعالى عليهن أو اللحاق بهن ، فكأنه صورة لسميه عمر بن أبى ربيعة ، يتصيد الجمال أنى رآه كأنه موكل به ، حتى لقد سبقه فى كثير فمال على الثغور يسكر لياليه ، وأقبل إلى العيون ينتشى بها ، وجنى ما جنى ، وندم ، وعاهد نفسه على أن لا يعود ، ولكنه نقض العهود ، فاعتذر بقوله :

فى الصبح أبرمت العهود وفى المساء نقضتهنه
هذى ذنوبى إنما الـعشرون تشفع لى بهنه

فهو يفتى لنفسه ويقفز لقلبه وفمه ويديه خطايا كانت أوائل دخوله فى جنة الشعر الجديد ، فعاف القنوط واليأس إلى حين ، وراح يستقى من الوجنات مدامه ، ويقول فى المرأة :

إن الحياة نعيمها وجحيمها فى راحتيك

والذين وازنوا بين شعر عمر قبل باريس وبين شعره بعد باريس عجبوا أشد العجب لاختلاف الروح وتبدل النظرة ، وانقلاب الشاعر من حال إلى حال ، فقال صديقه الفنان الأستاذ حمدى كامل يحلل شعر صديقه فى الكلمة التى أشرنا إليها ختام مسرحيته « ذى قار » :

« ربما تأخذك الدهشة عندما ترى ذلك القانط اليائس هو عين ذلك المرح الطروب المتقلب على بسط الأنس والمسرات ، ولكنك لو أحطت علماً بالبيئة والظروف التى نظمت فيها هذه القصائد المتباينة لما تركت للدهشة من نفسك سبيلا . فالأبيات الباكية صور ناطقة عن نفسية الشاعر بعد مغادرته

أحبابه وبلاده ، وقد نظم أكثرها أثناء مروره بالاستانة وإقامته بانكلترة . والأبيات الباسمة تمثل لنا الشاعر فى باريس (حيث الهوى فرض عليه وقبلة الوجنات سنة) فهذا الشعر إذاً لسان الشاعر فى فرحه وترحه ، أنسه وبؤسه ولا أرى تبايناً البتة فى نفسيته تلك النفسية التى ذهب بتحليلها أصدقاؤه مذاهب شتى[1] » .

وقد عاد عمر أبو ريشة من انكلترة ، فى ١٦ مايو ١٩٣٢ ، لقضاء العطلة الصيفية فى حلب ، ولا أعرف أنه رجع بعدها ، فقد هجر الدراسة ، ومال كل الميل إلى الشعر وحده ، ينظم لكل مفاجأة توحى إليه أو تهز كيانه ، وكان أكثر ما يهزه موت الأبطال من قومه فى السياسة والأدب ، فيقف لرثائهم واحداً بعد واحد . وكانت أيامه بعد عودته خير أيام شعره ، قال فيها وأنشد وقرأ ، فأطال النظر فى كتب النقد ودواوين الشعر ، وأصبحت نظرته تتوضح ، وغدا يتبين مكانته فى عالم الأدب والشعر ، وانتهى إلى آراء جريئة كانت تغضب بعض السادة المحافظين فى الشعر . فقد كان ينادى بتحطيم شعراء كثيرين من قدماء ومحدثين ، كان يبدى نقده لأبياتهم وصورهم ونظرتهم إلى الشعر ، وهو فى ذلك محق ، لأن نظرة الشعر فى هذه الأيام يجب أن تساير روح العصر وأن تستخدم الآلات الجديدة فى التصوير والرسم والتجسيم . وقد سئل عن طريقته[2] فى الشعر فأجاب قائلا يرسم حياته وتأثره بالشعراء :

« هنا لك أدوار متباينة النزعات مرت على ، وتركت فى حياتى الأدبية أثرها العميق . أحببت فى أول نشأتى شعر البحترى وأبى تمام وشوقى وأضرابهم . لأن أساتيذى — سامحهم الله — كانوا يغرقون فى امتداحهم ، ولا يشحذون لسانى إلا بشعرهم فكم رقصت طربا عند سماعى :

ريم على القاع بين البان والعلم ... أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

(١) مسرحية ذى قار ص ١٢١ ، حلب ، بغير تاريخ .

(٢) مجلة الحديث ، حلب ١٩٣٦ ، يناير ، ص ١٥٦ .

وكم أخذ المعلم يشرح ما بهذه القصيدة و بأمثالها من جناس وطباق و استعارة إلى آخر ما هنا لك من (ألاعيب) بيانية ، حتى خيل إلى أن القصيدة التى لا تضم شيئاً من هذه الألاعيب ليس لها قيمة ، وتحت تأثير هذا الرأى أخذت أنظم ، وأذكر مطلع قصيدة قلتها فى هذا النحو :

سلاها ما الذى عنى ثنـاها وقلبى فى التنائى ما سلاها

ولم أكتف بهذا بل تعديته ، وأخذت أعارض بائية أبى تمام وسيفية البحترى تلك التى عارضها و نشرها فى مجلته فى الأسبوع المنصرم شاعر لبنانى يدعو الناس إلى التجديد ! ! و إنى إن استفدت شيئاً من هؤلاء فانما استفدت اللغة والتراكيب أما الفكرة الشعرية ، فقد خبا دونها خيالهم الكسيح ، وسيعطيهم هذا الجيل الناهض ما يستحقون !

سئمت هذا الشعر وهذه الزمرة من الشعراء ، فعدت أبحث فى كتب الأدب على أجد ما أروى به ظمأى فعثرت على شعر جيد مبعثر هنا وهناك كأبيات لأبى صخر الهذلى القائل :

وما هى إلا أن أراك فجـاءة فأبهت لا عرف لدى ولا نـكر

وأبيات لعبـــده ابن الطبيب وابن زريق البغدادى والوليد الأموى والأسدى وهذا الأخير هو صاحب القصيدة الرائعة :

نأت دار ليلى وشط المزار فعيناك ما تطعمان الـكرى

ثم ساعدنى الحظ فسافرت إلى انـكلترة لإتمام دراستى ، فشغفت بشعراء كثر كشكسبير ، شيلى ، كيتس ، بودلير ، بو ، موريس ، هود ، ملتن تنسون ، وبراونينغ . وقيمتهم عندى تتراوح حسب الحالة النفسية التى أكون فيها .

فنى حزنى لا أردد إلا مرثيـة غراى GRAY وفالتشر ، وفى مرضى لا أردد إلا أبيات (ت . تنسون) المعروفة ، وفى الليالى الحمر لا يمر على بالى غير أوسكار وايلد ، وفى ذكرى حبي البكر لا تمر أمام عينى غير تلك الصور التى صاغها شكسبير فى قصيدته (فينوس — أدونيس) التى أراها أروع ما أنتجه الفكر البشرى فى هذا الموضوع وهكذا ، فإن لكل شاعر أثراً لا يزول من نفسى ، ولكنه أثر يزيد أو ينقص . . . وهنالك شعراء لهم شهرتهم الواسعة أمثال هوغو ، كبلنغ ، ميسفيلد ، لامرتين ، ولكننى لا أحبهم ولا أميل إليهم .

غير أن أحب الشعراء إلى اثنـان هما بو ، وبودلير ، اللذان صرفت الساعات الطوال فى مطالعة آثارهما ، فهما أشبه بلولب صور فى حانوت رسام كيفما حركته وجدت صوراً جديدة تختلف كل صورة عن أختها كل اختلاف وفى كل منها رمز ينقلك من أفق إلى أفق ، فلا تشعر بملل ولا تحس بتعب وأما من ذكرت من الشعراء فإن كلاً منهم أشبه بلوح متقن الوضع فاتن الرمز ، تكاد تنطق ألوانه وتشف الحياة من خلالها ، فلا يقف المرء أمام هذا اللوح معجباً به كل الإعجاب ثم لا يلبث أن يفتش عن لوح آخر . هذا ما أنتحله من العذر فى حبي الشديد لبودلير وبو ، فى هذه الأيام ، ولكن ألم أنتحل عذراً أوسع حجة عند ما كان براوننغ وتنسون كل شيء فى نظرى فى العام الماضى ؟ إننى أخاف أن يأتى ذلك اليوم الذى لم تعد تحب فيه نفسى غير شعر الحياة الصامت » .

لقد أطلنا فى النقل عن عمر لأننـا أردنا أن يتحدث عمر بلسانه عن شعره فهو خير من يكشف عن تجربته الشعرية ، وهو أحسن من يحلل نفسيته الخاصة . فقد عشق الشاب شعر القدماء أولى الأمر ، فاكتسب هذه اللغة والمفردات والتراكيب ، واختزن بعضهـا ليرددها أبداً وأهمل غيرها لأنها لا تصلح فى رأيه لشعره ، وهو لم يعن باللغة العربية خاصة

غوصاً على قواعدها ومعرفة لأحوالها كما فعل البزم ، ولم يقف عند تراكيبها المختلفة وبيانها كما فعل الزركلى ولكنه عنى بها كأداة لشعره فحسب ، يحتاج إليها فى تراكيبه وصوره فلم يدر حول القالب يعبده ويمجده بل انصرف إلى الجوهر . ولقد عرف عمر أن الشعر العربى يجب أن لا يعيش فى العصر الحاضر عالة على شعر القدماء يقلدهم ويحذو حذوهم فى كل شىء . وعرف أن الشعر الغربى قد خطا فى سماء الإلهام منذ القرن السادس عشر حتى بلغ إلى السماوات العالية بينما لبث الشعر العربى كسير الجناح أسير التقاليد والألاعيب ، فأراد أن يلحقه عمر بركب الشعر العالمى ، فاستعرض هذا الشعر العالمى ، وقرأه واستوحى كثيراً من أهدافه وصوره ، فلم يقف فى حبه عند شاعر واحد ، وقد كان قلباً ، فاختار حيناً شاعراً واختار حيناً غيره كما كان فى حبه للنساء ، وهو قد ولد شاعراً وليس للشاعر مذهب واحد فى أقواله ، وفى حبه ، وفى طريق عيشه .

فليس الأمر كما قال الأستاذ حمدى كامل فى موقفه بين اليأس والأمل أو الابتسام والحزن ، وإنما هو أبعد من هذا ، إنه عقل الشاعر وروحه ونفسيته ، يقول وفاق المؤثرات الطارئة ، يستوحى من الصخر والرمل والمرأة والنجم والسماء ، والورق ، ويستلهم من أخطر الأشياء ، كما يستلهم من أحقرها ، فهى مادة خام يصوغ منها خياله ألواحاً وصوراً .

بل إنه فوق الذى قاله عمر ، ولم يشأ أن يكشف عن سر تفوقه فيه ، إنه فى الفكرة الشعرية ، وفى الصورة نفسها التى يصوغ بها الفكرة . فقد تكون معروفة أو مطروقة ، ولكنه يحيطها بأطار من الروعة فى الألوان والظلال ، يبعد محلقاً وراء خياله فيصطاد الصورة البعيدة ، ويرسمها بريشته الدقيقة ، فتخرج فى صفحة أو أبيات عدة ، وغيره يرسمها فى بيت ، وليس هذا يعنى أنه يسرف فى الأطناب ، وغيره من القدماء العرب يسرف فى الإيجاز ، وإنما هو هذا وغيره . فهو لا يؤمن بأثر البيت الواحد

فى الشعر ، ولا يؤمن بالقصيدة إلا إذا حلقت فى مجموعة صورها وراء عالم الغيب الذى يعيش الشاعر فى أحضانه ساعات التفكير والإلهام فيربط بين الصور بخيط رفيع قد يقف خيال القارىء الكسيح أمام وجوده فلا يكاد يحس به ولا يدرك ما بين الصورة والصورة من رابطة ، ولا يلحق به إلا من عاش فى أجواء الشعر العالمى . لذلك كان شعر عمر منذ عاد كثير الصور والألوان بعيداً عن أذهان القراء ، قد يتهم بالتفكك والخروج عن الموضوع ، ولكنه فى صميم المعركة بين خياله وقلبه ، بين روعة التفكير وقدرة التصوير . وهو يخرج من هذه المعركة بموسيقا ساحرة فى اللفظ والسياق والتوقيع ، كأنه يغنى شعره قبل نظمه ، أو ينظمه موقعاً على آلة قديمة ذات أوتار عديدة يعزف العالى فى أبعد حدوده والمنخفض فى أبعد حدوده ، فتخرج النغمة فوق ما تعود قراء الشعر العربى ، وهى تبرهن أن نفس الشاعر أو أن صوته يستطيع أن يتغنى بأصوات جديدة عالية جداً ومنخفضة جداً ، فكأنه شعر جديد غربى بألحان عربية جميلة ، فلا يعجزه أن يقول لكل طبقة وأن يتغنى بكل صوت كما يفعل المغنون العالميون والعازفون العالميون . وقد وفق إلى ذلك عن سبيل سار عليها ، فاختار الفرار من قافية إلى أخرى فى القصيدة الواحدة — كما يقول مارون عبود — وذلك ليطرد الملل أولا ، وليرخى لخياله العنان فى اصطياد الصور الجديدة من غير قيود أو حدود أو سدود . وبذلك لبث الشاعر محلقاً أبداً ، لا ينخفض ولا ينحط ، كالنسر فى القمم ، فإذا قعد حيناً فلكى يستريح من وثباته المفرطة ليعود إلى وثبات مفرطة أخرى .

هذا هو التركيب الموسيقى فى شعر عمر ، يزحف به على قواف مختارة وألفاظ مصطفاة كأنها قدّت له كما يقول القدماء ، فتحس بالأنغام تتساوق يجر بعضها بعضاً بسلاسل دقيقة من أصوات خفية مهموسة هى سر النجاح فى صوت عمر ، لذلك كان فى بدء حياته الشعرية يصلح منشداً أكثر مما يصلح شعره متلواً مقروءاً — إذا صح التعبير — فيسكر السامع ويطرب لعمر

متغنياً بشعره فلما يخلو إليه تخطئه النبرة التى سمع الشعر بها ، وتفلت منه الروعة التى سمعها من لسان شاعرها . وإذا كانت القصيدة عند عمر « متزنة الخطى كأنها قطعة من عسكر » كما يقول مارون عبود فان القائد الذى يسوق الجيش يختلف عن الذى وضع الخطة فى سير الجيش وفى « تكتيكه » كما يقولون . وعمر قائد لعسكره بنفسه ، كما يقود الفرقة الموسيقية ملحن القطعة الموسيقية يضع فيها ذوب روحه وخياله حين يلحنها وحين يعزفها وحين يقودها ، ويختلف فى ذلك عن غيره ممن يقودها بعده . كذلك شعر عمر يجب أن يتغنى به المنشدون كما يتغنى به عمر .

وليس هذا يعنى أن هذا الشعر لا يصلح للقراءة أية قراءة ، وإنما يحسن أن يترنم به شاعر يحس ما فى دقة اللفظ وسوق التركيب ولمحة الخيال من أثر بعيد فى ريشة الشاعر حين وضع الألفاظ وفى عقله حين تخيل المعانى والصور .

ولقد أحس الدكتور شوقى ضيف(١) بقوة المادة التصويرية عند عمر ، فوقف عندها ونسج دراسة ممتعة فى وصفها ، فرأى أن يرجع إلى الشعراء الذين خرجوا على تقاليد الشعر الموروثة ، فسبحت الأشباح والظلال والألوان فى شعرهم ، وذكر منهم ابن الرومى وأبا تمام فقال عن أبى تمام : « ونحن لا نقرأ فى شعره حتى نؤمن بأنه تنوء فى تاريخ الشعر العربى ، إذا عدل به عن الأفلاك الواضحة التى يدور فيها إلى فلك غائم ، تصيح وتسبح فيه الأشباح وتتحرك حركة واسعة لا من حيث الطبيعة وحدها ، بل من حيث المعنويات أيضاً ، فهى تتجسم وتتشخص وتظلل أطيافها كل شعره » وعلق الدكتور شوقى ضيف على هذا بأن الذوق العربى نفر من شعر أبى تمام ، وتصدى له النقاد لأنه خرج فى رأيهم على عمود الشعر العربى وسننه المتبعة .

---

(١) دراسات فى الشعر العربى المعاصر ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٥٩ طبعة ثانية ، ص ٢٣١ وما بعدها .

وهذا التشخيص والتجسيد والتجسيم هو الذى تعلق به عمر ، وهو الذى دفع النقاد إلى استبعاده حيناً باسم اللغة والمفردات وحيناً باسم الصور البعيدة ، كما دفع القدماء إلى استبعاد ابن الرومى وأبى تمام . وهـذا هو الذى يعجبنا فى شعر عمر ونقف عنده لأنه يكون فى الشاعر عن قوة وروعة لا عن ضعف وسطحية . وعمر عميق النظر إلى الصور ، صياد بعيد اليد والشص يصطنع الأناة والصبر والفهم فى الغوص وفى التوفيق .

وكأنى بالشاعر الـكبير يعيش نهاره مع الأشباح ، ويقضى ساعات خياله مع الصور ، فيكسوها بالألوان والظلال ويجسم بها مشاهده الواسعة كأنها ألواح فنان رسام مصور صناع لا شاعر يعيش مع اللفظـة ليربطها بأختها ويصنع منهما شطراً يقفيه بقافيـة يرود فى المعاجم طويلا ليقع عليها ، وقديماً قيل كانت المعاجم على أواخر الكلمات خدمة للشعراء يجدون عندها قوافيهم .

لم يكن عمر يسعى وراء الألفاظ ، ولـكنه يسعى وراء الصور ، فكان ديوانه بل دواوينه الثلاثة ومسرحيته متحفاً للصور ، سنحاول أن نـكشف عن ألواحها الغطاء لنحلل ما فيها كما يصنع أدلاء المتاحف يشيرون إلى نشأة اللوحة وسبب رسمها وما فيها من توفيق ، ويعيدون ويبدئون ، حتى ينتهى أكثرهم إلى فهمها على مر السنين ويتقمص روح صاحبها حين رسمها وأضاف لوناً إلى لون فى صبغها وتحضيرها . فنحن قد عاشرنا تجربة الشاعر الفنان حين صنع هذه اللوحات ، وعرفناه وهو يرفع صبغاً ويضيف صبغاً ، ويحذف صورة أو ظلا أو لوناً ليضع مكانه آخر ، ويحذف كلمة أو جملة قالها أول مرة ، ثم خطر له أن يستبدل بها كلمة أو جملة أخرى مكانها ، وبذلك تختلف رواية بعض أبياته حين نشرها فى صحف حلب ، عما قالها وعما طبعها ثانية أو ثالثة ! ولن نقف عند هذه الدراسة فى مسوداته ومنشوراته كما يصنع الغربيون فالمحاضرات تحوج إلى العرض السريع لا التعمق والوقوف ، ولو قد فعلنا لأطلنا وأمللنا .

ونحن بعد أن عرضنا للقالب والصورة فى شعر عمر منذ هذه السن نحب أن نتحدث عن شعره الذى لم ينشره فى دواوينه ، قبل أن نخوض فى تقسيم شعره على الفنون كما فعلنا فى دراسة زملائه قبله . فنحن قد جمعنا هذا الشعر من خلال الصحف والأوراق ، وسجلناه بعد هذه الصفحات ، ونحن نعرف أن الشاعر لا يرضى عنه كل الرضا ، ولكننا مضطرون إلى بيان خطواته واحدة بعد أخرى . فقد بسطنا الخطوة الأولى فى تقليد الشعر القديم حين صنع المسرحية وقفز فى بعض صورها وتراكيبها إلى ميادين جديدة ولكنها فى جملتها من صنع الصبا قبل أن يبلغ إلى أولمب الشعر ، وقبل أن يعود من انكلترة .

ونحب كذلك أن نبسط الخطوة الثانية ، وقد عاد الشاعر من لندن بزاد جديد ، جعله فى قصيدته « خاتمة الحب » وكسا شعره بالألوان والظلال ، ففرح أصدقاء الشعر بهذا الفتح ، ولكنهم رقصوا طرباً حين سمعوه بعد ذلك يسير على هذا السنن ويوغل فيه ، فيقف فى رثاء « حافظ ابراهيم » وذكراه ليتحدث عن الشاعر البائس بصور جديدة ما قال مثلها زملاؤه ، فهو قد لا يحب شعر حافظ ، وقد لا يحب شعر غيره ممن صورهم ، ، ولكنه اتخذها مناسبة لبسط صوره وعرض رأيه فى الشعر ، وهذا هام فى تأريخ الأديب وتحليله .

وقف فى ذكرى حافظ يرسم الأديب البائس ، كهزار قد أوحشته مغانيه وعاثت كف الأذى به ، فناح فى وكره وحيداً يرسل الصرخة الحزينة فى الشدو ، ويتلمس السبيل ليرى زميله شوقى يروح مغنياً ويغدو فرحاً فقال:

ورأى إلفه يروح ويغـــدو ويبث الأطيار عذب صداحه
فبكى لوعة فعاجله النز ع فلف المنقار تحت جناحه

وكذلك عمد عمر إلى الرمز والصورة ليرسم بؤس حافظ ونعيم شوقى

فمثل لهما بطير بن سعد أحدهما وشق الآخر فى لوحة كاملة لو رسمها مصور صناع لما أضاف إليهما شيئاً من الحركة واللون ، بل لخسر معركة الصوت والموسيقا وقد وفق فيهما عمر . ثم تحدث عن حياة حافظ فرسم غريقاً فى الأحلام جذلان طروباً كلما استيقظت عيناه صاح فى جفنه الغضيض ونام ، يؤثر الحلم على اليقظة ، فالحلم خير واليقظة حقيقة مرة . ورسمه فى موته كما رسم فتاة حبه ، ولكنه هنا صور البؤس جاثماً حوله والهموم تسعى إليه وهو فى حيرة من أمره ، ثم انتهى إلى العزاء :

ليس فى العيش مايسر ولكن   إنه المـــرء مولع بالبقـاء

ثم وقف فى ذكرى شوقى فوصف غرور الشاعر فى صـــورة بارعة فقال :

فعراه شبه الغرور وماكا   ن ليصغى إلا لوجع ربابه
هكذا آفة النبوغ غرور   يفصم المرء عن كريم صحابه
كسفين هوجاء جن بها الركـ   ـب وأفق الأنواء فى تصخابه
لطمت عارض الخضم فأرغى   فكه واعتلى ضجيج عبابه
ومضت كالسهام ضاحكة منـه   ووسنى عن بطشه وعقابه
فرماها على الصخور فكانت   لقمة مزقت على أنيابه

إنها لوحة لسفينة تجوز الأمواج مغرورة مزهوة بقوتها تظن أنها لن تغلب ولن تتحطم ، فإذا بها أشلاء ممزقة على الصخور جزاء غرورها وهذه اللوحة شبيهة بالألواح التى خلفها شعراء الفرنسيين حين أرادوا أن يرمزوا إلى أمر أو يصوروا حالة تخيلوها ، فرسموها مشهداً وجعلوه مثلا لما يقولون . كذلك فعل ألفرد ده فينى فى موت الذئب فرسم الصياد يرميه والكلب هجم على الذئب ليحمله إلى صاحبه ، فإذا بالذئب ينتقم ويموت من غير أن يرسل صوتاً فى الرجاء أو الدعاء أو البكاء ، ورسم «موسة» البجعة

وقد قدّمت أحشاءها لأبنائها صورة للشاعر الذى ينعم الناس بآلائه وهو يحتضر ببلوائه .

وهذه الألواح والصور هى التى عمد إليها أبو ريشة لتفسير ما يريد وشرح ما يقول ، فألقى بها واحدة بعد واحدة تزحم قصيده وتملأ شعره فينتقل القارىء من مشهد إلى مشهد ، مأخوذاً بالخيال ناعما بالموسيقا ، يحلق وراء الشاعر فى الأبعاد الذى ذهب إليها .

وليس هذا وحده فى شعر عمر ؛ فهو حين تحدث عن شوقى رسم الورق فى كرمة ابن هانى تسأل عن صاحبها ، والزهر يفتش عن هزاره ثم تساءل عن الرمس وما لقى الشاعر وراء الرمس ، وانبرى لآثار شوقى يستعرضها فرسم المسرحيات وأبطالها وانتهى بعد ذلك إلى قول له خطره ، يطلقه شاب فى الثالثة والعشرين من سنيه فيقول :

إن تجدنى أقول مالم يقله	فيك فى الشرق نادب أو ثكول
فلأنى كرهت سخف ابن هانى	وابن أوس ومنَ به تدجيل
زلزلوا الأرض والسماء إذا ما	ت حبيب أو غاب عنهم خليل
رب نزر من الأسى إخلاص	وكثير من البكا تضليل
أعذب الشعر ما يشع به الصد	ق وتمشى على خطاه العقول
فلئن عابنى الحسود فلا لو	م فداء الحساد داء دخيل
وكفى المرء سؤدداً وفخاراً	أن يعاديه حاسد وجهول
رب رقطاء فى الفلاشفها الجو	ع وخارت وهز منها الذهول
صفرت صفرة الجنون ولما	طاش حسبانها وضاق السبيل
حركت نابها وعضت على البط	ن وماتت ولم يبل غليل

فهو يفتخر بأنه قال ما لا يقوله القدماء والمحدثون ، وانتقد أبا نواس وأبا تمام ، فرأى التهويل عندهما ، ونال من نظرية فى النقد ، وهى أعذب

الشعر أكذبه . فأشار بأن الشعر الصحيح يجب أن يكون رائده الصدق ثم رسم صورة للحسد ، فاستحضر رقطاء شفها الجوع وطاش حسبانها فعضت على بطنها وقضت حين لم تر من تقضي عليه ، وكذلك تأكل النار بعضها إن لم تجد ما تأكله .

وفي هذا القول جرأة عظيمة تشبه تلك الجرأة التي نهض بها العقاد والمازني في نقد النثر والشعر لزمانهما ، ولكن شاعرنا أرسلها شعراً في سن الشباب وهو يعرف أن الحساد له بالمرصاد ، وأنه لن يستطيع زحزحة القدماء عن نظرتهم إلى الشعر ، وأنه يجب أن يشق طريقه إلى المجد، ولكنه آثر أن يسير عن هذا السبيل في عنف شديد ، وفي تحطيم نواسع للشعراء الشوامخ في الأدب العربي . فانبرى له النقاد والحساد وراحوا يكيلون له التجريح والنقد ، فصور حاله وهو يخاطب الشاعر الصافي النجفي في حفل تكريمه بحلب :

حاربتك الحساد عهداً ولابد ع فداء الحساد داء عياء
أطلقوا ذمهم عليك وهيهات ت يرجى من الحسود ثناء
كلما جئته بما ينعش الرو ح تبدى في وجهه استهزاء
إن عينا ترى الصواب وتغضى لهي عين مطروفة عمياء
منتهى الفخر أن تعادى فلولا الـ عبقريات لم تك الأعداء
أرسل الشعر مثلما تطلب النفـ س وحلق ما شاءت العلياء
واملأن مسمع المولة بجوى فلنجواك يعذب الأصغاء

وفي هذه الأبيات صورة لما كان يلقى أبو ريشة من عنت المحافظين في الشعر يتناولونه بالسخرية والحسد ، فيصيبهم باللوم ويجرح أعمالهم ويتصدى لطريقتهم في بكاء الأطلال وذكر الظبي والبان ، وفي النواح والعويل حتى قال عنهم في هذه القصيدة نفسها :

شعراء الزمان ياثاقب الرأ ... ى نعانى من أمرهم ما نعانى
لم يكدوا حناجر الشعر إلا ... فى سخيف من فكرة ومعانى
لا يزالون يندبون وقوفاً ... فوق أطلال سالف البنيان
كيف يبكى الأطلال شاعر عصر ... فيه ما فيه من سنا العمران
ولئن حاولوا النسيب فلا تس ... مع إلا نواحة الأوزان
ليس تخلو من ذكر ظبى وبان ... أى حسن فى الظبى أو فى البان
إن يك الشعر ما يرون فانى ... منك ياشعر قد نفضت بنانى
ما أرى الشعر غير رؤى الروح ... تجلت فى محكم التبيان

فاعترف بأنهم يهاجمون طريقته وأنهم لا يزالون فى شعرهم كالقدماء . والعجيب أنه اتفق فى النقد مع أبى نواس حين نال من شعراء عصره ونقد طريقتهم كما نقد عمر تماماً . وهكذا كان عمر فى هذه الفترة شديداً عنيفاً فى الهجوم على طريقة الشعراء لأيامه ، يختلس الفرص للنيل منهم ، حتى أنه رسم مسرحية شعرية سماها « محكمة الشعراء » جعلها فى أربعة فصول ، وحشد فيها الشعراء المشهورين ، محافظين ومجددين ، فأنطق كلا منهم بما تخيل ، وكان فى المسرحية شديداً كذلك . فتناول شعراء العراق والشام ولبنان ومصر ، فنصر بعضا وخذل بعضاً فى حواره ، وفضح فى هذا الحوار طبائع كثيرة كانت مخبوءة ، وقد جعل أبولون إله الشعر حاكما بين الشعراء يستدعيهم ويسألهم ويحاورهم ويستمع إلى نقد بعضهم لبعض ، ومنيرفا آلهة الحكمة شاهدة ومعها إلاهات اليونان يشهدن كذلك ويحاورن الشعراء . والمسرحية كلها فى بيان طريقة المجددين والهجوم على طريقة القدماء ، فى سخرية وهزء يلين ويقسو ، حتى لقد تناول كبار الشعراء بالنقد لمعانيهم القديمة وتقليدهم للقدماء .

---

(١) جاء منها فى مجلة الحديث ، الفصل الثالث والرابع فقط — أنظر سنه ١٩٣٤ ١٤٥ — ١٥٧ ، ٤٥٨ — ٤٧٥ .

وسنبسط هنا سطوراً من المسرحية تكشف عن طريقة عمر بعد سنوات من مسرحيته الأولى، لنشير إلى نقده الساخر للشعر :

أبو شادى : إنى لأحفظ قطعة في الفيلسوف إلى «عمر»(١)
شفيق جبرى : ومتى دعى الشعر هذا يا أبا شادى شعر
أبو شادى : هل تسمعونى ؟
شفيق جبرى : لا !
أبولون : عسى نسمع معنى مبتكر
هيا أبا شادى
أبو شادى : اسمعوا شعر الفتى
شفيق جبرى : فيما هذر

«ابو شادى ينشد أبيات عمر»

أرضعته الطبيعة الفتانة يوم أن فتح الضيا أجفانه
ورمى الفجر هالة فوق فوديـ ـه بشتى أضوائه مزدانه
وضمير الظلماء فض عليه ختم سر لم يستطع كتمانه
وحباه الخيال من أفقه الرحـ ـب جناحين ذللا ميدانه
وغفا الوحى لاثماً شفتيه ولسان الإلهام يهدى لسانه
فإذا الكون كله نصب عينيـ ـه تجلت أسراره عريانه
نسمة من هداية نفح اللـ ـه بها الناس فجاءت معطارة ريانه
الزهاوى : هذا خيال مضحك خلو من الحقائق
على الناصر : هذا خيال شاعر مبرز وصادق
أبولون : لا تعبأن بوزنه (فالفرق مثل الصبح ظاهر)
الشعر قد أرسلته (مثلا من الأمثال سائر)
ذو العقل يقرأه فيغدو شارد الأفكار حائر

(١) هذه الأبيات قالها عمر أبو ريشة فى أمين الريحانى ١٩٣٢ .

وهكذا يمضى عمر فى عرض شعره ، وفى عرض الشعر القديم ، ليرسل نقده على سبيل الرواية والمسرحية ، وهو يريد أن يثبت قدم هذا الشعر الذى يدعو له ، ويناضل فى سبيله ، حتى كتب له أن يشتهر وأن يقف الشاعر على قدميه ، وأن يدوى صوته فى المنابر ، وأن يصفق له المعجبون . فأصبح شعره على كل لسان ، وفى كل صحيفة ، رغم كيد الكائدين وحسد الحاسدين ، ففكر صاحبه فى أن يرسله على متن ديوان سماه « شعر » كما فعل ڤاليرى حين نشر ديوانه ، وأرسله فى الناس سنة ١٩٣٦ ، وقد جمع فيه أكثر ما قاله منذ عاد من لندن بين سنتى ١٩٣٢ — ١٩٣٦ خلال أربع سنوات ، وحذف منه ما لم يستطبه من شعر صباه ، فآثرنا أن ننشر بعضه فى المختارات بياناً لخطوات عمر ، وعوناً لتاريخ الأدب المعاصر الذى نكتب فيه . وسنقول فى هذا الديوان وغيره رأى النقد وقد ارتضاه عمر لنفسه ، بأن نقسمه إلى فنون القول كما فعلنا بزملائه المعاصرين قبل قليل .

التجديد فى شعر عمر

الوطن المقدس والمرأة الخالدة

ناضل الشاعر عمر أبو ريشة وكافح فى سبيل شعره ، ولقى كثيراً من الظلم والعنت والإغفال ، فانعكس هذا كله فى شعره صوراً ومشاهد وألواحاً ، فقد ظلّ فى حلب يرقب عبث بعض الساسة ولهو المتنفذين ، ويرى أبطال العرب من المعاصرين يقضون واحداً بعد واحد ، كما تنطفىء شموع المعبد إثر اعصار كبير . وهاله أن ينزل بعض الأحزاب إلى مستوى المساومة ، وأن يخدع الشعب ، وأمضه الاستعمار وأحزن باله ، فراح يردّد فى نفثاته طلقات المدفع الذى يملكه ، فيخرج اللهب وحده ليشير إلى أن روحا تتحرق فى سبيل الحرية ، حرية العرب ، وقد وهب الشاعر لهم قلبه وحياته ووقف على تمجيدهم كلّ ما يملك من قول ونظيم . وقلبه ما كان ينبض إلا للجمال والجلال : لجمال الطبيعة والمرأة وجلال التاريخ والبطولة ، فسال هذا وهذا فى شعره أناشيد فى رسم الألوان والظلال والأشباح ، فكانت النظرة واللمحة والهمسة ريشاً فى جناح شعره وكانت الدمعة والدفقة الوطنية والدماء الحمراء أصباغا لهذا الجناح وهذا الريش . فما يدرى القارىء كيف يتسع قلب عمر لهذا العالم الفسيح من رؤى العطر والجمال ، ومشاهد النضال والقتال ، وكيف تهتز أضلاعه لهذه الألواح وهذه المشاهد على حد سواء ، فى سنّ الشباب وفى سنّ الرجولة وحين كان رئيسا لدار الكتب فى حلب ، وحين أصبح سفيراً لسورية فى البرازيل حوالى سنة ١٩٥٠ ، وفى الهند ، وفى فينة اليوم . لم يكد ينصرف خلال هذه الظروف على مرّ السنين عن ربابه ونايه ، يوقع أطرف الأناشيد : ويتقدم إلى ذرى الشعر العالميـــة ، فما يرضى عن أمسه أبداً ، وإنما يقبل إلى غد مفعم بالطيب والأمل ، يركب إليه على عنفوان كبير ، فى قامته الفارعة ، ينظر من عل كما تنظر النسور إلى بغاث الطير ، فما يضيره دساس ينال منه حسداً ، أو سياسى حانق يموت

من رفعته كمداً . فهو فى السماء يخفق بجناحيه وريشته فى يده ومنظاره على أنفه ، يبتسم ابتسامته الساخرة العميقة ، يسمع ما يريد أن يسمع ، ويضحك من غير أن يعلم سامعه أنه ضحك لكلامه أو لكلام ضلوعه ، فهو يعيش فى برج لا يدركه ضعاف الأحلام ، وهو مع الناس فى جلساتهم ويكاد يغيب عنهم ليسمع حفيف الآهة الشعر ووشوشات النغم التى ترسلها فى صدره آلاف الأشباح الجميلة التى تقتتل لترد إلى هذا المعبد العظيم حيث تأوى فرحة قريرة ، فقد رأت فى حنايا ضلوعه مكانا وادعاومرتعا جميلا تسرح فيه ناعمة بمن يداعبها ويعرف مكانها ، ويقدر لها قدرها فيختار لها أجمل المواقع فى قوافيه وفى مشاهده وصوره .

ذلك هو عمر أبو ريشه فى ديوانه الأول الذى أصدره سنة ١٩٣٦ ، وفى ديوانه الثانى الذى أصدره سنة ١٩٤٧ . وفى ديوانه الثالث الذى أصدره سنة ١٩٥٩[١] ، وبين كل ديوان وديوان عشر سنوات تقريبا ، تتبدل فيها الألوان ، فيختار الشاعر من الأول مقداراً قليلا يرضيه ويضعه فى الثانى ، ثم يختار من الاثنين قصائد يضيف إليها ما نظمه من جديد ويجعله الثالث ولكن الواقع أن ديوان عمر يحتاج إلى طبعة كاملة كبيرة ، تضم ما فى الأول والثانى والثالث ، إلى ما أغفله من شعره فى صباه ، مع ما أهمله من مسرحياته فى الطوفان . وفى « محكمة الشعراء » . وفى « ملحمة الإسلام » ، فإذا صدر هذا فى طبعة واحدة فهم عشاق الشعر أىّ ناى كان يغنى خلال ثلاثين سنة وأىّ رباب كان ينطلق خلال أيام النعيم والبؤس ، من أيام الضيق والشدة إلى أيام الوزير والسفير ، وعمر هو هو ، لم يتغير منه إلا لهاث بسيط أدركه فى بعض خطاه . وأناة ركبته فى ساعاته الدبلوماسية . ولكنه ما يزال

(١) الأول ، صدر بحلب ١٩٣٦ بعنوان « شعر » فى ٢٢١ صفحة — والثانى صدر فى بيروت ١٩٤٧ بعنوان « من عمر أبو ريشة شعر » فى ٢٩٤ صفحة — والثالث صدر أخيراً فى بيروت ١٩٥٩ ، بعنوان « مختارات » فى ٢٩٣ صفحة .

فى نظر صحابه ذلك العملاق الذى انطلق من منبج، على «بساط» القرن العشرين بجناحين ركبا من عروبة وكرامة ، وعزة وشاعرية ، وعنفوان وذكاء يطير بهما من أفق إلى أفق ، وهو يطوف الذرى فى الشعر العالمى ، يتعلق فى شعره أبداً بانواع ثلاثة هى : الطبيعة الفاتنة ، والمرأة الخالدة والوطن المقدس ، بل إنه تعلق فى شعره بالمرأة والوطن ورسمهما فى إطار الطبيعة فدخل هذا النوع فى المرأة والوطن معاً ، وسنتحدث عنهما فى دواوينه الثلاثة كأنها ديوان واحد .

المرأة الخالدة :

عاشت المرأة فى حياة عمر بكل عطرها وطيبها ، وعاش شعره يتلفت إلى شذاها وهمسها ، فكان له معها انتصارات كالفتوح ، تركت على هيكله الشاعرى كتابات كثيرة ، كالأساطير فى ملاحم الهوى والحب ، وخلفت فى قلبه وجسمه جراحات باسمة وقاتمة رسمها « عمر » كأمير فى الحب ، وتبع للجمال ، يدل عليها حيناً ، ويتلمس ظلالها أحياناً سعياً وراء الهامها وجمالها ففى ديوانه كما قال مارون عبود « أنين حب جريح . وفيه أهازيج حب مظفر ربح معارك شتى ، وخرج من غبارها غير معوه ولا مهشم ، بجيش كجنح ليل بشار[1]» .

ولقد افتتح ديوانه الأول بمسرحيته «الطوفان» فأدخلنا حانة تحت الأرض فيها السكارى والعشاق ، فقال على لسان العاشق إن الحيـاة جميلة إن أهلها عرفوا مكان جمالها الخلاب ، فراح يشرب ويطرب ويغنى للحسن على وزن جميل محبوب :

كم مرتـع بتنـا به والليل حاك عليه برده

---

(١) مجددون ومجترون ، ص ١٧٦

ولكم أذعت إليه وجدى في الهوى وأذاع وجده
وكم أتكا فوق الزهو ر ومدّ لى باللطف زنده
حتى إذا طوقتــه أدميت بالقبلات خده

وهو فى هذه الأبيات مادى حسى كأكثر شعره فى السن المبتدئة يذيع الوجد ثم يدمى الخد بالقبلات ، ولكنه بعد ذلك يرفع الستار عن لوحة فاتنة فى الغزل يقول فيها عصرت المنى على شفتى فسالت نعيما على أضلعى :

عرفت بك الله بعد الضلال فدل البديع على المبدع
فأصبحت نجوى الهنا فى فمى وسرّ السعادة فى أدمعى
أغنيك حبى وهذا الوجو د ضحوك الثنايا يغنى معى

ونحب أن نقف عند هذه التراكيب ، فقد أطلنا الوقوف عند الصور الواسعة العريضة البعيدة ، فهو يستعمل لغة شعرية خاصة به ، يقول (نجوى الهنا فى فمى) وهى جميلة غنائية ، بل إنها كأختها التى يكررها (منى النفس) فهو يعيد اسمها فى فمه فيذوب الهناء فى ريقه ، ويستعذب تردادها ، وهذا حلو بديع برىء طاهر .

وعمر حين يخرج إلى ساحة الجسد يثير كوامن حواء ، ويكشف عن جمال الصنم فى متحفه الغزلى ، فيقول فى وصف الصدر :

فاسدلى الستر فوق نهدين ضجا واشرأبا كجانحى ورقاء

فهى فى نظره أقوى ما بصدر الوجود ، وأمتع مافى ألواحه من مشاهد ولكنه لا يسترسل كثيراً وراء الغريزة بل يحب لقاء الروح للروح فيقول :

فتعالى نطلق الروحين من صورة الوهم ونبغى ماوراها

كملاكين إذا ما التقيا ماتعدت ثورة الشوق الشفاه
فنعبُّ الكأس ريّاً بالمنى ونبقى فى فم الطهر شذاها

وكأنه يعيش فى أساطير اليونان والرومان ، يتمنى أن يكون ملاكا يرف على ملاكه فلا يتعديان ثورة الشفاه ولا يخرجان عن الطهر ، وكثيراً ما جمع النساء حوله فى أشباح الملائكة ، وهجم عليهن فى مرتع خلوتهن ، كما هجم أمرؤ القيس ذات مرة ، ولكن عمر يهجم فى طهر وخيال . فرسم لوحته الكبيرة روضة كساها الخلود بالشباب ، وجدولا تصطدم فيه المراكب بالمراكب ، وحول النهر بسط العشب قد رصعت بكل عجيب من الشذا والعطر ، وأقبلت كل فتانة عريانة كالدمى فى معبد وألقين برودهن فوق الزهر واستبقن إلى الماء وخوضن فيه ، فتعالت القهقهات تشق أبواب السماء والماء يثب حيناً إلى خصر تلوى وحيناً إلى نهد خفق ، فلما خرجن من الماء وألقين البرود على الأجساد المتبردة ، رحن يغنين ويمزحن ويتقلبن فوق الزهور ، ويعزفن بالناى والمزمار ، برز عمر لهن ! فما عرفن قبله جسد آدمى وأقبلن نحوه يوشوشن ، ويسددن النظر إليه ، واطرحن على الأرض حوله يتحدثن بابتسامة ولمسة ودغدغة ولثمة ، وحملته إلى حجرات الشراب فسالت الكؤس على نغمات الأوتار ، وإذا به يعود إلى آدميته الحيوانية ويقول :

كأنى جريح شديد الظما أكبّ على الأعين الجارية
فأدفع هذى وأجذب تلك إلى قبلات الهوى الدامية

وهذا الحلم الذى قصه الشاعر استقاه من الميتولوجيا ، ورواه بطريقته ليصور ضجره من حواء الأرض ، وشغفه بحواء السماء والأساطير وعرف أن الملل والضجر ساقاه إلى هذه الدمى والصور !

وكثيرة هى صور أحلامه وآماله ، فقد أقبل مرة إلى سريره تخيل إليه

أن « هندا » عادت إليه بعد أن فصم عراها ، وهى منفية حالمة فأقبل إليها ليقول :

فسرت للذة اللقيـــا وللتقبيــــل واللمس
ولمــــا لامست كفى الـ ـرير ضحكت من نفسى
وسالت دمعـــة أودعـ ـت فيها منتهى حسى

وهذه الأشباح التى يرقصها فى شعره ، كانت ترقص فى خياله وهو فى محيط محدود بحلب ، قد ضيق الناس فيه على الناس الخناق ، وراقب السكان أرواح الشعراء ، فباح عمر إلى الأوهام ، ولم يقبض منها إلا هذه الأشباح ، ولـكننا غنمنا منها هذا الشعر الذى يصلح لمسرحية كبيرة فى الهوى ، وملحمة فى أساطير العشق . فيه من براعة اللفظ ونغمة الكلمة ووشى الحرف ما فيه من عطر أخاذ ، فهو يعير كل كلمة صوتاً ولحناً وطيباً ورسماً فيقول فى وصف حسناء حزينة :

أرى بين جفنيك جسر الدموع تسير عليـه طيوف الألم
وألمـــح بسماتك الساذجا ت تذيع وتخفى مشـار النـدم

كأنه يرسم فى متحفه ألواحاً مختلفات لنساء عرفهن ، فيهن العابسة الحزينة والفرحة السعيدة ، ونـكاد نظن أن الحزن قد طغى على أكثر صور النساء فى الديوان الأول ، بل إن أكثر هذه النساء شقى بماضيه ، تعيس بحاضره قد باع أعز ما يملك فهو يقسو أحياناً عليهن بصور مزرية يرسمن بها فيقول فى إحدى هذه الضحايا ، إن عروقها سبل للإغراء النذل لا سبل للدماء الطاهرة ، ثم يجهز عليها بقوله :

لا تقـــولى لقد ظلمتُ فهذى لطخة العار فى صحيفة أمسك
تخجل العين أن تمر عليهـــا وترى خلفها خوالج حسك
أىّ رجس أبصرته وترفعـ ـت عن تعاطيه يا قتيلة رجسك
ارفعى الرأس عن مواطىء نعلى وانحرى الخوف فوق مذبح يأسك

وهذه أبيات صريحة واقعية تصرخ بالقذف واللائمة على هذه الشقية البائسة التى نفض منها الشاعر هواه ، فقد خلفت فى نفسه ندوباً ، وفى وجهه دروباً ، قد خدع بها من قبل ، ويا لشقوة الخادعة لأبى ريشة حين تقع فى شر ريشته انه ليصفعها بقوله :

يا لجهلى فكم لمحت بعينيك حيـــاة عـــلوية الألوانِ
واتخذت العهود منك جناحىّ لأفق عـــذب الرؤى ريانِ
فتصورتُ أننى أصفع الدهر وأجنى من قفره ريحانى
فإذا بى صفر اليدين مكبٌّ فوق أشلاء حلمى الفتان !

إنها شبح من الأشباح التى مرت فى حياته ، ولـكنها لا تعرف الطهارة والصفاء ، ليست كالأشباح الخيالية التى يصطادها ذهنه ، ولـكنها من الأشباح الأرضية التى رافقت سنيه ، فتلفت ليرى فيها خديعة الدهر ، فصورها بما رأينا فى ألفاظ يردّدها عمر كذلك « علوية الألوان ... عذب الرؤى ... أشلاء حلم ... » وهو يعترف بأن شعره فيها ليس كالذكريات وإنما أفاع تفح فى جانبيه وشظايا انتقام رهيب لجر الداء الدوى فى فؤاده ـ كما يقول ـ ولـكنه مع ذلك غفر لها وتمنى أن تعيش ، وأن تتركه يطوى الحياة شقياً !..

وتسوقه قسوة الحب وعنف المحب إلى ذكرى « ديك الجن » وقد أحب جاريته فلما بلغ إليه العجز خاف أن يبقى عليها لغيره ، فذبحها وجبلها وشرب بها كأسه ، وقد أعجب عمر بالقصة فساقها مرة فى الديوان الأول وساقها مرة أخرى فى الديوان الثانى ، كأنها صورة للعنف الذى يحبه عمر فى حبه .

رسم عمر فى هذه القصيدة شباب الفتاة العارم وشيخوخة الشاعر المتهدم :

والنهـــد من لين الشبا ب لقد تحجر واضطرم
ورأيت بى شيخاً هزيـ لا قد تقلص وانهـــدم
إن قام يســـألك العنا ق هـــوى وأقعده الهرم
فوقفت حائرة تعضيـ ـنَ البنـــان من الألم

فهى رود فى سنّ الربيع وعمر الورد وهو قد جاوز الخريف إلى شتاء بارد عرّى الأغصان وكشف عن جفاف مريع ، ولا يلتقى ربيع امرأة وشتاء رجل إلا كان للشاعر فيهما رأى عنيف :

أنا لن أعيش غـــداً فأشبع غادتى الحسناء حباً
من أين والداء العضا ل أقام فى جنبىّ جربا
ومراكب الأيام شقـ ـت جبهتى درباً فدربا

وانتهى الشاعر إلى الذبح فارتوى بضحيته ميتة كما ارتوى بها حية ، وختمت الفاجعه بأبيات تصور بؤس الحياة !.

وما نزال فى رحاب المرأة ننتقل من شقية إلى شقية ، ومن لوحة إلى لوحة ، وفى هذه اللوحة الجديدة مشاهد الحب تترى، من عاشق ولهان وامرأة مخدوعة كالشاة يسمنها الراعى للذبح ، فإذا هى طريدة تشكو ، وإذا هى أفعى تحمل السم إلى كل رجل انتقاماً من الرجل الذى دنسها ورماها :

أرى عنده للانتقام من الورى مناهل تنسى ما أجرع من بؤس
فرب فتى مادنس الخزى قلبه نصبت له سهم الإساءة فى القوس
تمطيت لاستغوائه فتثاءبت بعينى أفواه الدعارة والرجس
وما خف للذات حتى تركته يصارع داء قد تحفز للفرس

ويختم بقوله :

كما النحلة الغضبي لدى وخز خصمها تموت ... ولكن وهي مرتاحة النفس

وعمر فى هذا الشعر التصويرى للنساء يكاد يغوص فى أعماق نفوسهن ، ويكاد يعرف من أمر الشقيات ما لا يعرف غيره ، لحزن عميق طواه فى نفسه ، وأكاد أقول لغيظ دفين هدهده فى ضلوعه فرسم قسوة المرأة بأشد وأعنف ما توصف، ورحم الرجل فعفا عنه فى كثير من صوره. وهو يركب إلى هذا كله سبيل القصة الملونة فى رشاقة وفى خفة ، ويرسم الصور خلالها كأنها شاشة تعرض حياة المرأة فى نواح معينة يغلب عليها البؤس والحزن .

فقد أحبّ الفتى فتاته وهى على أجمل عيون فهى أجمل ما فى الوجود ، وأفقره الدهر ، وأخلق بردته ، وسار يبحث عن رزقه فأخفق ، ومرّ بقصرها ذات يوم كأنه يطلب منها جوداً ، فأحجم ثم أقدم فإذا هى تمضى فى حيرة وقد كحلت عينيها أكف العمى ، فسار لارشادها فظنته خادمها ، فلما عرفت اسمه سألته هل يذكر عينيها فأجابها :

عيونك أجمل ما فى الوجو د لأنك لست ترينى بها !

وهذه اللوحة كأخواتها شديدة العنف كذلك، فيها المحب الفقير المتسوّل، والعاشقة الضريرة المنكوبة ، وكلاهما لفه الزمان بنقمة ، فما يفيده تذكر النعم الخوالى ! ومثلها العاشق الأخرس قدم إلى حسناء يحبها وهى لا تدرى ، فجثا عند قدميها فرمته بدرهم وتوارت فرفع الأخرس رأسه إلى السماء ، وتمتم ما سكت عنه الشاعر ، وسار !

ويتابع الشاعر فى ديوانه الأول هذه الصور الحزينة العنيفة فيرسم صورة لفتاة كانت بارعة الجمال ، فحرمت نفسها ورد الهوى ، وكان إن جاءها لوت جيدها ، فما رثت لدمعه ولا عطفت على جراحه ، فلما انقضى الشباب أقبل يعزيها :

أما الصبا فلقد مرت لياليه فابكيه يا عفة الجلباب فابكيه
ملكت قلبك عن ورد الهوى زمناً واليوم ورد الهوى غيضت سواقيه
بالأمس إن جئت أبدى ما أكابده لويت جيدك عما جئت أبديه
وما رثيت لدمع كنت أذرفه ولا عطفت على جرح أعانيه
واليوم جئتك لا صباً ولا كلفاً بل للجمال الذى يذوى أعزيه

وهذه التعزية القاتلة تمثل عمر وفى يده هذا اليراع يحطم به الأصنام والدمى التى كانت تشيح عنه بصدود ، بل هى تمثل عنفه وعنفوانه فى الشباب ، ونظرته إلى الدمى والتماثيل ، ينحتها بأنامل عبقرية ويريد منها أن تسعى إليه فى طاعة وفى حب وفى اخلاص ، فإذا توسم الشر من تواجدها ومن عينيها أهوى عليها بالفأس ، كما أهوى ميكيل آنج على تمثال لموسى صنعه ، وكذلك يكون الفنان ، يرى الدنيا وراءه تجر ذيل الهوى والافتتان به والتعلق بأهدابه ، لأنها تقدره وتفهمه ، فإذا رأى ازورارها حطمها بريشته ، ونال منها ، فكانت حطاماً !

ذلك فى الديوان الأول والشاعر لم يتجاوز السادسة والعشرين من سنيه فى روعة الشباب ، وملء برديه دم دافق ، وعقل متوثب وخيال جامح ، وقوة عارمة ، فلما انقضت سنين قليلة ، عاد فى الديوان الثانى إلى السخرية من المرأة فقد عرفها قبل عشر سنين مثلا أعلى للجمال ، فلما رآها بعدها عرف أن الجمال أثر بعد عين ، فحسبها كالتمثال قد تحجرت وتغيرت ، فلا هوى ولا دمع ولا ضلوع !

ونظر إلى أخرى نظرته إلى طفل ساذج فوصف عطرها وطيبها ومفاتنها ثم قال :

رويدك لا تزحمى بالرؤى خيالك يا غصة المئزر
أنا حفنة من رماد المنى على مجمر الزمن الأزور
هويتك فى غصة المؤمنين إلى جرعة من فم الكوثر

وفوق جفونى عصاب الذهول فلم أتبصر ولم أبصر
ظلمتك ظلم انهيار الخيال على يقظة الشاعر العبقرى
دعينى وحيداً أزجى الخطى على مخصب الوهم والمقفر

ونحب أن نقف عند التعابير والألفاظ والصور فهو يقول :

« عفة المئزر ، حفنة من رماد المنى .. بحمر الزمن ، غصة المؤمن إلى ماء كوثر... عصاب الذهول» وكلها صور فى كلمات أو كلمات مصورة مجنحة تكاد تنطق وتتكلم ، والشاعر فى عواطفه يقف من عل حيال المرأة كما يقف من الحياة ، فى كبرياء . وإباء ، وشموخ ، يراها صغيرة إذا ما قيست إلى قامته الشعرية الشامخة وخياله العملاق المارد ، فاستصغرها وانصرف عنها ، وهذا يؤجج فى بعض النساء نار الحب بل يستهوين هذا الجموح ! ..

بل إنه يتشامخ حتى ليرى أن ذكر النساء فى فمه رفعة لهن وخلود لاسمهن . أحبته واحدة ، ورأى فى مقلتيها ينابيع سخية خلعت عليه أحلام صباها ، ولـكنه أبى وقال :

عودى إلى دنياك واجـ ـنى زهرها غضاً زكيا
يكفيك منى أن تـكونى فى فمى لحنا شقيا ! ..

ذلك حين قارب الشاعر فى زحفه إلى قمة الأربعين ، والوحى ينثال على يراعته وريشته كما ينثال المطر فى سماء سمحة معطاء ، يتعلق بالروح السامية للشعر ويجد فى المرأة واسطة لوحيه فحسب ولا يجد عندها كل شىء كما كان غيره من الشعراء ، فهى بعض أوتاره فى الغناء ليس غير ، ولذلك كان ينصرف عنها فى سهولة ويسر إلى مشاهد توحى إليه أنغاما وألحانا وصوراً فإذا وقفت فى طريقه واحدة من النساء أحبها فى سرعة وملها فى سرعة كذلك ، كأنه كان يؤمل عندها الإخلاص الرومانتيكى والحب المؤله ، تتغنى به كما يتغنى الوثنى بصنمه ، وتعبده كما تعبد هذا الوثنى آلهه ، فيقدم

له الأكل والشرب وينحر له الذبائح ويستشيره فى كل خطوة من حياته ، فلما كانت النساء فى حياته على غير هذا نقض منهن يده بعد أن خلع عليهن شعره وكساهن ببرد قصيده ، وهذا كل النعيم الذى يخلفه لهن ، وليس هذا بالقليل فهو يقول :

متى قلبي أرى قلبك لا يبقى على عهد
أسائل عنك أحلامى وأسكتها عن الرد
أردت ، فقلت ما أملت من عزى ومن مجدى
فأنت اليوم ألحانى وألحان الدنى بعدى

والشاعر يؤمن بأنه ما غنى شخصاً إلا خلده وأعطاه كثيراً ، وكذلك النساء اللواتى يحظين منه بقصيدة أو أبيات هن الخالدات ، وهذا العنفوان فى شعره هو الفخر الذى كان يسيل على ألسنة القدماء كأبى فراس الحمدانى وعمر بن أبى ربيعة ، وقد نظروا كذلك إلى المرأة نظرة عمر إليها . ولقد وهبته حسناء اجمل لياليه فقال :

حسناءُ هذى كبرياء الهوى أهوت على أشلائه تدمعُ
لن أسأل الكأس على راحتى من يا ترى بعدى بها يجرعُ
حسبي من الزنبق أن لا أرى من أى شلو فى الثرى يرضعُ
فاستمهلى الليل فلى فى غد ما يبعد الظل الذى أتبعُ

وهذه الكبرياء نراها فى شعره كله . فليس بضائره أن يسحبها على قلبه وكبده فى الحب والهوى . إنها فى كل شىء من عمر : فى لفظه المتأنق المتكبر، وفى مشيته المتطاولة للسماء . وفى شعره المتشامخ إلى الخلود . وكأن المرأة زهرة يرويها بيديه ويسقيها بحنانه . ليلة أو بعض ليلة . ثم لا يسأل إلى من تصير ومن يشرب من كأسه التى شرب منها . ومن يشم الزنبق بعده أومن يسقيه إذا ما غاب ، وقديما نظر عنترة هذه النظرة عينها ، فما سأل ولا أعار

غيره أهمية ! . فكأنها ولدت له فعاشت ليلة ، ثم ماتت بعدها ، وليلته هى الخالدة ، والليالى بعدها ظلام يستمر ودنيا تمر ! . .

ولعلنا انصرفنا إلى قصص حبه ، ولم نتلفت إلى صور المرأة عنده ، فى هذه الفترة ، ومن الخير أن نشير إلى بعض هذه الصور ، فقد رسم الصدر وقال :

وصدرك حلمتا قلق تنهدتا على أمن
فسمر فىّ لحظيه وقهقه ضاحكاً منى
وسار كأنما يحمل نعش العمر للدفن
مناىدعى لصحو غدى بقايا الخمر فى دنى

وما نرى إلا أنها صورة جديدة لم يسبق إليها فى العربية ، وهى ابتكار يسرّ له النقاد ويعجب به عشاق البيت الواحد . وهو ينهى حبه فى قصائده إلى النسيان يطلبه إلى العاشقة ويطلبه إلى نفسه ، فقد رد رسائل فتاة أحبته وأرسل إليها يقول :

لننس الأمس ولنسدل عليه ذيل نسيان
فان أبصرتنى ابتسمى وحيّينى بتحنــان
وسيرى سير حالمة وقولى كان يهوانى .

أجل إن « كان » هذه هى كل حبه فيما يخيل للناقد ، أو فيما يريد أن يوهم الناقد ، ولكن هذه الحسان أطبقت صورهن بعضاً على بعض فاختلطت ألوانهن وشفاههن وصدورهن ، وامتزجت كلماتهن فكان منهن المرأة التى لم تخلق بعد لتقف لخيال الشاعر ، هذه المرأة التى تصوغها رؤاه الحالمة منذ الصبا ، وتنحتها أنامله الناعمة منذ فتح قلبه للهوى ، وجسدها خياله الواسع فى عطر بعيد و نغم سعيد ، ولون غير موجود ؛ فهى من الأساطير التى قرأ

ومن النساء التى وصفت له فى الشعر الغربى فارتسمت فى صفحة ذهنه جنية أو ملاكا ، تزوره كلما صعد إلى الأولمب يستوحى ويستلهم ، ويهبط فلا تعجبه إمرأة يزفها إلى شعره فى حب خالد لا انفصام له ، وحنان أبدى لا انقطاع بعده ، فهو يؤمن بتناسخ الأرواح ، وينتظر أن تحل روح النساء الأسطوريات فى امرأة يتغنى بها كل عمره ، ولكنه حتى الساعة ما يزال يحلم بها فى شعره ، وأما واقع حياته فهو فيه سعيد منعم بالملاك الذى يحدب عليه ويرعى خطراته ، ويعطر خطواته ، ويسهر على حياته ، لا يلم بالأساطير فى شىء وإنما هى زوجه ، وتمام عطره وكمال فنه .

وقد بلغ الشاعر من ألواح النساء وصورهن مبلغ الملل فى حياته أو كاد فلم يعد فى الكأس ما يسكره وفى المرأة ما يسحره، فكلهن من الناس بل من حواء هذه التى تدب وتسير وتتحدث ، فيقول :

من ينادينى ؟ وأعراس الصبا   لم تدع فى الكأس ما يسكرنى
أبتول سلها من خدرها   شوقها المخضوب بالحلم الهنى
أم هلوك ألفت روضتها   شفة الساقى وكف المجتنى

أهى عذراء أم هلوك ، أهى حبيبة من كوى الخلد أقبلت تسأل عنه ؟ إنه لا يدرى وقد بلغ من حب المرأة ما بلغ فأصبح يرى الفتاة الحسناء تستمع إلى شعره شاردة ، وهى فى سن الأحلام ؛ أما هو فيزحف فوق الأربعين ، يقول لها بعنوان « مراهقة » :

شئت فغنيت كما تشتهين
وكنت لا تصغين بل تحلمين
يا للأمانى ويا للحنين
حسناء لا تقضى بما تكتمين

ما بيننا قافلة من سنين

أنا السرى فى المنحنى المبهم
وأنت حلم الطيب فى البرعم

مالك أغضيت وأغضى الجمال
فى طرفك الساهى وغص السؤال
من أين ، من أين وبيض الليال
مرت بنعمائى مرور الخيال
لو جئتنى والفجر سمح الظلال

كانت يدى فى حبك الملهم
زرت عرى برديك بالأنجم

إن قافلة السنين تفصل بينهما ، هذه السنين المثقلة بصور الشاعر ورؤاه ومشاهد هواه ، والسنين الخفيفة من عمرها الحالم كأوراق الورد تزداد نضارة كلما مر صباح جديد فى ربيعها هى السنين التى وقفت عمر فى الديوان الثالث (المختارات) عن العبث بها وبمثلها ، بل مرَّ بهن كما مرّ بأخواتهن يمنيهن بالمجد والشهرة والخلود فى شعره ، فكان كموسى الكليم بريشة « ده فينى » يتقدم إليه الحسان فى بسمة الجمال ليرشفن من جلاله وخلوده فحسب ، وينحنين على قدمه إكباراً ، وقد كان من قبل يحيطهن بأيادى النعماء والسرور واللذة ، فما من سبيل إلى العودة والقهقرى ، وهو يعرف هذا من نفسه فيقول فى حسناء تقدمت إليه بدورها فى هذا الجيش اللجب من حسان زرن خياله وسرقن لياليه ووقفن فى دربه :

أحببتنى ؟ أحببت أن تلعبي — وتسحي الذيل على الكوكب !
وتسمعى نجواك مخضلة — على شفاه الزمن الأشيب
أمنية أدركتها فاغرفى — ما شئت من نعمائها واشربى

ولعل الشاعر قد أوقف سيل الحبّ إلى قلبه بعد هذه السنين وركن إلى رفيقة عمره ، وهو يستعيد الماضى فى حنان جميل فقال :

كنا ... وما أوجعها زفرة — مخنوقة البوح وما أحزنا
تأملى لهو الليالى بنا — كيف جنى من روضنا ما جنى
لم يُبق من مجلى تهاويلنا — بين يديه أثراً بيّنا
إذا تلفّت إلى أمسها — لم تعرفى من أنت أو من أنا ؟

* * *

رفيقة العمر جفانى الكرى — فوسّدينى الساعد اللينا
مرى بجفنيك على جبهتى — واستعرضى العيش الفتى السّنا
وسلسليه قصة قصة — وقربيه موطناً موطنا
أريد أن أغفو وفى مسمعى — ما يستعير الحبّ من حبنا

وقد بدأ عمر حبّه بقصيدة سماها « خاتمة الحب » وختم الحب بقصيدة « كنا » فما أحرى الناقد أن يتساءل عن خاتمة الحب فى العشرين ما كانت وعن خاتمة الغزل بعد الأربعين كيف أصبحت ، إنها ديوان وحده ، خصصناه بهذه الصحائف لنصور قصة قلبه فى فصولها ، فكأنها وردة قلبنا أوراقها لحسب ، لنشم العبير لا لنتساءل عن ألوانها ونشأتها وتكونها ، فاكتفينا بالعطر لحسب ولم نقف عند المفردات والصور إلا قليلا لننتقل إلى الحديث عن صور البطولة ، والعنفوان ، والآباء ، وقصة الوطنية فى شعر عمر ، كما تحدثنا عن قصة الحب .

* * *

١ — الوطن المقدس والبطولات

قلنا إن قلب عمر كان يخفق للعرب أجداده ، فيرسمهم فى كل قطر ، ويتأسى لأحزانهم ويفرح لانتصاراتهم ، ويناضل بلسانه فى كل خلجة من من خلجات الوطنية ، والوطنية معنى بعيد عند عمر ، كان يضم اللغة العربية وعلماءها وأدبائها . ويضم التاريخ وصفحاته وأبطاله ، ويضم الحاضر وكفاحه ضد كل مستعمر أثيم ، فوقف لكل كارثة أو مصيبة أو هزة ينشد ويغنى ، وابتدأ يتغنى بالشعراء والأدباء لأنهم تراث الوطن كما رأينا ، ثم راح يغنى بطولة إبراهيم هنانو فى حلب وقد قضى على صرح من العلياء مشيد ، فهو سيف من سيوف الجهاد ، سله الشعب العربى ضد الاستعمار ، فظل يوغل فى جنب الاستعمار ضرباً وطعنا حتى أصابه بجراحات عميقة كان لها أكبر الأثر فى إضعافه ، وإيقاظ النعرة القومية ، والحرية القوية ، فخرج من بلادنا مذموما مدحوراً .

وقف عمر على قبر هنانو والبلد احتشدت حوله ، وأزيز البنادق بأيدى السنغال والفرنسيين يلعلع ، والقتلى يسقطون وأبيات عمر ترددها أصداء حلب يقول فيه :

هنانو أى صاعقة أقضت ... على صرح من العليا مشيد
هنانو ، أى سيف أغمدته ... يد الأقدار فى غمد اللحود
ألا أنظر صحبك الغر الدواهي ... يشدون الأكف على الكبود
رجال لا تلين لهم قناة ... إذا عصف الحديد على الحديد
وأفظع منظر حر جريح ... بكى أسفا على حر شهيد

وهذه الأبيات تكاد تكون مرتجلة ، أوحتها النكبة والفاجعة وهى موسيقية اللفظ ، مفعمة الصورة ، فيها جلجلة ورعود ووعيد وذكرى بالجهاد ، فلما خلا الشاعر إلى نفسه ، رسم هنانو فى قصيدة أخرى

أعاره فيها بطولة « طارق » فوق الجبال الشم ، وكساه أمجاد خالد بن الوليد ، ثم قال :

وهنانو بين النثير من الأشلاء فى عاصف اللظى والثبور
وحواليه حفنة من رجال ثروة الموطن السليب الفقير
تتهاوى كالشهب من كبد الجوزاء فى لجة الظلام الضرير
كل حر كأنما دم ابراهيم يجرى من شلوه المنثور
هكذا تمهر العلى ببساط من دماء وقبة من قبور

فعرض لأصحاب هنانو ورفاقه فى الجهاد ضد الغاصب ، فإذا هم كالشهب وإذا هم يمهرون العلى بدمائهم ، فيتلون بساط الأرض ، وتنتثر القبور . وشاعرنا فى هذا يختار للبطولة ألفاظاً تناسبها ، تختلف طبعاً عن تلك التى استخدمها فى وصف قلبه وحبه ، ثم يصف شخص البطل نفسه ؛ فيناجى بلاده متسائلا :

أنت أدرى هل داعبت شفتيه رعشة من هناءة وسرور
أتخلى عن مسمعيه بكاء النبل من بغى حاكم أو وزير
حسرة المجد رافقته إلى القبر وهزت من منكر ونكير
يا زعيمى ، ياقبلة فى فم الفخر وبجلى إكليله المضفور
قبس أنت فى الحياة وفى الموت على ساحل العلى المهجور
قل لمن يعشق الحياة على الذل ويخشى بروق عمر قصير
النواعير تنفث الفجر القاتل ما بين دمعها والزفير
سئمت عمرها الطويل فما تندب إلا خلودها فى الدهور !

وتساءل الشاعر عن حياة البطل فرأى أنها حزن وهم فى سبيل بلاده لم تداعب شفتيه رعشة من هناءة أو سرور بل رافقته حسرة المجد إلى القبر ، فزعيمه قبلة فى فم الفخر ، وبجلى الاكليل المضفور ، وهو قبس فى الحياة

والممات ، ثم ضرب مثلا للسواقى التى تدور وتدور فتسأم حياتها على الدهر وهذه الصور المتلاحقة ينضم بعضها إلى بعض فى خفة كأنها عسكر يزحف فى موسيقا متزنة من ألفاظ ماجدة قوية ، لا نكاد نجدها إلا عند هذا الشاعر الفحل .

فلما قضى فيصل الأول رثاه الشعراء السوريون كما رأينا ، ولكن عمر دخل فى رسم ذكراه على جسر من الصور ، فوصف الشرق وجراحه الداميات وما يتحمل من نكبات ، ثم عرض لفيصل ، فقال إن المسامع ما تزال تعى نوح المآذن وضجيج النعاة ، حين دفن العرب أمانيهم بموته ، فهو من الصحراء ، ونسل الصحراء رفيق العلى والأباء ، وعلى رملها الممرّد قامت النبوة العصماء . ونلاحظ أن عمر يعود دائماً إلى بطولة النبى ونشأته ليربط بينها وبين بطولة كل عربى يتحدث عنه ، فعل ذلك فى هنانو وفى فيصل وفى غيرهما !

وشاعرنا لا ينسى فى كل مناسبة أرض فلسطين واليهود يعيثون فيها ، وذلك منذ سنة ١٩٣٥ قبل ثلاثة عشر عاماً من ضياعها ، فقد ارتبطت هذه الأرض بذهنه كما ارتبطت الصحراء ، وهو من كليهما مجداً ومحتداً ، فأبوه من العرب الأقحاح وأمه من الأرض المقدسة — كما قلنا فى مفتتح الحديث عنه — فهو يثير الحماسة لا تقاذها أبداً .

ويعجبنى هذا الأكاليل يضفره الشاعر بشعره ليقدمه إلى فيصل :

أنت فى هيكل الحياة كتاب   تتغنى بآيه الأحرار
وتناغى الأم الرءوم به الطفـ   ـل فيزهو فى وجنتيه افترار
كل سطر فى دفتيه نداء   صارخ ماله الزمان قرار
يلعب الرجع بالقلوب فيغلى   بالدم المجد والعلى والفخار

فهو يراه كتاباً تترنم به الأمهات أغانى لأطفالها ، وفى كل سطر من

سطوره نداء لا يهدأ ، وثورة تبعث المجد والعلى والفخار ، وتثير الدماء فى القلوب. وكذلك يكون التقديس والإكبار ! وكذلك يكون الشعر الثائر فى ظل القيود والاستعمار والسجن والتهديد وكذلك تكون رسالة الشاعر فى بعث الحماسة والقوة من غير خوف أو جبن ، قبيل سنة ١٩٣٦ ، والمدافع فوق كل رابية ، والعيون عند كل باب والسجن مفتوح لكل حر ، وشراذم السود تخطر فى الأسواق ، وسوط الحاكم يهدد الأحرار. وقد صور عمر الشعب السورى آنذاك فقال :

تمـــشى على ثراك وللقيـ ـد عويل فى مسمع المجد زائر
ورسوم الأقدام تبكى العبو ديات فيها وتستثير المشاعر
إنه الدهر كم يريك عــزيزاً جدعت أنفه الصروف القواهر
ما حملنا ذل الحيــاة وفى القو س نبال أو فى الأكف بواتر
يصفع الذئب جبهة الليث صفعاً إن تلاشت أنيابه والأظافر

وكذلك أسود بلاده قد تحملت ذل الانتداب لأنها لا تملك السلاح النافع . لذلك نادى رجال بلاده أن ينهضوا لدفع الأذى والذل ، وأن يعمدوا إلى القوة فليس فى الشكوى نفع عند الجائر المستبد.

وظل الشاعر يقوم برسالة الشعر الصحيح فى إثارة القوة والنضال والتماس الحرية ، خلال عشر سنوات منذ صدر ديوانه الأول ، لم يقف ولم ين ولم يسكت ، فوقف فى حفلة الذكرى لابراهيم هنانو ، كما وقف زملاؤه الشعراء ، وأرسل الصور فى الوطنية والكرامة ، فرسم وطنه على أجمل ما يرسم الوطن سنة ١٩٣٧ :

وطن عليه من الزمان وقار النور ملء شعابه والنارُ
تغفو أساطير البطولة فوقه ويهزها من مهدها التذكارُ

فتطل من أفق الجهاد قوافل مضر يشدّ ركابها ونزارُ
تستيقظ الدنيا على تزآرها وتنام تحت لوائها الأقدار

وهنا جمع الشاعر الماضي إلى الحاضر ، وفى الماضى وقار التاريخ ونور الأمجاد ونار الثورات ، وأساطير البطولة تكسو الجدران وتفرش الأرض ، ومن خلف الجبال قوافل الجهاد تطل على العرب فتذكرهم بما كان لهم ، وتوقظ فيهم حمية الجهاد ، فتهتز الأقدار وترتج الدنيا بالثأر . وينتقل الشاعر بعد الماضى إلى ذكرى هنانو ، فهى عرس المجد لم يكسر له دُفّ ولم يتحطم مزمار ، والضحايا ماتزال تسقط ، والدم ما ينفك يسيل ، وعلى الضحايا تبنى الصروح المشيدة للاستقلال وبالدم تكتب صحائف المجد . ويتلفت الشاعر إلى العرب القدماء ، ثم يميل بطرفه إلى القدس فيقول :

والقدس ما للقدس يخترق الدما وشراعه الآثام والأوزار
أىّ العصور هوى عليه وليس فى جنبيه من أنيابه آثارُ
عهد الصليبيين لم يبرح له فى مسمع الدنيا صدى دوّارُ
صفة الملوك فما استباح اباؤهم شرف القتال ولا أهين جوارُ
ناموا على الحلم الأبىّ فنفرت منه الطيوف بنوّة فجّارُ
صلبوا على جشع الحياة وفاءهم ومشوا على أخشابه وأغاروا

والشاعر يستمد من الماضي مادة فخره وعبرته ، فيروى أمجادنا حين أقبل الصليبيون ، فخلفنا فى مسمع الدنيا صدى لا يمحي ، واليوم مدّ الصليبيون أنفسهم يدآ لشراذم أمة منتنة لفظتها الشعوب والأمصار ، ورموا بها البلد الحرام كما ترمى البحار شطئانها بالجيفة بعد الجيفة ، وهل يبنى من الجيف وطن ، إنها يجب أن تعود إلى الأعماق تبتلعها فى البحار الأشداق .

واستجاب الله لثورة الشعب العربى فى سورية ، وتحققت آمال الشاعر ،

وذهب الاستعمار إلى غير رجعة ، فوقف عمر بحلب فرحاً بجلاء الغاصب يقول فى سنة ١٩٤٧ :

ياعروس المجد تيهى واسحبى   فى مغانينا ذيول الشهب
لن ترى حفنــــة رمل فوقها   لم تعطرّ بدما حرّ أبىّ

وذكر الشاعر مهر العلا ، وما دفع الشعب من ضحايا ثمناً للجلاء ، وطلب إلى فيصل أن يطل من عليائه ليرى كيف انتقم العرب لميسلون وغدر المستعمر فيها . ثم تلفت إلى القدس التى لا ينساها أبداً فى شعره :

ما لأبناء السبايا ركبوا   للأمانى البيض أشهى مركب
ومتى هزوا علينا راية   ما انطوت بين رخيص السلب

. . . .

ياروابى القدس يامجلى السنا   يارؤى عيسى على جفن النبى
دون علياتك فى الرحب المدى   صهلة الخيـل ووهج القضب
لمت الآلام منا شملنا   ونمت ما بيننا من نسب
فإذا مصر أغانى جلـّق   وإذا بغداد نجوى يثربِ
ذهبتْ أعلامها خافقة   والتقى مشرقها بالمغرب

ونرى أن الشاعر حين اطمأن إلى استقلال بلاده ، راح يثير الحماسة لإنقاذ فلسطين ، ثم طفق يدعو لجمع الشمل والوحدة العربية الكبرى فى أسلوب جميل أخاذ ، يركب إليه على ألفاظ مختارة عذبة جميلة التصوير .

ولعلنا نذهب بعيداً فى إحصاء ما كان من عمر فى حلبة الوطنية والجهاد ، فقد عاش على الفخار والآباء ، وأراد لبلاده الفخار والإباء ما هان لغاصب ولا رضى عن منتدب ، وإنما حمل نايه فى كل معترك يغنى المجاهدين ، ويثير

المقاتلين بصور دافقة يغذيها بآلام الحاضر وآمال المستقبل ، ولكننا نريد أن نمضى فى الحديث عن البطولات التى رسمها لنعرف نظرته إليها وطريقته فى تقديم الأكاليل الشعرية بين يديها ، لقد كان يكره الرثاء لأنه بكاء ، فكان يستعيد ذكرى الزعماء فى الأدب والتاريخ والسياسة بصور شامخة تبعث الإباء فى الجيل ، وتدفعه إلى أن يفيد من دروس الأبطال فى القديم والحديث .

رأينا كيف رسم هنانو ، وفيصل الأول ، والجلاء ، وأحداث زمانه ، وسنرى كيف رسم البطولات العربية ، فعرض للنبي الكريم ، وصور خالد ابن الوليد ، وهما من ملحمته الكبرى التى يعدها فى ستة آلاف بيت عن الإسلام، تمخض بها صدره منذ زمن بعيد، وما تزال تعتلج فى ضلوعه ، فهو معجب بالأبطال والنوابغ ويقف عدهم ليشرب من حياتهم كما يقف الصادى فى الصحراء عند ينبوع ماء نمير ، وبطل الأبطال عنده هو الرسول الأعظم .

وقد خصه فى ديوانه بالذكر لصدر كل قصيدة فى البطولة ، ووقف له قصيدتين طويلتين ، أولاهما تحدث فيها عن قريش حين أرادت أن تصد النبى عن الرسالة ، وروى قصة الشباب والنضال . وعرض للغزوات والوقائع ثم بسط النصر والفوز :

ياعروس الصحراء ما نبت المجـ ـد على غير راحة الصحراء
كلما أغرقت ليـاليها فى الصمـ ـت قامت عن نبأة زهراء
وروتها على الوجود كتاباً ذا مضاء أو صارما ذا مضاء
فأعيدى مجد العروبة واسـقى من سـناه محاجر الغبراء

ونحب أن نذكر هنا بعشق الشاعر للصحراء وإيمانه بما تنبت هذه الصحراء فهو عربى النجار يحن إلى ذراتها ، ويرى لها مجداً هو مجد العروبة الخالد . وفى القصيدة الثانية يناجى الرمل الذى انطلقت عليه سرايا العرب فيقول:

فأقبلت سروات العرب خاشعة   تجلو بإيمانها عن دينها التهما
وتحمل الشهب فى راحاتها قضباً   والخيل تعلك فى أشداقها اللجما
وأحمد يتلقاها وبسمته   ترد كل فم للمجد مبتسما
والفتح يغمزها حتى إذا وثبت   لم تبق فى الشرك لا عرباً ولا عجماً

ونحن نعرف من سيرة شاعرنا فى لندن تعلقه بالإيمان وحبه للنبىّ والإسلام ، ونراه على الأيام معجباً ببطولة العرب وبطلهم النبىّ الأعظم . وعلى الرمل نفسه درج خالد بن الوليد فكان الفتح والنصر ؛ يقول فيه :

نفحات النبى والفتح   والعلياء والعز والندى والبيان
رعشات فى أضلعى ماجت الصحراء فيها وماج فيها افتتانى
صدق الحبّ إن موطنى الأجرد   روضى وجدولى ودنانى
ينبت المجد قبل أن ينبت الورد   ويعطى الثمار قبل الأوان

وهذه الأبيات تظهر مصداق ما كنا نرمى إليه من حب الشاعر للصحراء وإيمانه بها ، يعترف به هو نفسه ويرى هذه الأرض الجرداء خيراً من كل أرض فى الدنيا . فإذا بلغ إلى وصف خالد قال :

صدق العهد فالفتوح توالى   وصدى خالد بكل مكان
أينما حلّ فالمآذن ترجيع   أذان المهيمن الديان

وهذا منتهى الإيمان والاعتزاز ، يجريهما عمر فى شعره كما أجراهما قبله الشعراء ، ولكنهم لم يقولوا كما قال :

وضلوع اليرموك تجرى نعوشا   حاملات هوامد الأبدان

فهى صورة موفقة فى اصطياد اللفظ والخيال جميعا ، ترتفع إلى مستوى الصورة الشعرية المثالية ، بل هو فى كل صور القصيدة يرتفع إلى مقام الملحمة الخالدة فيقول :

يامسجى فى قبـة الخلد ياخا لد هـل من تلفت لبيانى ؟
لا رعانى الصبا إذا عصف البغى وألفى فمى ضريح لسانى
أقسم المجد أن أقطع أوتارى عليـه بأكرم الألحان
أنا من أمة أفاقت على العـز وأغفت مغموسة فى الهوان
عرشها الرث من حراب المغيـ رين وأعلامها من الأكفان
والأمانى التى استمانت عليها واجمات ، تكلمى يا أمانى !

وهذه الأبيات أجدها فى منتهى الروعة والتأثير ، فما أنفك أرددها كلما عنّ لى الشعر الجميل على بال ؛ فهى تعبق بالصور المزدحمة ، وهى هى الشعر بألفاظها الحلوة العذبة الموسيقية التى تنسال مع الصور ، فكأنها ناطقة بالمشاهد والألوان والأصوات . وما أجد من التعابير المصورة أو الصور المكتوبة ما يضاهى الصور هنا ، فلن يموت لسانه فى الكوارث والملمات ، وهو من أمة باكرها المجد فأغفت اليوم فى الهوان ، وعرشها من حراب المغيرين وأعلامها الأكفان ، إنها صورة الأمجاد الضاحكة وقد ذهبت عنها الابتسامة وغدت تنظر إلينا واجمة من حالنا الذى وصلنا إليه ، وكل ديوان عمر ماض وحاضر كأنه يثيرنا للعودة إلى الماضى إلى خشونة البيداء وعظمة الصحراء وأن ننتفض انتفاضة الاباء ، لنحلق فى سماء الدنيا نسوراً تخافها الطيور وتحسب لها ألف حساب .

وإذا كان قد رسم النبى الأعظم وخالداً الفاتح فى العظماء ، فقد رسم المتنبى والمعرى فى الشعراء ، فهو يعجب بالعظمة والقوة والاباء ، ويحب الفتح والنصر بالسيف والقلم جميعا ، وينحنى أمام البطولات العربية البدوية فما ينصرف عن النبى والعرب إلا ليعود إلى النبى والعرب ، وما تزال صوره القديمة فى رسم النبى الأعظم موضع الاكبار والذكرى ، فهو يقدم أبداً لموضوعاته بوصف أمته فى الصحراء فيقول :

أو قفى الركب يارمال البيد ... إنه تاه فى مداك البعيـــد
ظمئت نوقه وجف فم الحا ... دى وغصت لهاته بالنشيد
والأشـــداء يلهثون كخيل الـ ... ـغزو عادت من يومها المشهود
عصفت فى جفونهم ريحك الـ ... ـهوجاءوالشمس عربدت فى الخدود
والصبايا من الهوادج ينظر ... ن إلى الأفق نظرة المفؤود
ليس يبصرن منك غير هضاب ... فى هضاب مبعثرات الحدود

وهذه اللوحة للصحراء ، تصورالرمل ، والحادى والراكب والفرسان ، بألفاظ حملها عمر فوق ما كانت تحمل الألفاظ، فأصبحت ترى وتسمع وتعبق بالطيب وتتكلم . والأشداء كخيل الغزو عادت من يوم المعركة ، وعصفت الريح فى الجفون وعربدت الشمس فى الخدود ، إنها الصورة الناطقة فى الشعر ، لا تزيد كلمة ولا تتكلف ، بل تنساق فى شعر موسيقى مصور ملون ، فإذا عرض لآية النبوة قال فى الطفل :

صبها قبـــلة على فم طفل ... قرشى النجار سامى الجدود
وحواليه من حمام الفرادي ... س حسان مرنحات القدود
ساحبات بيض البرود كما لو ... جمد النور فوق تلك البرود
يتزاحمن واثبات ويلثم ... ن من الشوق مبسم المولود
فإذا بالسماء تهمى تسابيح ... وتدوى أصداؤها فى الوجود
وإذا الـكون بعد عيسى تعرى ... نصب عينى محمد من جديد

أرأيت إلى الوحى كيف صب فى فم الطفل وقلبه كما تصب القبلة، وشهدت الملائكة تحيط بالرسول فى برود جمد النور عليها ، والسماء تهمى تسابيح ، والدنيا تتعرى لعينى النبى من جديد . إنها صور لا يدركها ناثر فى تعابيره ، فما نستطيع أن نحللها أو نبلغ إلى مسايرة روعتها وإنما نشير إلى جمالها كما يشير دليل المتحف إلى عظمة الصور ، وهذا كل ما نفعل أمام الالهام المجسد والخيال المصبوب فى قوالب عبقة عطرة ساحرة .

وإذا انصرف الشاعر عن النبي قليلا، فذلك لكي يمجد البطولات الأخرى، فهو يعجب بعنفوان المتنبي ، منذ صباه ، رسم له في مطلع شبابه صوراً لا تنسى ، ولعله نظر إليه أول الأمر نظرة مطلقة ، وصف فيها الشاعر شاخص الطرف محـــدقاً في الفضاء يرقب الفجر ، وتخفق جوانحه بالحب وبعينه بريق من شعلة الروح ، فإذا هبط السهل وقد حل الظهر واستوت الشمس في السماء واختلفت إلى قلبه الصور والمشاهد :

صور أفرغت على أذن الشاعر نجـــوى علوية الايحاء

وإذا ماتت الشمس كان مأتمها في نظر عمر مأتماً بارعا كذلك يوحي إلى الشاعر ألوانا مثيرة فيضرب على الوتر الشادي أهازيج روحه الشماء وانثنت إليه الذكريات تتراقص في خياله ، وانهالت عليه صور الشعب العربي فاجتمع ذلك كله في لسانه فأنشد الشعر ، وهنا يقول عمر فيه :

غمر العرب سحره الفاتن البكر وناداهم بخير نداء
فيه من غضبة الإباء على الضيم وفيه من بسمة العلياء
يحبس الدمعة التي سكبتها في سخاء محاجر البؤساء
صقلته أنامل (المتنبي) فإذا الشعر مستقر الأداء
بدوى لين الحضارة في برديه ناجى خشونة البيداء
حضنته العلياء طفلا وكهلا وغذته بأكرام الأثداء
فتهادى يختال في ظلمة الأرض وعيناه في ذرى الجوزاء
غزة تدفع الجبان إلى الثأر فيمضي للغارة الشعواء
وطموح بجنح يترك النسر كسيحاً في زحمة الأنواء
عرفت روحه السراب ولكن خادعت روحه بروق الرجاء
يطأ الشرك فوق درب أمانيه ضحوكا من غائل الأرزاء
إنما ضللت خطاه الليالي والليالي عداوة العظماء

ونحن حين سقناهذه الأبيات كلها ، لم يغب عنا أنها صورة للمتنبي رسمها عمر ، ولكنها صورة عمر بريشة عمر نفسه ، فقد نظر إلى المرآة كما ينظر الفنانون ورسم نفسيته وروحه ، فعرفنا فيه اللون الذى يحب من الشعر والشاعر الذى يقدس بين الشعراء ، وفهمنا كيف يريد أن يكون ، فإذا به يجعل شعره غضبة الإباء على الضيم وبسمة العلياء ، فهو بدوى لين الحضارة فى برديه ناجى خشونة البيداء ، وهذا الذى قلناه منذ بدأنا الحديث عن نسبه وخلقه فهو بدوى أبداً لا يستنيم لضيم ولا يخضع لقاهر ، ولا يسكت على ذل ، وهو فى طموحه المجنح يعلو على النسر بل النسر فى دربه مثل كسيح فى زحمة الأنواء التى يصارعها ويصرعها ، فكم عرف السراب وكم خادعت روحه بروق الرجاء . وهو قد وطىء الشوك فوق دروب أمانيه ضاحكاً من غائل الأزراء ، فقد مرت به أزمات عنيفة ، حين قال هذه القصيدة سنة ١٩٣٥ ، وقبل أن يقولها ، ولكن رأسه ظل مرفوعاً أبداً لا يلين ولا يطاطىء ولا يهتز ، بل ظل فى عناده يصفع الضيم ويطوى الضراء بالضراء كعقاب حلّق فى السماء والرعود تجأر حوله ، والسحب تهاوى ، ولكنه نفذ فيها نفوذ السهم ، فأخفقت الرعود وفشلت السحب وظل هو فى قامته عملاقاً يسخر ويهزأ ، على الرغم من جراحه الآبية ، لا يسأل عمن يرقون إلى مراتب الأدب من أقزام القلم والبيان ، ولكنه تحسس جراح الكبرياء ، وتألم لانصراف الحكام ومن إليهم عن تقديره فقد كان الشعر على الأفواه المذبذبة رهيناً بتقديسهم ، لكنه وحده وقف فى زحمة الشعراء عالى المناكب يناهض الأنواء والدسائس بعيداً عن التكريم الرسمى حتى كاد يضيق بالعيش ، فاجتز من قرارة نفسه صورة للتكريم العبقرى ورسم حاله فى قصيدة تعد من أروع الشعر المعاصر ، فعرض لوحة لنسر جائع راحت البغاث تسخر منه فاذا به ينهض للسماء ويعود جثة هامدة منتحراً ، هذا النسر هو الشاعر نفسه صور حاله آنذاك بقوله :

أصبح السفح ملعباً للنسور ... فاغضبى ياذرى الجبال وثورى

ان للجرح صيحة فابعثيها   في سماع الدّنى فحيح سعير
واطرحى الكبرياء شلواً مدمًى   تحت أقدام دهرك السكير

فالنسر لم يعد يكحل جفن النجم بريشه المنشور ، هجر الوكر وعلى عينيه شيء من الوداع الأخير ، ثم هبط إلى السفح فتبارت عصائب الطير حوله بين شرود ونفور ، خائفة مذعورة ، وهى لا تعلم أنه مدمًى جريح جائع . فلما أحس النسر بحاله سرت فيه رعشة من جنون الكبر واهتز ومضى ساحباً أنقاض هيكله المنخور ثم اجتاز الغياهب فى الأثير فلم تحمله ضلوعه ولم تقو على الجو والأنواء فهوى جثة فى حضن وكره المهجور ، وهنا صاح عمر متسائلا :

أيها النسر هل أعود كما عدت   أم السفح قد أمات شعورى ؟

وكان الجواب على سؤاله صرخة دوت فى مسمع الأدباء والحكام على قصيدة أرسلها يسخر من حكام ذلك الزمن ، ويصور لهم ما جنت أيديهم على فلسطين والوطن العربى كله ؛ فصاح فيهم :

ودعى القادة فى أهوائها   تتفانى فى خسيس المغنم
رب وامعتصماه انطلقت   ملء أفواه الصبايا اليتم
لامست أسماعهم لكنها   لم تلامس نخوة « المعتصم »
أمتى كم صنم مجدته   لم يكن يحمل طهر الصنم
هل يلام الذئب فى عدوانه   إن يك الراعى عدو الغنم

وكانت هذه الصرخة مدوية فى أسماع الجبناء فتداعوا ، وانهدت أركانهم ، فشقت سبيل الشاعر إلى الظهور ، وكسرت القيود المصطنعة ، فأعطى الرجل بعض مايستحق ، وكان وزيراً فى البرازيل وغيرها يمثل بلاده أشرف تمثيل حتى الساعة ، فى إباء وعنفوان ورجولة وشاعرية تشهد له بها هيئات عالية وشخصيات غربية فى كل مكان زاره[1].

---

(١) أصدر الشاعر أخيراً شعراً باللغة الانكليزية فى ديوان يرفع للعرب شأناً ودعاية

ولم ينصرف الشاعر عن مهمته القدسية فى تكريم الأبطال وفى رسم الطريق لأمته ، وفى التغنى بأمجادها ، بل كان كالبلبل لا يطيق الصمت ولا يسكت عن التغريد ، فأرسل ديوانه الثالث فى مختارات هى بعض شعره الكثير ولكنها مختارات تدل على ماوراءها ، فنظم فى هذه السن وقد قارب الخمسين شعرا يدل على عمق تفكير وروعة تصوير ، وريشته ماتزال تلك الريشة القوية الملهمة ، فرسم معبد كاجوراو فى الهند رسماً بارعاً يفتتحه بقوله :

من منكما وهب الأمان لأخيه أنت أم الزمان

وما نظن أن هذا المعبد العظيم حين صوره عمر أقرب إلى الخلود من شعر عمر ، فنتساءل معه من الذى وهب الخلود للزمان أهو شعر عمر أم الزمان ؟ ! قد ينقضى الدهر بأيامه الفانية ، ويبقى شعر عمر برناته الخالدة ونغماته المصورة وظلاله المفعمة ، ويبقى رثاؤه لأبيه ، ورثاؤه للعظماء كفيصل وأبى العلاء بل أستغفر الله تبقى ألواحه فى ذكر هؤلاء خالدة فى متحفنا الأدبى أبد الدهر ، ترجو من الشاعر المزيد ، وتتلفت إليه كلما تغنت بشعر ، وتغنيه كلما رتلت قصيداً ، فهو قصيدها وشعرها ، بإبائه وعنفوانه ونفسه وسيرة حياته .

ومعذرة الشعر والقوافى إذا نحن وقفنا منها فى إيجاز مخل لم نبسط صوره كلها ولم ننشر عطره كله ، بل اخترنا منه ما يقوم بأمر محاضرات لم تشأ أن تخرج عن حدود التبسيط والعرض ، فللدراسة العميقة والتحليلات الدقيقة مكان آخر نرسل فيه القلم طليقاً لنوفى به هذا الشاعر وغيره توفية تدفع بعض اللوم عن تقصيرنا فى هذه الصفحات . والكمال لله وحده .

مختـــارات

من شعر عمر أبو ريشة

حنى الدين الحنيف الراس حزناً

في رثاء مصطفى نجا

ركضنا فى الحيـــاة وما وهينا ، ونازلنا الخطوب وما ونينـا
وما زالت تخادعنـــا الأمانى وما زلنا بهـا مستعصمينا
رأينـــا أنس موردها سرابا وذقنا كأس لذتها وزينـــا
ولم نبرح نشيد لها وتعلى ونسعى حول هيكلهـــا سنينا
وما فى الأمر من جهل ولـكن تجاهلنا وسرحنا اليقينـــا
يحب المرء أن ينسى الليالى فيغضى عن حقيقتها العيونا
لحاك الله يادنيا فناء ألا تقضين فيما تـكتمينـــا
نرى لك فوق هام الخلق كفا مخضبة وقرضابا سنينا
ولو تدرى أكفك حين تهوى أشوكا قد رمت أم ياسمينا
أأم العالمين ذرى الرزايا لقد حق الحنو على البنينا
ترين على الورى بانات عزم ويأمرها نداك فينحنينا
رويدك أعرضى عنا وخلى بقايا الطعنة النجـــلاء فينا
ألا يا « مصطفى » لاكان يوم به تبـكى عليك المسلمونا
نفضت من الحياه يدى رجاء وقلت له اخدعى من تخدعينا
كأنك كنت لقماناً عليها طعنت من السنين بهـــا مئينا
حنى الدين الحنيف الرأس حزناً كما يحنى الرؤوس العابدونا
وقد عصب الجبين لمـا دهاه فيالله مذ عصب الجبينـــا
وما لانت له يوما قنـــاة ولـكن خاف بعدك أن تلينا
رفعت به إلى أوج الـــثريا فأشرق فتنة للناظرينـــا
وسال على صحارى العيش نبعاً فطابت أزهرا وزهت غصوناً
ولاح إلى الورى بنيان حق أقام الخلق حائطه المتينا

---

(١) أكثر الشعر الذى نرويه فى هذه المختارات هو من شعر الشاعر فى صباه وشبابه ، لم يثبته الشاعر فى دواوينه الثلاثة ، ولـكننا أوردناه لنرسم مراحل الشاعر كاملة

وما الإسلام إلا جسر فضل تسير على ثراه العابرونا
وما الإسلام إلا برق هدى وقطرة رحمة للعالمينا
فان طعن الحسود به فعذرا فقد كره الثناء الحاسدونا

* * *

ألا يانازحا عنا لدار تربع فى ذراها المرسلونا
مشى بك نحوها نعش طهور تحف به الملائك أجمعينا
وسار كمركب عرف الشواطى وخلف رمالها ضرب الظنونا
فصف ما شاهدت عيناك فيها وحدثنا فانا منصتونا
فما زالت تساورنا شكوك ولو كنا بذاك مضللينا
وما حملت يمينك من كتاب به تلقى آله العالمينا
أرى عنوانه الإيمان صرفا وألمح سفره الصدق المبينا
مثال من مرؤات كبار إذا مازال باعثها بقينا

* * *

أقر الله عينك من جنان تضم حيالها حوراً وعينا
وتسعى فى خمائلها جموع سمت فى الأرض أخلاقا ودينا
على لهواتهم انجيل عيسى ومصحف أحمد ما يقرؤنا
وكل من بنيها الغر موسى وكل من رباها طور سينا

* * *

كرام العرب صبراً كل حى سيثوى فوق ترب الهامدينا
وكل مصيبة مهما ادلهمت على غير التصبر لن تهونا
تناسوا إمرة الدنيا فانا إلى الديان يوما راجعونا

لندن ٢٥ فبراير ١٩٣٢

خاتمة الحب

سطر الحب للورى ... من دمى آية العبر
آية صورت على ... لوحها أحزن الصور

شمس حزنى قد استوت وعجيب ... أن أرانى أعيش من غير ظل
أبصر الدهر ناشراً سفر عمرى ... ولسان الآلام يقرا ويملى
طعنة إثر طعنة إثر أخرى ... نثرت هذه الحشاشة حولى
فتأملت فى الحياة وفيما ... كنت أبنى على الخيال وأعلى
فإذا مورد النعيم سراب ... وإذا حائط المنى فوق رمل
هذه سلوة الفؤاد تلاشت ... فحرام على فؤادى التسلى
يابقايا الأحلام فى جفنى التا ... ئم اخلى مقرك اليوم اخلى
يا سراج الآمال قد نضب الزيـ ... ـت فبدد هذى الخيوط وأبلى
يافؤادى دع الوجيب لأفرا ... فوق رأس الحبيب سورة ثكلى
ياعيونى دعى البكاء فصعب ... أن أراها وأدمعى فيك تغلى

عدت للحب والهوى ... يامنى السمع والبصر
ولبانات خافقى ... بين جنبى تستعر

حملتنى إليك أجنحة الحب ولما أبال بالأهوال
كلما لاح لى السبيل كؤودا ... هونت صعبه بروق الوصال
ياوصال الحبيب فى مخدع المو ... ت تصرف بهذه الأوصال
عفة البرد ما عهدت بك الصمـ ... ـت قبيل اللقاء فى كل حال
طوقينى بساعديك فلا خو ... ف علينا من أعين العذال
ما أرى الموت مطفئاً شعلة الحسـ ... ـن ولا بالمزيل سحر الجمال
جفنك اليوم مثل جفنك بالأمـ ... ـس كساه الفتور يتم المثال
فكأن الأغماض فيه نعاس ... أو حياء أو نشوة من دلال
زادك الموت فوق حسنك حسنا ... وكساك ببردة من جلال
مثل ورد يرف بعد قطاف ... وشهاب يشع إثر زوال

إيه يا نفس فاصبرى يرحم الله من صبر
ما أرى البث ماحيا أسطراً خطها القدر

يا نؤوما ألا ينبــه جفنيك بكائى وزفرتى واضطرابى
كنت إن هينم النسيم تهبيــن وطيف الأحلام فى الأهداب
أعشقت المقام فى عالم الروح ولما تفكــرى بإياب
لو تعذبت فى الحياة لقلنا لم تطق نفسك احتمال العذاب
أى أمر يابنت سبع وعشر حث منك الركاب نحو الغياب
فتناسيت أربعــا وغراما وجموع الأحباب والأصحاب
اسمعى صرخة الشباب أما فى قلبك اليوم رحمــة للشباب
أحتسى الكأس من عصارة نفسى حين أفنيت أكؤس الأوصاب
وبرانى الشراب حتى لو انى جئت ربى ما اسطعت حمل كتابى
زودينى بقبلة منــك تبقى فى فمى بسمة ليوم الحساب
أنظرى النعش كيف قد لبس الورس وائتزر
وعلى سجفه التوى غصن الآس وانتثر

حضن النعش زهر غرسك والتــف وصعب على رؤية غرسك
فكأنى بالورد وهو ضحوك أحسب السير فى موا كب عرسك
يا ابنة النور انفضى عنك ذا النعــش وفضى لنا هواجس نفسك
أعرتك ارتعاشة حين لاحت من زوايا الأوهام أشباح رمسك ؟
فتخوفت مورداً يقذف الوحــشة والسقم فى قرارة كأسك ؟
أم تمثلت هوة الرمس ديرا ودمى الطهر سجدا حول رأسك ؟
ورأيت العشاق شمعة إثم تتلاشى على مذابح قدسك ؟
وتصورت منكراً ونكيرا وقفا يقرآن صفحة أمسك
فتغنيت فى ضميرك جذلى وحسرت الشفاه عن سن أنسك
اهمسى ردك الوجيز فإنى لم أزل صاغياً لرنة همسك
أيها النادب اتئد وارسل البث فى حذر

لا يقولن جاهل ... شاعر البؤس قد كفر
وعلام تقل نعشك خيـــل ... تتراءى دجنـــة ظلمـاء
أهى أولى بحمل نعشك مــنى ... أم لها همـة أشد مضـاء
اتركيني أحل نعشك بالدمـ ... ـع وأرمى بنعشـك الغبراء
وأجوب الفضـاءفيك وأطوى ... من فسيح الفضاء ما يتراءى
رهواً تارة ، وطوراً هوينا ... نزلا مرة وأخرى ارتقاء
سـائلا عالم الملائك عن رو ... حك على أرى إليها اهتـداء
بل دعيني حيال نعشك أجثو ... حاسر الرأس أصعد الحوباء
ما أرى هـذه الملائك إلا ... أذناً عن ندائنا صماء
وكأنى أراهم الآن حشداً ... مشرأبين حولى اســتهزاء
قائلين : انظروا لآدم هلا ... رام إلا بأفقنا حـــواء
هكذا يسكن الضعيف إلى الـ ... ـوهم ويعلى على الهباء بنـاء
أيها البائس الذى ... شفه اليأس والضجر
صبر النفس واحترم ... حكمة الله فى البشر
الوداع الوداع يازهرة العمـ ... ـر ونبـع الآمال والأحلام
الوداع الوداع يا شعلة اللطـ ... ـف ونور الإيحاء والإلهام
حكمه الله أن تزولى وأبقى ... هائماً فى الشقاء أى هيـام
حكمة الله أن أظل حزينا ... أتلاشى على ضريح غرامى
حكمة الله أن أقطع أوتا ... ر نشيدى بأحزن الأنغـام
حكمـة الله أن أجر على صبـ ... ـح نعيمى غشاوة من ظلام
حكمة الله أن تسـدد فى القـ ... ـلب سهام الأحزان والآلام
حكمة الله أن تجف على العشـ ... ـب زهور ما زلن فى الأكمام
حكمة الله هذه ملؤها الرأفة ... والعدل وكل الإنصاف فى الأحكام
ليس لى ما أقول يامبدع الـ ... ـكون فوقع السكوت فوق الكلام
فعلى ما وهبت ألف عفاء ... وعلى ما أخذت ألف سلام

لندن ، مارس ١٩٣٢

حافظ ابراهيم

حطم الكأس والوتر وعلى بؤسه احتضر
هكذا موت شاعر خدنه الهم والكدر
جمح الشعر بالأديب إلى البؤ س وصعب عليه كبح جماحه
ولقد ناضل الحياة ولكن سلاح الأيام فوق سلاحه
أغمض الجفن حين خار به العز م وجفّت أقداحه من راحه
كهزار قد أوحشته مغانيه وعاثت كف الأذى بسراحه
ناح فى وكره الكئيب وحيداً ومرير الآلام خلف نواحه
يرسل الصرخة الحزينة فى الشدو ويزقو من داميات جراحه
وعرته ارتعاشة حين لاحت ذكريات الأفراح فى أتراحه
أبصر النهر راقصاً ورأى الروض زاهيا فى ورسه وأقاحه
ورأى الفه يروح ويغدو ويبث الأطيار عذب صداحه
فبكى لوعة فعاجله النزع فلف المنقار تحت جناحه
ما على وردة ذوت بعد ما طيبها انتشر
ما على شاعر غفا بعد ما أيقظ العصر
ولد الشاعر العظيم ملاكا أودع الوحى قبلة فوق ثغره
وسعت أمه الطبيعة تغذوه وتلقى سرّ الخلود بصدره
ورمى الحب قلبه بنبال فجرت حولها منابع شعره
فسرى شعره صدى لهواه صادقاً تلبس الشباب بوقره
ومشى فى الحياة يقرأ فيها أسطراً لم تكن تلوح لغيره
بعضها يحمل التشاؤم والبعض تشع الآلام من فوق صدره
فتغنى ما شاء أن يتغنى بنعيم قد ضل عن مستقره
فاذا شدوه وليد أساه وإذا حلوه عصارة مره
فحسا كأسه الدهاق طروبا ومشى ضاحكا لظلمة قبره

شاعر النيـل قد ثوى وبقى ذكره العطـــر
لم يمت شاعر حدا باسمه البدو والحضر
كان يرثى إلى دموع الحزانى ويزف العبرات إثر اليتامى
كان حلو اللسان يرحمه الله كريم الأخلاق أنس الندامى
وأبيا لم يخفض الجنح يوما لعتى ولا استباح ذماما
حمل النفس فوق ما تحمل النـ فس فباءت فى عبئها تترامى
إن نفسا من فلذة المجد قدت لهى نفس تستحقر الأجساما
نثرت حوله شتيت الأمانى وأرته خيـــالها البساما
فسعى غير جاهل بأمانيه ولـكـ ن عن كذبها قد تعامى
كغريق فى لجة النوم جذلان طروب يستعرض الأحلاما
كلما استيقظت جفون كراه صاح فى جفنه الغضيض فناما
هكذا يسكن الضعيف إلى الو هم ويعلى على الهباء مقاما
نـكس الرأس والرؤى فوق عينيـه تستعر
ولبـــانات نفسه بين جنبيه تحتضر
وكأنى أراه وهو مسجى وبه من دم الحياة بقية
راح يستعرض الطيوف ويـ قرا صفحات من عمره مطوية
وعلى ثغره ابتسامة لطف هى للمورد الرهيب تحية
تلك أحلامه العذاب تبقت من زوايا مخادع وهمية
كعروس لما تمثلها الفـكر بأفق القـرائح الشعرية
كلما أوشكت تميل إليـه لطمتها أنامل البشرية
وتراءت له صروف لياليه شخوصاً إنسية جنيـة
جثم البؤس حائراً كصغير فصمته عن والديه منية
ومشت حوله الهموم حيارى برؤوس معصوبة محنية
باكيات على حبيب وفىّ لم تـكن فى هواه غير وفية
شاعر النيل بث فى شدوه آية العبر

آية صورت علـى لوحها أحزن الصور
أنشد الليل باكيات أغانيه ووشى فى سجفه تحنانه
زفرة إثر زفرة أيقظت فى وقعـ ـها أعين الملا الوسنانه
عصر النفس حين تمم بالشعر فأجرى من مائها أوزانه
أيها المنشد المردد شكواه رويداً لقد لمست جنانه
رب جرح فى صدره يتنزى ودموع من جفنه هتانه
ايه أحلامه الجسام أطلى كعذارى مشدوهة عريانة
رقصى عودك الرهيب حوالـ ـيه وغنى فى أذنه أحزانه
شاعر الحزن روحه تألف الحـ ـزن وتهوى بعد الفنا ألحانه
فأقيمى عليه مأتم شعر يندب الشعر بالأسى حسانه
وانثرى فوقه التراب برفق واغرسى فوق قبره ريحانه

أيها الشاعـر الذى نازل الدهر فانكسر
لم تكن أول أمرىء خانه الحظ والقدر

شاعر النيل قد شقيت طويلا فانعم اليوم بعد طول شقاء
إن تكن نلت راحة بعدبؤس فأنا لم أنل سوى البأساء
كلما قطب الزمان أرى الكأ س ضحوكا بالخمرة الصهباء
فأزجى هذى الحياة صريعاً بين كأسى والغادة الحسناء
ليس فى العيش ما يسر ولكن إنه المرء مولع بالبقاء
ما إلى العاقل الحكيم سبيل لنعيم فى هذه الغبراء
منتهى العقل أن يعيش أخو العـ ـقل بعيداً عن عالم الضوضاء
مثل قس سميره أرغن الدير وهمس الناقوس فى الظلماء
وجمال الروحات وقت صباح وجلا الغدوات غب مساء
كلما مثل الأنام لعينيـ ـه علته ابتسامة استهزاء

حلب ١٩٣٢

شـــــوقى

عبقرى مضى ليوم حسابه وثناء الأجيال ملء كتابه
شاعر كانت الحصافة مجلاه وسحر الآيات عفو خطابه
طاف فى هيكل الحقيقة وانسلّ يناجى الجمال فى محرابه
ولكم حثّ للخيال ركابيه وخلّى الخيال خلف ركابه
فعراه شبه الغرور وما كان ليصغى إلا لرجع ربابه
هكذا آفة النبوغ غرور يفصم المرء عن كريم صحابه
كسفين هوجاء جنّ بها الركب وأفق الأنواء فى تصخابه
لطمت عارض الخضم فأرغى فكه واعتلى ضجيج عبابه
ومضت كالسهام ضاحكة منه وونى عن بطشه وعقابه
فرماها على الصخور فكانت لقمة مزّقت على أنيابه

شاعر الحب كيف قد نمت عن لذة العمر
أترى هل مللتها بعد ما فزت بالوطر ؟

هذه « كرمة ابن هانى » وهذى ورقها لم تزل تنوح كأمس
أرسلت طرفها على غير جدوى تتحراك بين آس وورس
وإذا ملّها انتظارك هزّت جنحها وارتمت على غير غرس
وعرا الحيرة الزهور فسارت بينها الوشوشات هجسا بهجس
فكأنى بها تسائل كيف استل من بينها هزار التأسى
شاعر الحب كم طويت أصيلا تحت أظلالها بخلوة أنس
والأمانى قطوفها دانيات ود الحسن بين عود وكأس
تستمد الإلهام منها فتملى كل ما دق عن خيال وحسّ
كل منظومة كأن صداها ذكر « ليلى » على مسامع « قيس »
سنة قد خلت ولكن رؤاها لم تزل فى الطروس تطفو وترسى

شاعر الحب قل لنا أعن الموت من خبر ؟
نحن فى أمره كمن نطح الصخر فازدجر

هوة الرمس قد بلغت مداها أجنان وراءها أم صحارى
هل لمست الشتات فيها لأنس ونثرت الأشعار والأوتار
والندامى كئوسها مترعات تحتسيها مدامة معطارا
ففريق من البيان نشاوى وفريق من الدنان سكارى
و « الحولى » على بساطك يشدو (بدأ الطيف بالجيل وزارا)
والعذارى لديك سكرى دلال تترضاك باغرام العذارى
راقصات كجنة عاريات تتبارى خلاعة ووقارا
بل هو الرمس ظلمة تدجى ضرب الدود طيها أوكارا
ما مضى ليس راجعاً بمكان نسجت حوله الظنون إطارا
إنما الصفو والنعيم هزار حطّ فى دوحة الحياة وطارا

أيها المنصف الألى درجت فوقهم عصر
لن ترى بيننا امرءا جاحدا آيك الغرر

ربّ ميت بعثته بعدما جرّ عليه الزمان ذيل زوال
ذاك «أنطونيو»وذى «كليوباترا» رجعا للصفا وطيب الوصال
هتفا بالهوى وحلو أمانيه وناما عن حادثات الليالى
وأقاما عرش القلوب على الصخر وعرش الدولات فوق رمال
وبساط اللذات مدّ وقامت تقرع الأكؤس الشفاه الحوالى
وإذا ما تنبها بعد لأى نفضا عنهما بقايا الضلال
ورأينا « مجنون ليلى » طريدا ثائر الدمع ضائع الآمال
يرسل الشعر من قرارة نفس هى للحب دمية المثال
يتغنى على القفار فتصغى لأغانيه عاليات الجبال
نبغته آلامه وكذا الآلام أم النبوغ ام المعالى

أطلق الروح ساعة أيها الخالد الأثر
تلق فى كل موضع مأتما ضج فانفجر

إن تجدنى أقول ما لم يقله فيك فى الشرق نادب وثكول

فلأنى كرهت سخف ابن هانى وابن أوس ومن به تدجيل
زلزلوا الأرض والسماء إذا مـــات حبيب أو غاب عنهم خليل
رب نزر من الأسى إخلاص وكثير من البكا تضليل
أعذب الشعر ما يشع به الصدق وتمشى على خطاه العقول
فلئن عابنى الحسود فلا لوم فداء الحساد داء دخيل
وكفى المرء سؤددا وفخارا أن يعاديه حاسد وجهول
ربّ رقطاء فى الفلا شفها الجـــوع وخارت وهز منها الذهول
صفرت صفرة الجنون ولما طاش حسبانها وضاق السبيل
حركت نابها وعضت على البطـــن وماتت ولم يبل غليل
أمة الضاد هذه حكمة الله فى البشر
مات شوقى وقبله ماتت القادة الكبر

حلب ١٩٣٣

المراة

محرابها فى كل صقع مكرم فذر الحديث عن الحطيم وزمزم
عذراء لم تهرم ذكاء شبابها هى مثلها علوية لم تهرم
تشدو قيان الخلد فى أعتابها ألحان مجروح الفؤاد متيم
ودمى الجمال عواريا ورواقصا كالجن إلا أنها لم ترجم
والطهر حارس خدرها جاث على أقدامها كالفارس المستلئم
والسحر كاهن ديرها يقرا لها ما فى حقيبة علمه من طلسم
هذى ملاك الحب هذي بسمة لمعت على ثغر الزمان الأقتم
حواء، ما فى الكون إلا مغرم يسعى فيجنى من حبيب مغرم
تلك الغصون مع النسيم تعانقت وتمايلت كالشارب المترنم
والنهر بث جداولا رقصت على ساق الخمائل معصما فى معصم
والطير غازل إلفه بصداحه والجنح بين مرفرف ومخيم
صور وحقك لا أحس بلطفها حتى أرى فمك الشهى على فمى
تستسلم الشفتان إلا عفة مسكية الأردان لم تستسلم
فعلىّ من تقواك بردة يوسف وعليك من تقواى بردة مريم
حتى إذا الروحان ما مزجا سعى روحى وروحك للزواج المبرم

* * *

ظلموك يا حواء جهلا مطبقا والمرء مظلوم إذا لم يظلم
غلبوا نواميس الحياة فأثقلوا عطفيك فى عبء الحجاب المؤلم
فنظرت من خلف الحجاب إلى الفتى نظر البخيل إلى نقوش الدرهم
وعشقت يا حواء حواء وكم ضرجت أردان العفاف بعندم
فإذا معين الخلق جف وهدم الحب الطهور ومال كل مقوّم
والحب ركن للفضيلة ثابت فاذا هوى فعلى الفضيلة سلمى

أنا لا أشاركك الحياة فطالما أصبحت عندى مثل سر مبهم
إنى نفضت الكف منك تحذرا نفض الأكف من الأشل الأجذم
وطعنت حبي فى حنايا أضلعى بحسام رجس أو مهند مأثم
ما ثار بى إلا وأشباح الخنا طلعت عليه بيأسها المتضرم
المومس الرعناء فوق وسادتى والشهوة الحمراء تغلى فى دمى
وبحمأة الأرجاس ألقيت العصا حتى تدنس كل خلق مكرم
ولربما ثاب الفــؤاد وهزه ندم ولكن لات ساعة مندم

* * *

يا من يفرق بين أكباد الورى باسم الشرائع أنت أكبر مجرم
ما الدين إلا قطرة من رحمــة قدسية سقطت على حقل ظمى
ما الدين إلا شعلة وضــاءة بزغت على أفق الأنام المظلم
ما الدين إلا نفحة روحيــة بثت لترشد كل ذى قلب عمى
تلك العقائد فصلت من جاهل متغطرس أو أحمق متعمم
هم حرموا للناس كل محــلل هم حللوا للناس كل محرم

حلب ١٩٣٢

الشاعر

فى تكريم الشاعر أحمد الصافى النجفى

الشموع الصفراء حين سرى الـــليل وألقى على الأنام بثوبه
أحرقت روحها لترسل منها شــعلة تطعن الظلام بلبه
والغريق الذى تخبط فى اليـــم أتته السفين تسعى لجذبه
والسفين التى أضــل بها الليـــل هداها المنار فى نور شهبه
والمنار الذى أضاء على الفلـــك وحيد يشقى بفادح خطبه
يزبد الموج وهو يلطم رجليـــه ليرى بارق النعيم بشعبه
هكذا الشــاعر المبرز يلقى شعلة الأنس من جهنم كربه
يعصر القلب حكمة فيروى تربة الفكر من عصارة قلبه

أيها الشــاعر الذى أترعت كأســه سقم
لم أجــد مثلك امرأ حظــه عاثر القــدم

أنكرت قدرك الشآم وأزرت بك حتى لم يحمل الازراء
فى فمى ثورة العتاب ولكن أنا أخشى أن تغضب الشهباء
حاربتك الحساد عهداً ولا بد ع فداء الحساد داء عيــاء
اطلقوا ذمهم عليك وهيهات يرجى من الحسود ثناء
كلما جئته بما ينعش الروح تبدى فى وجهه استهزاء
إن عينا ترى الصواب وتغضى لهى عين مطروفة عميــاء
منتهى الفخر أن تعادى فلولا العبقريات لم تك الأعداء
أرسل الشعر مثلما تطلب النفـــس وحلق ما شاءت العلياء
واملأن مسمع المولّه نجوى فلنجواك يعذب الإصــغاء

غـــير أنى أحار فى كل ما قلت من كلم
تارة تبعث الصــفا تارة تقــذف الألم

* * *

قد قرأت الخيام فى شعرك العـذب نخلت الخيام فيك يشام
كم تغنيت فى نعيم لياليـــه بشعر يحلو كما الأحلام
كم تغنيت فى بساط عليه نثرت أكؤس وفض فدام
وحواليه زمرة من حسان هن للنفس بغية ومرام
هذه فوق صدرها رقص العو د وسالت من روحه الأنغام
تلك من نشوة الطلا تمضغ النـــطق و تغفو وفى الشفاه ابتسام
مورد من سعادة ونعيم قد تساوى حلاله والحرام
غير أنى أراك تنظر للعيش بعين عاثت بها الآلام
وعلى ثغرك ابتسامة هزء طبعتها من شؤمها الأيام
كيف يلقاك (بعد عمر طويل) شاعر الخمر والهوى الخيام

دولة الشعر لم تزل أيها الشاعر العــــلم
غير رسم مشت على حسنه أرجل القدم

شعراء الزمان يا ثاقب الرأ ى نعانى من أمرهم ما نعانى
لم يكدوا حناجر الشعر إلا فى سخيف من فكرة ومعانى
لا يزالون يندبون (وقوفا) فوق أطلال سالف البنيان
كيف يبكى الأطلال شاعر عصر فيه ما فيه من سنا العمران
ولئن حاولوا النسيب فلا تســـمع إلا نوّاحة الأوزان
ليس تخلو من ذكر ظبى وبان أى حسن فى الظبى أو فى البان
إن يك الشعر ما يرون فإنى منك يا شعر قد نفضت بنانى
ما أرى الشعر غير رؤى الروح تجلت فى محكم التبيان
بعضها ضاحك وبعض عبوس فى سماء الأفراح والأحزان

أيها الشاعر اعفنى قد كبا منى القـــلم
خاننى عنـد فادح زلزل الركن والحزم
بينما أنظم الصفاء قصيدا رجفت أنملى وطاش الجنان

وعرتنى من رعشة الحزن ما لا يستطيع الإفصاح عنه البيان
فيصل مات : فليعش كل حر رسمت نصب عينه الأوطان
لست أدرى ماذا تريد الليالى بكرام رغم الاباءة هانوا
كلما افتر مبسم عربى لطمته الآلام والأحزان
إن تكن غاية الحياة فناء فمن العار أن يعيش جبان
ما احتملنا الهوان لوكان فى القو س سهام أو فى الأكف سنان
إنما الليث نابه ، فإذا طا ح تمطى واستأسد السرحان
تلك آمالنا تلوح ولكن كتفتنا عن نيلها الأزمان
كجريح يموت من ظمأ الجر ح وللماء حوله جريان

حلب ١٩٣٣

هيكل المجد

في تأبين الفقيد سعد الله الجابرى

هيكل المجد لاعدتك العوادى أنت إرث الأمجاد للأمجاد
بوركت فى هواك كل صلاة صعدتها حناجر العباد
منك هبت سمر الرجال وأدمت حاجب الشمس بالقنا الميـــاد
والمرؤات كل ماحلتها البيد فى طول سيرها من زاد
هتفت بالجهاد حتى تشظى كل تاج على صخور الجهاد
وإليك انتهى مطاف علاها دافق الخير مشرق الاسعاد
فتلمس أرجاءك الزهر تلمح كل قبر بها ، منار العباد

* * *

هيكل المجدجئت أسكب نجواك رؤى فى محاجر الآباد
فى محاريبك الوضيئة تغفو كبرياء الآباء والأجداد

قد تساوى لديك حالب شاة ۝ في مجال الفــدا وسيد ناد
أي قـبر وقفت أرنو إليه ۝ والأسى مالك على قيادى
لم يزل تربه يرف تديا ۝ بين شتى كمائم الأوراد
إن سعدا هنـا ، فيامقلة العـز أفيقى على صلاة الحداد
وانظرى علية الرجال يشدو ۝ ن بأيديهم على الأكباد
ما تبقى من أمسه غير طيف ۝ رائح في رؤى الحياة وغاد
وغداً تهدأ الشجون ويخبو ۝ لاعج الشوق في الضلوع الصوادى
وتمر الأجيال سائلة من ۝ كان سعد وماله من أيادى
من تراه بين الملوك وبين الفـاتحين الغزاة ، والقواد
أيها السائلون ، كم زيف الدر ۝ وأمسى قلائد الأجيـاد
كم قبور تنفس الطيب منها ۝ ماحدا باسمها على الدهر حاد
رب ثاو وراءها كان في قافلة ۝ الحق خير ســاع وفاد
حمل الجرح صامتا مطمئنا ۝ وأتى ربه على ميعـاد
ودم المؤمنين ما ضاع عند اللــه أجراً ان ضاع عند العباد
هكذا افتض آية العمر ســعد وطواها مع الأمانى البداد
تلك أيامه الخضيبة بالأرزا ۝ ء كانت عرائس الأعياد
قارع البغى وهو أعزل إلا ۝ من سلاحين ، نخوة واعتداد
ما نسيناه يوم جيء بابراهيـم بين الحراب والأجناد
وتلقته ســدة العدل خجلى ۝ منه ، ومن جرحه من الأصفاد
وهجان القضاة تلمع في أحـداقها الزرق ، مدية الجلاد
أو لم ينثر العتاة بســاطا ۝ ونقالا ، وخمرة للجهـاد
سألوه عن صحبه ، فأبى أن ۝ يقفر الغاب من حمى الآساد
فسرى الصمت يحبس النفـ ۝ ـس المتعب، في رهبة القضاء البادى
وإذا زأرة يموج لها الجمع ۝ وتدوى صخابة الارعاد

وإذا سـعد الأبى ، مطل ثابت العزم مطمئن الفؤاد
صاح : إنى فرند كل حسام شهزته كف العلا للجلاد
كيف أغفو على فراش الأقاحى وهنانو على فراش القتاد
أنا زودته بما أبقت الأيام فينا من عـدة وعتـاد
فاغسلوا ذل كيدكم بدمائى واحملوا هامتى على الأعواد
حبذا الموت أن رأيت على موتى حيـاة لأمتى وبلادى
وقفة ردت الذئاب سخالا وثنتها عن غيهـا المتمادى
هكذا تصمد النسور وتزرى بالسوافى على ذرى الأطواد
وتجلى من بعدها يتهادى باختيال على الأذى واتئاد
زهوة فى تواضع ، وإباء فى خشوع ، ورقة فى عناد
من ميادين تزع بالأمانى لميادين خضّبت بالعوادى
رب ليل أقام فى غيهب السجن ولم يدر ما خيـال الرقاد
وجراح أثار . والشرف المعبو د ، راض يلفها بضماد
وإذا ما انتهى إلى القمة الشـماء ، مستطلعاً جلاء الأعادى
شاء أن يطبق الجفون على أكـرم حلم بها ، وأشهى مراد
وغفا تاركا على الأرض ذكرى سلمت من تخرص الحسـاد
سعد يا سـعد ، إنه لنداء من حنين فهل عرفت المنادى
ربما غاب عن خيالك طيفى بعد طول الجفا وطول البعاد
أذهلتنى عنك انتفاضة روحى فى سماء علوية الامـداد
فترنحت ، أحسب السحب تهوى فوق مهدى والنجم فوق وسادى
أنا يا سعد ما طويت على اللوم جناحى ، ولا جرحت اعتقادى
علـم الله ما انتقدتك إلا طمعا أن أراك فوق انتقادى
وكفى المرء رفعة أن يعادى فى ميادين مجـده ، ويعادى

* * *

يا حبيب الخلود طوبى جفون نعمت بالكرى ليوم التناد
كيف لو فتحت ولاح لها عرس الأماني مؤزرا بالسواد
ملء سمع الجهاد صيحة ثأر تنفض الجمر من خلال الرماد
غمرت نخوة البلاد فماجت تتلظى حواضرا وبوادى
وتنادت حماتها لروابى القد س محمولة على الأحقاد
أترى الحق كيف أغضى حياء ولوى جيده جريح الفؤاد
شتمته تلك الشفاه التى كا نت تغنى بحمده ، وتنادى
كم جراح على اسمه السمح سالت فى رحاب الأغوار والأنجاد
أطفأت غصة الضلال وبلت غلة الاثم وهو حران صاد
وإذا جوع الطغاة تراءوا فى مسوح النساك والزهاد
أين عهد نامت عليه عيون الشرق جذلى فى العاصفات الشداد
مالنا كلما هتفنا به ارتد صداه كصيحة فى واد
لن توفى العهود ، إلا إذا ما كتبت بالدماء لا بالمداد
أى فلسطين ما العروبة لولا قبس من سنا النبوة هاد
كل حرف منها لهاة من العليا ء سالت كريمة الإنشاد
كيف لا نمشق النجوم ذبابا عن حمى السيد المسيح الغادى
إن تاجا يلفه حلم صهيون نضيدا على جبين الفساد
أقسمت أن تفضه خرزات وتوشى به سروج الجياد
هكذا عاودت ربوعك يا سعـ ـد الليالى بكل وارى الزناد
كلما أطلقت حمامة سلم جاذبتها حبائل الصياد
إنها سنة الوجود فشعب لبقاء وآخر لنفاد
فعلى الحادثات إن تتوالى وعلينا الوقوف بالمرصاد

خالد

لا تنامى ياراويات الزمان فهو لولاك موجة من دخان
تتوالى عصوره وبها منك ظلال طرية الألوان
أبداً تبسم الحياة عليها بسمة المطمئن للحدثان
أسمعيني حفيف أجنحة الالهام من أفقك القصى الدانى
وانثرى حولى الأساطير فالروح على شبه غصة الظمآن
حسبها إن أردها لك ، من قلبي صلاة ، ومن شفاهى أغانى

* * *

راويات الزمان هل شعر الرمل بنفض الغبار عن أردانى
وهبوب الأجيال فى يقظة الذكرى وتهويمة الطيوف الروانى
وانفلاتى فى الغيوب بأقدام غريب نائى الحمى حيران
ماله فى وجومه يغمر الشعر فيهمى مثلاثا ومثانى
نفحات النبي ، والفتح والعلياء، والعز ، والندى والبيان
رعشات فى أضلعى ، ماجت الصحراء فيها ، وماج فيها افتتانى
صدق الحب ، إن موطنى الأجرد روضى وجدولى ودنانى
ينبت المجد قبل أن ينبت الورد ويعطى الثمار قبل الأوان

* * *

ما أرى ؟ هذه ذوائب مخزوم وهذى خيامهم والمغانى
ما لهم زيغ الحلوم يعدون كريم المشيم للنيران
أسدلوا الأزر مغضبين، وشدوا الخز واستلأموا ليوم رهان
يطلبون النبي فى « أحد » والثأر طاغ ، لم يثنهم عنه ثان
وامتطوها مذاكيا تخطف الأرض وعضاتها على الارسان

* * *

« أحد » لاح ، حين لاح عليه   عالم ضمن هيــكل إنسانى
زرع الحق فى كتاب مبــين   وحماه بكل عضب يمانى
كيف يطوى الحسام والجاهليات   هيام الأوثان بالأوثان

* * *

وثب الهول وثبة فلت البيض   وشظت عوالى المران
وعدا المؤمنون فى غفلة النصر   وراء الاسلاب كالعقبان
فدوت صيحة النبي ، فثابوا   فإذا هم فى قبضة العــدوان
وإذا المشركون عاصفة هوجاء   تدمى جوانب الميدان
وفتاهم ، ذاك المطوح بالهام   مثير الاعجاب فى الفرسان
دفع المهر مغضبا ، فكبا المهر   أمام النبي بعد حران
فانتضى سيفه ، وهم ، فلم يقو   ولم تنطلق له قدمان
فارتضى بالسجال ، وارتد حران   وفى النفس هاجس رحمانى

* * *

أطرق المؤمنون ، والأمل العاتب   يندى على الجباه الحوانى
كل نفس فى السر سائلة من أين   ذاك الفتى العجيب الطعان
لم يلح قبل فى كنانة مخزوم   سنان كمثل هذا السنان
لا تزيغوا ، صاح النبي ، فلولا   الزيغ لم تطرقوا على الخذلان
الهوى الدنيوى والهدف العلوى   فى النفس ليس يلتقيان
أعلمتم من الفــتى المتثنى   بوشاح البطولة الأرجوانى ؟
إنه ابن الوليد ، زغردة النصر   وأنشودة الجهاد البانى
مر فى ناظرى طيفاً بعيداً   عبقرى النضال ثبت الجنان
وكأنى أراه يضرب شرق الأرض   بالغرب ، مشرق الإيمان
وأرى كبرياءه دمعة التفكير   مسفوحة على القرآن

صدق العهد ، فالفتوح توالى وصـــدى خالد بكل مكان
أينما حـل فالمـآذن ترجيـع أذان المهيمن الديان
وبدا الروم فى ضـلال مناهم شوكة فى معاقد الأجفان
فأتاهم بجفنة من رجـــال عندها المجد والردى سيان
ورماهم بهـا ، وما هى إلا جولة ، فالتراب أحمر قان
وضلوع اليرموك تجرى نعوشا حاملات هوامـــد الأبدان

* * *

هلل المؤمنون واهتزت البشرى تروى حناجر الركبان
فاذا خالد على كل جفن خطرات من الطيوف الحسان
سمر الغيد فى الليالى الـكسالى وهوى الصيد فى الزحام العوان
فتنة خيف أن يشيع بها الزهو فتلوى بالقـــائد الفتـان
فنحاه الفاروق فانضم للجند فخورا بعزة الاذعان
وتراءى أبو عبيدة فى الفيحاء يحمى قيـــادة الفرسان
وفتى النبل خالد يقحم الأسوار فى نخبة من الفتيـــان
لم تزعزع من عزمه إمرة الفاروق بل فجرته فيض تفـانى
وإذا راضت العقيدة قلبـــا فمن الصعب أن يـكون أنانى

* * *

يا مسجى فى قبة الخلد يا خالد هــــل من تلفت لبيانى ؟
لارعانى الصبا ، إذا عصف البغى وألفى فمى ضريح لســـانى
أقسم المجـد أن أقطع أوتارى عليه بأكرم الألحـــان
أنا من أمة أفاقت على العز وأغفت مغموسة فى الهوان
عرشها الرث من حراب المغيرين وأعـــلامها من الأكفان

والأماني التي استماتت عليها واجمات ... تكلمي يا أماني
لا تقل ذلت الرجولة يا خالد واستسلمت إلى الأحزان
حمحمات الخيول في ركبك الظافر ما زلن نشـــوة الآذان
كم طوت هذه المرابع أفلاذ قلوب « بدرية » الخفقان
قم تلفت تر الجنود ، كما كانوا منار الإباء والعنفوان
ما تخلوا ، عن الجهاد ، ولكن قادهم ، كل خائن ، وجبان

* * *

راويات الزمان ، مالي أناجيك ومالي اغصّ بالأشجان
اغسلي الذكريات عني فمالي في احتمال العبء الثقيل يدان
أو فسيلي مراودا ، تنثر الكحل ضياء ، في مقلة الوسنان

فهرس الكتاب

مطبعة نهضة مصر

الفجالة . القاهرة